الشاهد

رواية

جوش ماكدويل

منير فرج الله

مقدمة

على مدى أسبوعين أحسست وكأنني أعيش في عالم آخر، وأنا أتصفّح رواية شيقة جرت بعض أحداثها في شوارع مدينة بيروت خلال الستينات. حين وصلت إلى آخر صفحة فيها شعرت بحزن وأنا أقرأ النهاية وأقول وداعاً لشخصيات الرواية، وأردد وأنا أقفل الكتاب: تُرى، متى تقع يدي على رواية مثيرة وممتعة مثل هذه؟!

تدور أحداثها، لا في مدينة واحدة بل في مدن وبلاد كثيرة من المحيط إلى الخليج، عابرة بعدة أماكن اعتدت أن أتجوّل فيها للعمل أو للإجازة أو لزيارة أصدقاء أعزاء عرفتهم وأحببتهم جداً.

كنت أحلم برواية تهزّ المشاعر وتحرك القلب فتسرع نبضاته حتى يكاد ينفجر من الإثارة خلال الأحداث التي تعصف بأبطالها. رواية تبدأ أحداثها في جنوب أوروبا ثم تنتقل في مطاردات عنيفة ومغامرات بطولية عبر البحر الأبيض المتوسط من بلد إلى آخر في شمال أفريقيا إلى الشرق الأوسط. رواية تجعلني أنسى نفسي ومكاني لأسرح بخيالي وأعيش لحظات حاسمة مع أبطالها في مخاطر ومخاوف، ثم أقضي أوقات مرح ولهو مع أصدقاء وأحباء نتمتع بالحب الذي يسيطر على قلب وفكر وعواطف بطل وبطلة الرواية.

الحب؟؟!! نعم الحب!! ولِمَ لا؟؟!!

أليس الحب هو ما يسعى إليه كل إنسان شاباً كان أو رجلاً أو شيخاً؟!

الحب قوة.. الحب عطاء وتضحية.. الحب نراه ونسمعه في كل دقة من قلب المحب، وفي كل نبضة في عروق المحبوب.. الحب راحة وسلام نرجو منه أن يسود في حياتنا ويملأ بيوتنا. تُرى، أين نجد هذا الحب الذي نسعى إليه ونبحث عنه؟

رواية تخطفني وتنقلني إلى أبعد ما يمكن أن يأخذني إليه خيال وفكر وعقل وإبداع كتابها، فأنسى أين أنا حين أتوه في سطورها وأضيع بين طيات صفحاتها. رواية ليست كباقي الروايات مليئة بالمغامرات البطولية المثيرة الشيقة وحسب، بل تجيب من خلال القصة على أهم الأسئلة التي تدور في عقولنا وتحيّر أفكارنا من الطفولة وحتى الشيخوخة. أسئلة لا نجد إجابات لها بسهولة. إجابات تقنع أكبر المفكرين والعباقرة والفلاسفة.

وراء كل رواية كاتب أو كتّاب لديهم أفكار تشغلهم وخيال واسع يسبحون فيه وعندهم قدرات ومواهب خاصة للبحث والعلم والأدب والتعبير بإبداع وخلق قصصي. وهكذا وجدت نفسي جالساً في صحبة عدد من أعظم كتّاب جيلنا المعاصر لديهم كل الاستعداد والتكريس والتعاون معاً للعمل على إخراج رواية تشبع عطش شبابنا وانتظارات كبارنا في مجتمعنا الشرقي لتعكس ما بقلوبهم من حماس وإثارة وتعلن ما في أفكارهم وقلوبهم من حلول لأسرار الحياة وأحداثها.

وليس مصادفة أن تدور بعض أحداث هذه الرواية وتُكتب وتُنشر في العام نفسه الذي رحل فيه أعظم الأدباء الروائيين في هذا الجيل. أديب وكاتب كان مُفضَّلاً من بطلة رواية "الشاهد" الأستاذ الكبير أمير كتّاب القصة والرواية الحائز على جائزة نوبل للأدب الراحل الأديب نجيب محفوظ حامل أعلى وسام تمنحه جمهورية مصر العربية لأعظم كاتب مصري وأشهر أديب عالمي.

تعالوا معي، أعزائي القراء، نقضي أجمل الساعات والأيام في رحلة نزور فيها أجمل مدن الشرق والغرب وأقدمها تاريخاً وأعظمها حضارة. تعالوا نعيش مع أبطالها أيام حب ومغامرة وبطولة ونجد معهم ما وجدوه من إجابات لأسئلة العمر والدهر.

هنري عون

القسم الأول

الفصل الأول

قتلوا ابنته وخطفوا زوجته وجاء دوره وأصبح يخشى على حياته. أخذ يذرع الحجرة الواسعة والقلق والخوف يسيطران على كل حركة منه. وسط السكون خرج صوته مرتعشاً:

"أمامنا يومان – يومان فقط."

لم يمر رفيق رمزي في حياته كلها بأزمة مثل هذه تجعله يعاني ما يعانيه من ألم وحيرة. كان صلباً قوياً يتحدّى كل الصعاب، ويتغلّب على كل العقبات، ويحطّم كل من يقف في وجهه. لكنه اليوم كان ضعيفاً عاجزاً منكسراً وهو يدور بخطوات قصيرة في القاعة الكبيرة التي تتوسّط المبنى الفخم المطل على شاطئ مونت كارلو. كان يدخّن بشراهة ويشعل السيجارة تلو الأخرى من دون توقّف. امتلأ المكان دخاناً أبيض غلّف القاعة سحابة ثقيلة تضعف الرؤية وتكتم الأنفاس. في صراعه مع الموقف بدا وكأنه يفضّل الموت بسرطان الرئة عن أن يُغتال برصاصة غادرة. التفت إلى ضيفه وقال في صوت مرتعش:

"تلقّيت اليوم رسالة قبل وصولك، تهدّدني بأنه إن لم أبرق لهم بمزيد من المال قبل يوم الجمعة القادم، فسوف يقتلون كلوديت ثم يتفرّغون لمطاردتي وقتلي بعد ذلك. أتوسّل إليك مستر عقّاد. قل لي إنّ لديك أخباراً جيدة. لم أعد قادراً على الاحتمال."

بصوت جامد ولهجة هادئة سأل مروان عقّاد:

"كم يطلبون هذه المرة؟"

"خمسة وعشرون مليون يورو إضافة إلى الأحد عشر مليوناً التي دفعتها قبل ذلك."

مبلغ كبير جداً مقابل حياة إنسان واحد، لكن رفيق رمزي على الرغم من سنوات عمره التاسعة والسبعين ليس إنساناً عادياً، فقد باع منذ ستة أشهر شركته الكبيرة "النيل للاستثمار والتجارة" التي أسّسها مع شقيقه الراحل شريف عام ١٩٦٣ إلى شركة فرنسية مختلطة بمبلغ ٥٦٣ مليون يورو. بذلك أصبح أغنى رجل في مصر وانضمّ إلى الصفوة من رجال الأعمال الكبار في الشرق الأوسط والعالم العربي، يعيش حياة أسطورية من الرفاهية والترف.

كان مروان عقّاد يجلس أمامه على أريكة طويلة أنيقة من الجلد الإيطالي الثمين وهو يفكّر في الفرصة التي بين يديه. رفيق رمزي بالنسبة إليه من أفضل عملائه وأكثرهم إثارة لطموحاته. عجوز ثري يواجه خطراً يهدّد حياته وسلامته يفزعه ويرعبه. لمثل هؤلاء أنشأ مروان عقّاد شركته لتأمين حياة الأغنياء الذين يعيشون في خوف دائم من المغامرين الذين يهدّدونهم. إلا أن هذه القضية بالذات لها مذاق كريه. جشع وفساد وابتزاز وقتل. كل مكان بحث فيه، وكل ركن خفي نظر داخله، وجد نفسه وجهاً لوجه مع أبشع أنواع البشر وأسوأهم خلقاً وأشدّهم إجراماً وأكثرهم توحّشاً. رفع وجهه إلى الرجل المسنّ الخائف المرتعب واحتار كيف يساعده وليس لديه أخباراً مطمئنة يتمنّى أن يسمعها. لا يعرف ماذا يقول له مما يخفّف من المأساة التي حرمته من أعزّ امرأتين في حياته أحبّهما أكثر من كل كنوز العالم، ابنته وزوجته!

انتهى مروان من ارتشاف القهوة الفرنسية ذات النكهة المحبّبة إليه، ثم حوّل بصره إلى النافذة البانورامية التي تكشف الشاطئ ومياه البحر الأبيض المتلألئة تحت انعكاسات الشمس الغاربة. ذكّره المشهد والبحر بمكان آخر يملأ عقله وقلبه. بيروت موطنه، وشاطئ الروشة، ومياه البحر الأبيض وأمواجه تتسابق

وتدور حول الصخور. تذكّر والديه، وتساءل عن معنى الحياة التي يحياها الآن، وهو يتنقّل بين البلاد والقارات... يعيش دائماً في الشعور بالخطر، ويحمي نفسه بالملابس الواقية من طعنات الخناجر وطلقات الرصاص. دائم السفر... دائم الهروب... دائم الاختفاء. لكن على الرغم من كل ما يقوم به من عمل يدرّ عليه أموالاً لم يكن يحلم هو ولا والديه بأنه في إمكانه أن يحصل عليها. هو راضٍ عما يعمل ومقتنع به جداً. عمله مشروع ومُعترَف به من كل الجهات. تحتاجه الحكومات والأفراد خصوصاً أصحاب النفوذ والثروات. هو يحمي ويدافع عمّن يحتاجون إلى الحماية والدفاع. يحرس الأغنياء والحكّام من اللصوص الطامعين في ثرواتهم المهدّدين لسلامتهم الذين يحومون دائماً حولهم.

قاده تفكيره إلى أمه البسيطة الطيبة التي كانت دائماً تتمنّى أن يترك بيروت بعد أن أنهى خدمته في الجيش ويذهب إلى باريس ليواصل تعليمه فيها ويصبح طبيباً أو مهندساً أو محامياً، وهناك يتّصل برانيا ويتزوّجها ويستقرّ معها في بيت هادئ آمن وينجب أبناءً وبنات يحقّقون أحلامها وتطلعاتها. كم توسّلت إليه أن يفعل ذلك ويريح قلبها ويستريح؟ علت شفتيه ابتسامة. يستريح؟ كيف؟ وهو يطارد القتلة وتجّار المخدّرات ويدافع عن الباحثين عن السلام والأمان.. يستريح؟ كيف؟ وهو يساعد عملاءه في الدخول والخروج من بغداد والموصل والفلوجة. يستريح؟ كيف؟ هل يطمع الميت في النوم؟! جال ذلك كله في خاطره لحظة تحوّل بعدها إلى رفيق رمزي.

"عندي أخبار جديدة لكنها لا هي جيدة ولا سارة."

انتفض الرجل واندفع يسأله:

"ماذا؟ عن كلوديت؟ هل مسّوها بضرر؟ لو فعلوا ذلك أقتلهم. هؤلاء الحيوانات. أقسم لك يا عقّاد أطاردهم وأفتك بهم."

هزّ مروان رأسه نفياً وأوضح قائلاً:

"الأخبار عن كلوديت، لكن ليس كما تظنّ. أرجو منك أن تجلس."

"أخبرني بما تعرفه. بكل ما تعرفه. أخبرني."

"سوف أخبرك بكل ما عندي. أرجو منك أن تجلس حتى أستطيع أن أحدّثك بكل شيء."

كان يقف بصعوبة وجسده البدين يهتزّ بشدّة. خلال الأسبوعين الماضيين تدهورت صحته بشكل ملحوظ. يتنفّس بجهد وصعوبة، شهيقه وزفيره حشرجة محتضر. عيناه يغطيهما لون أحمر ويملأهما سائل أصفر يعكس مظاهر القلق والتوتّر. ألقى بنفسه على مقعد كبير وأشعل سيجارة جديدة بعصبية ظاهرة. ما إن جلس حتى مال نحو مروان وقال بصوت متوسّل والكلمات تتعثّر في أنفاسه الثقيلة:

"مسيو عقّاد. أرجو منك ألاّ تتلاعب بي."

هزّ مروان رأسه مؤكداً صدقه وسأله:

"قل لي يا مسيو رمزي، ماذا تعني ساو پاولو بالنسبة إليك؟"

بدا الارتباك على رفيق رمزي وهو يجيب:

"تقصد مدينة ساو پاولو التي في البرازيل؟"

"نعم."

"لا شيء. لماذا؟"

ضغط مروان على حروف كلماته وهو يسأل بكل جدية:

"لا شيء؟ لا شيء؟"

"لا شيء بالمرّة. لا أعرف عنها شيئاً أبداً."

"هل كان لشركة النيل للاستثمار والتجارة فروعاً هناك؟"

"لا."

"هل كان لأحد مساعديك أو شركائك علاقة بها؟"

"لا."

"هل كان لديك موظفون من البرازيل؟"

"لا أظن."

"هل ذهبت إلى ساو پاولو في رحلة عمل؟"

"لا لم أذهب."

"ولا في رحلة سياحية؟ في إجازة مع زوجتك مثلاً؟"

أجاب رفيق رمزي في ضيق:

"أنا رجل مشغول. عندي أعمال مهمة كثيرة. لم يكن لديّ وقت للسياحة والأجازات؟"

"لعلّ زوجتك ذهبت إلى هناك وحدها لأي سبب. هل حدث ذلك؟"

"لا. طبعاً لا."

"هل أنت متأكد من ذلك يا مسيو رمزي؟"

"ما الذي تسعى لأن تصل إليه بأسئلتك هذه؟"

ضغط مروان على كلماته وهو يتابع أسئلته:

"هل أنت متأكد يا سيدي؟ أرجو منك أن تفكر. فكر جيداً."

هزّ رفيق رمزي رأسه ثم ترك كرسيّه وأخذ يسير في القاعة المتّسعة في خطوات دائرية قصيرة وهو يسحب أنفاساً عميقة متتابعة من سيجارته. ثم قال ببطء:

"حسناً، الواقع. أظن أنها قامت بزيارة إلى هناك."

وبسرعة بادره مروان قائلاً:

"حدِّثني عن هذه الزيارة. قل لي."

"ليس لدي الكثير لأقوله لك. كلوديت لها قريب تزوّج امرأة برازيلية. إلا أن هذا الزواج لم يدم إلا ستة أشهر ثم تم الطلاق."

"وهل ذهبت أنت لحضور حفل الزواج؟"

"أنا لم أذهب إلى هناك. كلوديت هي التي ذهبت. وكرهت هذه الزيارة. كرهت ساو پاولو والبرازيل كلها. قالت لي ذلك. قالت إنها زحام وضجيج وفوضى. تشبه نيويورك إلى حدٍّ ما من دون سحر نيويورك، طبعاً."

"ومتى كان هذا الزواج؟"

أحنى رأسه وهو يفكّر محاولاً التذكُّر ثم اتّجه نحو البار في جانب من القاعة ومزج لنفسه شراباً وهو يقول:

"لا أتذكّر جيداً، قد يكون من ثلاث أو أربع سنوات مضت."

واتجه نحو مروان ووقف قبالته وهو يهزّ كأسه ليذيب الثلج وسأله:

"لماذا؟ إلى أين تقودنا بذلك كله؟"

لم يجب. انحنى وأمسك حقيبة أوراقه وفتحها وأخرج منها ظرفاً كبيراً أصفر، ومدّ يده به نحو رفيق رمزي الذي سأله وهو يرتشف كأس المارتيني:

"ما هذا؟"

"افتحه. تعرف ما هو."

نظر في وجهه بتمعّن ثم وضع كأسه جانباً وخطى نحوه وأمسك بالمظروف وبدأ يفتحه بحرص. أخرج منه صورة كبيرة أبيض وأسود، بعد أن تأملها اختفت الألوان من وجهه وبدا أصفر شاحباً وعكست عيناه مزيجاً من الدهشة والارتباك. فقد كانت الصورة لزوجته وعليها تاريخ بأنها التُقطت منذ ٤٨ ساعة فقط. ليست مثل الصور التي رآها لزوجته والتي أرسلها له خاطفوها مع طلب الفدية، لم تكن مقيّدة ولا مكمّمة. كانت تجلس في مكتب أمام طاولة تتحدّث مع موظّف رسمي أو مدير مسؤول.

بعد جهد استطاع رفيق رمزي أن يجمع شتات أفكاره ويتحدّث بصوت ضعيف ويداه ترتعشان بشكل واضح وقال في تلعثم:

"لا أعرف... لا أفهم. ما هذا؟ أين التُقطت هذه الصورة؟"

أجاب مروان:

"التقطتها إحدى كاميرات المراقبة في بنك في مدينة ساو پاولو. زوجتك هنا تسحب المبالغ التي أرسلتها أنت للمختطفين فدية لإطلاق سراحها."

اهتزّت الصورة في يد رفيق بشدّة حتى أنه بذل جهداً للاحتفاظ بها بين أصابعه وقال في صوت كله مرارة وإحباط وألم:

"ماذا تقول يا مسيو عقّاد؟ ماذا تقصد؟ هل تظن أن زوجتي هي التي خططت ذلك كله؟ هل تقول إن هذه الصورة دليل على خيانة زوجتي لي؟"

وجّه مروان إليه نظرات كلها تعاطف واهتمام ومواساة لما يعانيه الرجل المجروح، وانتظر حتى تستقرّ الحقيقة داخل عقله قبل أن يعرض عليه، كعميل عليه معاونته، الحل والخطوات التي يجب اتخاذها للوصول إليه.

لم تمهله الأحداث ليقول شيئاً، فقد دوى فجأة طلقان ناريان وتناثر زجاج النوافذ وملأ المكان. سقط الرجل العجوز على الأرض والدماء تنزف بغزارة من فمه. اغتيل رفيق رمزي أمام عينيه وخشي مروان أن يكون هو الضحية التالية للمعتدين.

الفصل الثاني

استمرت الطلقات تنهمر بلا توقّف وفي كل الاتجاهات. أسرع مروان يختبئ خلف مكتب كبير من الخشب الأرو بينما الصور والأطباق الثمينة المعلّقة على الجدران تتساقط من كثافة النيران وتتناثر في كل اتجاه في القاعة.

اندفع اثنان من حراس رفيق رمزي شاهرين مسدساتهما إلا أنهما سقطا صرعى بالرصاص المنهمر من الخارج قبل أن يكتشفا مصدر الطلقات. امتدّت يد مروان إلى التليفون فوق المكتب الذي يحتمي به، إلا أنه اكتشف أن الخط قد فُصل والتليفون معطّل. تحسّس جيبه باحثاً عن مسدّسه لكنه تذكّر أن حراس رفيق رمزي أخذوه منه قبل دخوله. استمر سقوط وتناثر التماثيل وأواني الزهور والتحف الثمينة وطارت أجزاؤها فوق رأسه وهو منزوٍ في مخبئه. توالى إطلاق النيران على دفعات وتحطّم كل ما في القاعة من أثاث.

لم يعد في استطاعته البقاء، فمن اغتالوا رفيق رمزي مستخدمين بنادق تلسكوبية بأيدي قناصين محترفين كما هو واضح، لا بد من أنهم يعرفون بوجوده وسيكتشفون قطعاً المكان الذي يختبئ فيه. تدحرج مروان نحو اليسار وزحف ناحية جثتي الحارسين القتيلين. اشتدّ انهمار الرصاص من حوله... التقط مسدسي الحارسين، وأخذ المظروف الذي فيه صورة زوجة رفيق رمزي، واندفع خارجاً من الباب الذي دخل منه الحارسين إلى البهو الخارجي. ما إن اقترب من المصعد حتى خرج منه حارسان آخران يشهران سلاحيهما. صرخ فيهما وهو يجري منحنياً ليتفادى الطلقات التي كانت تنهمر من حوله:

"انبطحا بسرعة. انبطحا."

ارتمى أحدهما بسرعة على الأرض، أما الثاني فلم يسعفه الوقت لذلك وسقط بلا حراك والدم ينزف من صدره بغزارة. قال الحارس الأول لمروان بسرعة:

"أسرع يا مسيو عقّاد. استخدم السلم."

أشار بيده إلى باب خروج الطوارئ ثم زحف في اتجاه زميله محاولاً مساعدته لكنه وجد ذلك ليس مجدياً.

انطلق مروان يجري بكل قوته نحو باب الخروج شاهراً المسدس حتى لا يُفاجأ بمن ينتظره ليقضي عليه. في سباق محموم أخذ يقفز نازلاً الدرجات من الدور العاشر وعقله يدور باحثاً عن مخرج من هذا الموقف الخطر. وصل إلى ردهة المبنى وهو يتمنى أن يجد السائق الذي أتى به لا يزال ينتظر كما وعده. خرج من الباب وتلفّت يبحث عنه وسط الزحام في الشارع الكبير. لم يعثر عليه. لا بد من أنه ملّ الانتظار وانطلق لشأنه. أصوات صفارات عربات الشرطة كانت تقترب من بعيد. وبينما هو يقف حائراً انطلقت من داخل المبنى أصوات صفارات الإنذار... تدافع الناس من الداخل صائحين صارخين... اختلط الحابل بالنابل وكأنه يوم الحشر. توقف انطلاق الرصاص لفترة.

وقف محتاراً ماذا يفعل؟ وفي أثناء ارتباكه سمع صوتاً يصرخ منادياً وسط الزحام:

"مسيو عقّاد!"

تلفّت من حوله إلا أنه لم يرَ إلا رجال الأمن والشرطة يجرون في كل اتجاه، وسكان البناية يتدافعون في طوفان بشري خارجين من أبواب المصاعد ووجوههم تعكس فزعاً وهلعاً وهم يصرخون. لم يتعرّف على أحد من الوجوه الكثيرة من حوله لكنه سمع الصوت مرة أخرى:

"مسيو عقّاد. هنا."

تابعت نظراته الصوت ووجد السائق الصغير الحجم يجري نحوه ويشير إليه. وصل بالقرب منه وهو لا يزال يصرخ بصوت عال:

"مسيو عقّاد. يجب أن تخرج من هنا حالاً. انتظرني حتى آتي بالسيارة. انتظرني في مكانك. لا تبتعد. أرجو منك ألاّ تتحرّك من هنا!"

"آتي معك."

"لا يا سيدي. وحدي أسرع. تركت السيارة في مكان انتظار ضيق قريب. لن أتأخر."

وانطلق الرجل الصغير يتدافع وسط الزحام ويشق طريقه نحو سيارته الكبيرة الرانج روفر Range Rover. سيارة كبيرة لا تتناسب مع حجم جسده الصغير. لم يكن هناك وقت للمناقشة فاستسلم لما يريده السائق وانتظر. كان مشغول الفكر بما حدث وأخذ في وقفته يستعيد الموقف ويتساءل: ترى هل يعرف شركاء كلوديت زوجة رفيق رمزي أنه كان يتابع التحويلات المالية التي أُبرقت إليهم؟ هل اكتشفوا أنه يعرف أن مركز عملياتهم في ساو پاولو في البرازيل؟ هل لهذا اغتالوا رفيق رمزي قبل أن تصله المعلومات التي كان يحملها إليه؟ كيف استطاعوا الوصول إلى ذلك كله؟ لم يحدث أحداً بذلك إلا رفيق رمزي نفسه قبل مقتله بلحظات.

شركته "عقّاد وشركاهم" تعاقدت مع رفيق رمزي منذ عشرة أيام فقط. رفيق يتعامل مع شركة حراسة في باريس منذ سنوات. بعد موت ابنته وخطف زوجته اتصل رفيق به لكشف غموض الجريمتين فقط ولا شيء آخر. عرض مروان عقّاد عليه أن يحل محل الشركة الفرنسية في خدمته وتعيين حراس جدد له من رجاله الذين يعرفهم جيداً ويثق بهم إلا أن رفيق رمزي لم يقبل عرضه. لم يكن يريد أن يحدث أي تغيير في نظام حراسته حتى لا يغضب الذين يبتزونه ويثيرهم، ما قد يجعلهم يسيئون إلى زوجته بشكل ما. وكان رفضه ذلك العرض قراراً خاطئاً قاتلاً.

أخذ مروان يراقب عربات الشرطة وسيارات النجدة وهي تندفع إلى المنطقة من كل اتجاه. كان يعرف أن وسائل الإعلام لن تتأخر عن الحضور أيضاً. هذا كان أسوأ ما يمكن أن يحدث له، فوجهه سيكون عرضة لأن يكشفه الإعلام الأوروبي والشرق أوسطي كصاحب شركة حراسة خاصة. هذه المعرفة ليست في صالح من يعمل في مثل هذا النشاط الذي يحتاج إلى منتهى السرية. نظر إلى ساعته وتلفت من حوله إلى الزحام الذي تجمّع خارجاً. وقعت عيناه على سائقه وهو يندفع نحو سيارته. من بعيد رآه يدخل السيارة ويدير محرّكها فتحرّك مروان نحو الباب الأمامي ليكون في انتظاره عند إحضاره السيارة أمام الباب حتى يبتعد بسرعة عن هذا المكان المشحون برجال الأمن. إلا أنه ما إن خرج إلى الطريق حتى دوى صوت انفجار عنيف هزّ الشارع كله وسقط كثير من المتجمهرين على الأرض. تحطّم زجاج البنايات وتفككت بعض النوافذ وأصاب حطامها كثيراً من الأفراد الواقفين تحتها. تساقطت الأحجار وأجزاء المبنى التي انفصلت بفعل الانفجار على الناس وأصابت الكثيرين بإصابات شديدة، فتعالت صيحات الجرحى، وسال الدم في كل مكان. أشعل الانفجار النار في بعض الأشجار والأكشاك الخشبية وارتفعت النيران إلى أعلى بشكل مخيف وتحوّل المكان إلى جحيم. قذف الانفجار مروان بشدة فسقط على وجهه وسط الحطام المتناثر في كل مكان.

قام بجهد وتحرّك ببطء وأصلح ملابسه الممزقة ومسح وجهه بيده التي تنزف منها الدماء وقد تيقّن الآن مما حدث أنه هو أيضاً مطارد مرصود من قاتلي رفيق رمزي الذين قاموا بتفجير السيارة التي كان مزمعاً أن يستقلها.

مونت كارلو

الفصل الثالث

تناثرت الأشلاء وغطت كل الشارع والأرض من حوله. الجرحى يصرخون يستنجدون بمن يسعفهم. بعضهم زحف إلى جانب الطريق ينزفون في ألم وصمت ودهشة مما حدث وهم يتلفتون باحثين عن أحبائهم الذين كانوا معهم. الكل كان يتساءل عما حدث ولماذا؟

تحامل مروان على نفسه وأخذ يتحرّك بعيداً في خطوات ثقيلة يرتّب ملابسه. تناول أحد المسدسين اللذين أخذهما من الحارسين القتيلين وأخرج خزانة الرصاص منه ومسح بصماته عنه وألقى به في صندوق قمامة في ركن الشارع. أخفى الثاني في ملابسه تحت حزام سرواله وأحكم سترته عليه وأخذ يجري في اتجاه الشمال حيث المنطقة التجارية التي تبعد قليلاً عن مكان الحادث. كان يريد أن يذهب إلى فندقه ليجمع ملابسه من غرفته ويخرج بسرعة من المدينة. الجميع من حوله في ذهول ورعب مشغولون بجراحهم، فلم يلتفت إليه أحد وهو يبتعد مسرعاً ويجري في عجلة يبحث عن وسيلة تحمله إلى الفندق.

أشار إلى سيارة أجرة مسرعة. توقّفت وصرخ في السائق:

"فندق الميريديان."

انطلقت السيارة به والشمس تغيب لتختفي خلف جبال مونت كارلو العالية. ابتدأت الأنوار تظهر وتعلو بمختلف أشكالها وألوانها على مداخل وجوانب ملاهي وكازينوهات المدينة اللاهية الصاخبة. صدحت الموسيقى في المقاهي والمطاعم والفنادق والمسارح المتجاورة في قلب مونت كارلو... مدينة القمار، والمغامرة، والمرح، واللهو للمشاهير والأغنياء. استيقظت وبدأت تستقبل الليل

بكل مباهجه ومفاجآته. على الرغم من أخبار الاعتداءات التي لا تتوقّف القنوات التليفزيونية عن بثّ صورها وتكرّر تفاصيل أحداثها. لم يهتم الكثيرون بمتابعتها بل اندفعوا يلهون ويمرحون ويصخبون.

تحوّل مروان ببصره إلى الميناء المزدحم باليخوت الفخمة الغارقة في غسق المساء، وقد أضاءت أنوارها لتنعكس على المياه في مشهد يخطف الأبصار. لم يوقف جمال المنظر عقله عن التفكير فيما يجب عليه أن يقوم به وبسرعة. لا بد أن يتصل بشقيقه رامي حالاً. يحتاج إلى نقود. يريد أن يسافر من هنا، وهذا يستدعي حجز تذاكر طيران أيضاً. يجب أن يبتعد. الموقف لا يحتمل التأجيل. لكن إلى أين يسافر؟ ومن أين يبدأ هروبه؟ هل يذهب إلى إيطاليا أم إلى فرنسا؟

الهروب قد يجعله يبدو مذنباً وأن له يد في ما حدث. يعرف ذلك جيداً لكن ليس أمامه بديلاً غيره. البقاء في مونت كارلو الآن وبعد هذه الأحداث هو الموت بعينه. سوف يواجه سلسلة تحقيقات من الشرطة طويلة وقاسية. طبعاً! من اتّصل به وعرّفه برفيق رمزي؟ لماذا جاء إلى مونت كارلو وهو يعرف جيداً أن رفيق يوكّل حراسته إلى شركة فرنسية؟ كيف يثبت أن أول لقاء له مع رفيق رمزي انتهى بمقتل الرجل؟ لماذا أخذ مسدسي الحارسين؟ لماذا لم يستعِد مسدسه ممن أخذوه منه؟ أسئلة كثيرة ومثيرة لن تتوقّف وسوف يحاصرونه ويعتصرونه ويضغطون عليه بكل الوسائل ليعترف. حتى هذه الأسئلة سهلة ويمكن مواجهتها. ما يشغله ويقلقه شيء خطير قاله رفيق رمزي حين التقى به.

توقفت السيارة أمام الفندق. دفع مروان الأجرة إلى السائق وطلب منه أن ينتظره إن أمكنه ذلك فهو لن يتأخر. أسرع إلى الداخل واتجه إلى المصعد يستقله إلى الدور الخامس حيث حجرته.

لحقت به فتاة بارعة الجمال في حوالي العشرين من عمرها. ذكّره وجهها برانيا. شعرها أسود طويل. عيناها عسليتان واسعتان. تلبس صديرية حريرية

بيضاء، وتنورة وجوارب سوداء، وتتحلّى بعقد من اللؤلؤ. أظافرها مطلية بلون أحمر فاقع يلفت النظر، وكذلك طلاء الشفتين أحمر يخلب العقل. ظلال العينين ثقيل يقترب من الكحل الشرقي. ابتسمت له في حياء، ولولا ما يشغل خاطره لاستجاب لابتسامتها وبدأ الحديث معها. الليلة لا يستطيع أن يتصرف هكذا كما اعتاد أن يفعل دائماً.

نظر إلى أسفل، وابتعد بفكره عن الفتاة، وعاد يتذكر أول حديث له مع رفيق رمزي منذ عشرة أيام بالتليفون. البداية كانت مألوفة ومعروفة، وهو يحدثه عن الظروف التي قادت إلى ما حدث لزوجته وابنته. زوجته وهي في صالون التجميل، وابنته وهي عائدة من مدرستها. وما تبع ذلك من مطالبته بفدية لاستعادة زوجته، ثم كيف قُتلت ابنته بوحشية. وسرد عليه قائمة بأسماء الأفراد الذين يتهمهم رفيق بأنهم قد يكونون هم المسؤولين عن الجريمتين. ذكر حوالي اثني عشر اسماً، من الموظفين السابقين في شركته، إلى رجال الأعمال المنافسين له في نشاطه، إلى غير ذلك من الأفراد الذين لديهم مصالح في إيذائه والاعتداء على عائلته. لم يكن ذلك ما شغل تفكير مروان. ما شغله كان سيناريو آخر على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة قد يفتح عليهم أبواب جهنم.

دقّ جرس المصعد وانفتح الباب على الدور الثالث. امتدت يد الفتاة إلى حقيبتها الصغيرة وأخرجت تليفونها المحمول وطلبت رقماً وهي تغادر المصعد. تعجّب لطريقة سير الفتاة! طبق الأصل من طريقة رانيا في السير ببطء وثبات واتزان من دون اهتزاز أو تموّج في جسدها. أغلق الباب واستمرّ في الصعود مرة أخرى. عاد مروان يفكر في ما أخبره به رفيق. قال إن اثنين من رجال المباحث الجنائية الفرنسيين حاولا منذ سنوات ابتزازه مهدّدين بأنه إن لم يدفع لهما ربع مليون يورو فسيجعلان أصدقاءهما في مصلحة الضرائب يجرون فحصاً دقيقاً في حسابات شركة النيل للاستثمار والتجارة، ويكشفون عن عدم دقة الأرقام والتزوير الذي بها، ما سيجرّ عليه الكثير من المتاعب والمشاكل. وفوق ذلك سوف يسربون أخبار التحقيقات إلى وسائل الإعلام لإحراجه وتشويه

سمعته وتلويث شكل شركته وأنشطتها. حدث ذلك في الوقت الذي كان يحاول فيه بيع شركته إلى إحدى الشركات الفرنسية الكبيرة. لم يكن من المناسب حينئذ أن يتعرّض إلى تحقيقات حكومية طويلة حتى ولو كان ادعاؤهم كاذباً. لذلك فقد قام بدفع المبلغ المطلوب لهؤلاء المبتزين وجعله تحت بند مصروفات الاستشارات والبحوث. لكنه حين عاودوا الاتصال به من جديد وطالبوه بمليون يورو، رفض واتصل بشرطة الإنتربول مبلّغاً إيّاهم بما حدث ما جعلهم يهتمون ويجرون تحقيقات دقيقة كشفت عن المجرمين وأوقعت بهم، وتم الحكم عليهم بأحكام تراوح ما بين خمس سنوات وعشرين سنة والسجن المؤبد. بعد ذلك اتصل المسجونون بالجهات الرسمية العليا يعرضون عليهم كشف أسماء المسؤولين الحقيقيين الذين استخدموهم في العملية، إلا أنهم فجأة وُجدوا مقتولين في غرف سجنهم. ولم يعثر البوليس على أي دليل يدين أحداً، وحُفظت قضيتهم وقُيّدت ضدّ مجهول.

بعد ذلك اعتذرت الحكومة الفرنسية لرفيق رمزي مع أنه لم يوجّه أي لوم إلى الحكومة بأي شكل من الأشكال. وأعلنت الجهات الرسمية لرفيق وزوجته أن المسؤولين عن الجريمة أفراد قاموا بها بمفردهم ولحسابهم الخاص، وليس لهم أي اتصال من قريب أو بعيد بأحد من رجال الأمن أو الاستخبارات الجنائية في باريس، على الرغم من ذلك أكّد الرجل لمروان أنه يعتقد أنه لا بد من وجود شخص يحتلّ مركزاً كبيراً في الأمن أو الاستخبارات أو الحكومة له علاقة فيما حدث... خطّط ودبّر عملية الابتزاز من بدايتها، وأنه عندما اكتشف رغبة العملاء المسجونين للإبلاغ عنه دبّر اغتيالهم ليخلو له الجو مرة أخرى ليمارس عملياته القذرة ضده.

هذا ما يقلق مروان. لو كان ما قاله رفيق صحيحاً وصدقت مخاوفه فإن هناك شخص يعمل على ابتزازه مستعيناً بمركزه الكبير في الأمن أو الاستخبارات الجنائية وجهات التحقيق الحكومية العليا. كيف يمكنه إذاً أن يثق بالجهات الأدنى في الأجهزة الأمنية في باريس، ويتعاون معهم في الكشف عن غموض الحادث، وتقديم المذنبين إلى العدالة؟

دقّ جرس المصعد مرة أخرى، وانفتح الباب على الدور الخامس إلا أن مروان وهو غارق في تفكيره لم يخرج من المصعد واستمرّ يتابع تأمله في القضية. هل يمكن أن يكون ما قاله رفيق رمزي صحيحاً؟ وأكثر من ذلك، هل من المعقول أن تكون كلوديت زوجة رفيق تعمل مع ذلك الشخص المجهول صاحب النفوذ في إدارة الأمن والمخابرات منذ بداية الأمر؟ لماذا؟ ما هو دافعها لذلك؟ الظواهر جميعها تؤكد أن رفيق وكلوديت زوجان سعيدان يعيشان في اتفاق ووئام. لا ينقصهما شيء. المال متوفّر جداً وكثير. الحب موجود ويربطهما منذ سنوات حين تقابلا في إحدى تجمعات رجال الأعمال في العاصمة الفرنسية. جمال وأناقة كلوديت مطمع مجلات الأناقة، ما يجعلهم يتسابقون في الحصول على صورها وإجراء الأحاديث الصحفية معها. وبعد ذلك، ها هو يقرر أن يعتزل العمل ويعيش حياة هادئة هو وعائلته يجوبان العالم ويرتشفان من كل مباهجه بلا حدود أو قيود. ماذا حدث حتى تتحرف الأمور وتتعقّد الظروف وتتوالى الأحداث الدامية بهذا الشكل؟

دق جرس المصعد يعلن عن إغلاق الباب.

أفاق مروان بسرعة وعاد إلى واقع اللحظة. سيأتي الوقت المناسب الذي سيحاول فيه أن يفكّ اللغز ويكتشف الأسرار الخفية للّعبة الغامضة. كل ما عليه الآن هو أن يسرع ليجمع ملابسه من الغرفة ويغادر المدينة. إذا أراد البوليس أن يستدعيه ليستفسر منه عما حدث فهم يعرفون أين يجدونه. له محل إقامة معلن وواضح لكل الجهات. لكنه لن يبقى هنا ليكون هدفاً لرصاصات قناص أو عرضة لانفجار قنبلة في سيارة.

بسرعة مدّ يده وفتح باب المصعد وخرج واتّجه ناحية اليمين في الممرّ الموصل إلى حجرته الذي بدا له ضعيف الإضاءة بسبب انطفاء بعض مصابيحه. رأى في آخر الممرّ شبحاً يتحرّك وسمع صوت جذب خزانة مسدس استعداداً للإطلاق مما جعله يدرك أنهم قد عثروا عليه.

الفصل الرابع

تحوّل مروان ناحية اليسار بينما انطلقت الرصاصة في اتجاهه محدثة دويّاً عالياً تردّد صداه في الفندق. اصطدمت الطلقة بالحائط المجاور له وأحدثت به ثقباً كبيراً وحطمت طلاء الجدران وتناثرت الشظايا في كل اتجاه. بسرعة أخرج المسدس الذي أخذه من أحد الحراس القتلى في بيت رفيق رمزي، وأطلقه في الاتجاه الذي جاءت منه الرصاصة. بينما هو منهمك في رد الهجوم، انفتح باب الخروج الذي في آخر الممرّ خلفه بعنف فتحوّل مروان في الوقت المناسب ليرى شبحاً آخر وراءه. تأمله ولدهشته اكتشف أنه فتاة المصعد الجميلة.

انبطح مروان على الأرض حين انطلقت دورة رصاص أخرى فوق رأسه لتصيب الحائط نفسه. صوّب مسدسه نحو رأس الفتاة، وأطلقه مرتين، ثم استدار بسرعة، ووجّه طلقاته إلى الرجل في الجانب الآخر للممرّ؛ إلا أنه لم يصب أياً منهما وإن كان ذلك أعطاه ثوان ثمينة للتصرف. تلفّت من حوله ليجد على بعد أمتار قليلة منه بهواً صغيراً جهة اليمين يقود إلى قاعة استقبال واسعة. لم يكن بأيّ منهما مكان يصلح للاختباء، لم يكن لديه بديل غيرهما. عاود إطلاق الرصاص مرتين في كلا الاتجاهين، ثم اندفع نحو البهو الصغير، وانزوى في ركن منه ليتفادى الطلقات التي صُوّبت نحوه. لم يكن في إمكان أيٍ من مطارديه اكتشاف مكانه لبعض الوقت، إلا أن ذلك لن يستمر طويلاً.

انطلقت الرصاصات وامتلأ البهو الصغير بأصواتها ورنينها. تبعه مهاجماه من الجانبين، متراً متراً، وباباً باباً. لم يكن أمامه إلا ثوانٍ معدودة ليتحرّك.

أطلق دفعتين من الرصاص في اتجاه اليمين، ودفعتين في اتجاه اليسار، ثم التفّ حول نفسه، وأطلق رصاصة على باب حجرة مغلقة بجواره معلّق عليه علامة "الرجاء عدم الإزعاج". دفع الباب بقوة بقدميه فتحطّم وسقط أمامه. قفز فوقه واقتحم الغرفة والطلقات تلاحقه من الجهتين.

كان في الغرفة عروسان جاءا لقضاء شهر العسل. كانا منزويين في طرف السرير، وقد رفعا طاولة الطعام أمامهما ليحتميا بها وهما يرتجفان خوفاً وفزعاً مما يحدث. في صوت يعلو قليلاً عن الهمس، قال مروان لهما:

"انزلا. انزلا تحت السرير حالاً. بسرعة."

لم يكن لديه الوقت ليؤكد لهما أنه ليس الرجل الشرير في الحلم المروع الذي يشاهدانه. كل ما كان يريده هو ضمان سلامتهما ولأطول مدة ممكنة. قفز العروسان إلى الأرض، وزحفا تحت السرير، وهما ينظران إليه وهو يخرج خزانة المسدس الفارغة منه، ثم يعيد حشوه من جديد، ويتجه إلى باب الشرفة الزجاجي المنزلق ويخرج إليها. وبينما هو هناك سمع صفير طلقة مسدس خلفه وأحسّ بالرصاصة وهي تصيب كتفه الأيمن. دفعته الطلقة بقوة وألقت به على المنضدة الزجاجية بالشرفة لتهوي تحته وتتحطّم. على الرغم من ذلك كان ذهنه متيقظاً فتحامل على نفسه واستدار وأخذ يطلق دفعات الرصاص بيد ويحمي وجهه باليد الأخرى. تحطم الباب الزجاجي من عنف الطلقات، وتناثرت شظايا الزجاج لتملأ الشرفة والغرفة. أصابت طلقاته الهدف، وكان من نصيب فتاة اللؤلؤ رصاصتان في صدرها. صرخت في ألم ثم انهارت وسقطت على الأرض. سقط واحد من مهاجميه لكن الآخر ما يزال طليقاً ولا بد من النيل منه أيضاً. تحرّك مروان بسرعة شديدة على الرغم من الألم الذي يحسّ به. اعتدل ونفض الزجاج عن رأسه وملابسه واستقام على قدميه واندفع إلى الغرفة وهو يعرج مصوّباً مسدسه نحو باب الغرفة في انتظار ظهور المهاجم الثاني. خرجت العروس من أسفل السرير ووقفت بجواره تصرخ بصوت عالٍ وتلطم وجهها بعنف. أسرع نحوها زوجها يحاول أن يهدّئ من روعها بلا جدوى.

اندفع مروان وانحنى فوق الفتاة ذات اللؤلؤ الملقاة على الأرض وسط الغرفة ليفحص نبضها. لم تكن قد ماتت بعد. أحسّ في عروقها نبضاً ضعيفاً بطيئاً. بركلة من قدمه قذف مسدسها بعيداً، ثم أدار جسدها لتظهر ملابسها البيضاء وقد أصبحت قرمزية بلون الدم. أطلق رصاصة نحو الباب ليتيح لنفسه بعض الوقت ثم دفع فوهة مسدسه في حنجرة الفتاة وسألها من بين أسنانه:

"من الذي أرسلك خلفي؟"

ابتسمت الفتاة في ضعف وهي تكاد تغيب عن الوعي من دون كلمة. أعاد مروان سؤاله باللغة الفرنسية لكنها لم تجب بشيء. صاح فيها بغضب:

"كلوديت رمزي؟ هل أرسلتك كلوديت رمزي خلفي من ساو پاولو؟"

لم تجب لكنها فتحت عيناها وقد علا وجهها علامات الدهشة والخوف. بدا واضحاً أنها فهمت، وأنها تعرف الاسم، وتعرف المدينة. دفع بمسدسه أكثر إلى حنجرتها، لكنها رفضت الردّ، وفجأة تكوّرت عيناها، واستدارت مرات عديدة، ثم زفرت آخر أنفاسها، وماتت.

تتابعت دقات قلب مروان سريعة قوية. امتزج في داخله شعور طاغ من الغضب والرغبة في الانتقام، واندفع الدم في عروقه بقوة وعنف.

أمسك بمسدس الفتاة وفحص خزانة الرصاص به وانطلق مندفعاً إلى الممر الخارجي وهو يطلق المسدسين بكلتي يديه أمامه بلا توقّف. لم تتح للرجل الذي في الممر أي فرصة للنجاة، أفرغ مروان رصاصات المسدسين في جسده فسقط منهاراً أمامه. دفع مروان الرجل بقدميه جانباً، وانتزع المسدس من يده اليسرى، وخزانة الرصاص الإضافية من جيب سترته.

لم يكن مع الرجل ما يثبت شخصيته. لا حافظة ولا جواز سفر ولا بطاقة شخصية. لا شيء. اندفع مروان عائداً إلى غرفة العروسين. المرأة ذات اللؤلؤ ليس لديها شيء يكشف هويتها. كلاهما قاتلان محترفان. تدرّبا على أن يخفيا

شخصيتهما وأن يبقيا مجهولين غير معروفين لأحد. يصرعان ضحاياهم في الظلام فجأة ومن دون توقّع.

لعلّ رفيق رمزي كان محقاً حين تصوّر أن للاستخبارات الفرنسية دور في المؤامرة فكل ما حدث حتى الآن حدث بدقة وبشكل مفاجئ أو بحرفية عالية.

بدأ مروان يحسّ بنار تحرق كتفه الأيمن ورأى الدم يملأ وجهه من شظايا الزجاج الذي مزّق رأسه ووجهه.

ثم انطلقت أصوات صفّارات سيارات الشرطة.

الفصل الخامس

هل يبقى في مكانه إلى حين وصول الشرطة أم يهرب؟

لم يكن أمام مروان إلا لحظات ليفكّر ويقرّر. سيصل رجال الأمن حالاً. هذا كان داعياً لأن يشعره بالأمان... بعكس ذلك، زاد تفكيره في ذلك من توتره وقلقه.

كل ما قام به اليوم دفاع عن النفس وقضيته مضمونة تماماً. لكن هل هذا يكفي؟ هو مطارَد وأياً كان مطاردوه فهم يعرفون كل تحركاته جيداً. عرفوا أنه في مونت كارلو، وعلموا أنه يقيم في فندق ميريديان، على الرغم من أنه استخدم اسماً غير اسمه لحجز الحجرة في الفندق. علموا أنه جاء ليقابل رفيق رمزي، وعرفوا وقت المقابلة تماماً، وأين ستتم بالتحديد. اكتشفوا السيارة التي سيستقلّها، والمصعد الذي سيستخدمه، والطابق الذي سيغادره إليه. كيف استطاعوا ذلك؟ كيف علموا ذلك كله؟

وحتى لو لم يكن مطارديه على اتصال بجهات الأمن في أوروبا، والشرق الأوسط، والاستخبارات الجنائية فيها، الغريب أنهم كانوا دائماً يتبعونه عن قرب وبسرعة. من يستطيع أن يلاحقه ويكون في أثره بهذه الدرجة من الدقة، ويتبعه خطوة خطوة هكذا؟ قليلون جداً الذين يعرفون ما كان يخطط له ويرتبه لرحلته هذه. التفكير في هذه الزيارة وتنفيذها تم في أقلّ من ثمان وأربعين ساعة.

فكر مروان في أن يحاول العثور على سيارة الأجرة التي جاء بها إلى الفندق. قد تكون لا تزال في انتظاره أمام الفندق ولم يهتم السائق بكل ما حدث من اضطراب في الشارع. أولم تبعده شرطة المرور؟ أولم يشعر بملل من الانتظار؟ لو حدث ذلك فسوف يعتبر مروان هذا علامة من الله أنه يجب أن

يهرب ويتجه إلى ميلان ومنها إلى روما ويلحق بأخيه في بيروت بأسرع ما يمكن. أما إذا لم يجد السائق في انتظاره، فستكون العلامة أمام مروان أن يبقى، وأن مصيره قد تحدّد فيذهب إلى الشرطة، ويقبل كل ما يحدث تبعاً لذلك.

لو كان لديه بعض الوقت لدبّر خطة أفضل، لكن كل ما أمامه الآن ثوانٍ قليلة.

وضع مروان المسدس في جيب سترته، واندفع داخلاً الغرفة، وأغلق الباب، واتجه إلى دورة المياه. صبّ الماء على وجهه، وغسل يديه، ومسح الدم من شعره، ثم بلل منشفة ونظف الجرح الغائر في كتفه من الدم. فحص الإصابة فوجد أن سترته الجلدية امتصت عنف الطلقة إلا أن الرصاصة ثقبت كتفه ومزّقته. لا بدّ من تدخل طبي لعلاج الجرح وتضميده، وإلا أدّى ذلك إلى التهاب الكتف وما يتبع ذلك من مشكلات خطيرة؛ وهذا يحتاج إلى وقت ولن يستطيع أن يفعل شيئاً الآن. ابتلع بعض الحبوب المسكنة للألم وجدها على رف قريب، ثم طوى منشفة ووضعها تحت سترته على كتفه المصاب، وألقى بالمناشف الملوّثة بالدماء في الحوض. ثم أخذ حقيبة ملابس خاصة بالعروسين من خزانة قريبة من الحمام، واندفع خارجاً من الباب الخاص للخروج الطارئ. أخذ يقفز السلالم نازلاً إلى الدور الأول، وتسلل من باب الفندق الجانبي. خرج إلى الشارع في الوقت الذي وصلت فيه أول سيارة شرطة. رأى ضابطان يقفزان منها ويدخلان ردهة الفندق. وجد سيارة الأجرة التي أحضرته منذ قليل تنتظره على بعد أمتار من الفندق. انطلق نحوها بسرعة وفتح الباب الخلفي ودخل. ما إن استقرّ على المقعد حتى قال بالفرنسية للسائق:

"إلى المطار من فضلك."

إلا أن الرجل لم يتحرّك. أعاد مروان طلبه باللغة الإنجليزية لكن لم يتلقّ رداً. ظن أن السائق نائم، فمال نحوه وهزّ كتفه، وهنا رأى الدم. قُتل السائق بطلق ناري في الجهة اليسرى من صدره.

قفز مروان من السيارة والتفّ من حولها مشهراً مسدسه. تلفّت ودار بنظره يفحص الشارع، والساحة، والمدخل الأمامي للفندق، فلم يجد أحداً لكنه سمع مزيداً من صفارات سيارات الشرطة تقترب.

ما معنى هذا؟ ما هي العلامة التي أمامه الآن؟ لديه سيارة لكنها بلا سائق. ورد في خاطره ما أفزعه! بصماته الآن على كل شيء في السيارة. على الباب والمقعد والسائق. إذا هرب الآن فسيتهمونه بقتل الرجل، ويصدرون الأوامر بتعقّبه، وإلقاء القبض عليه، وسوف تكون في ذلك نهايته؛ النهاية لشركته وأعماله وسمعته وكل شيء. لن تقوم له قائمة بعد ذلك، فرجال الأعمال والأغنياء لن يستعينون لحمايتهم برجل متهم بالقتل حتى ولو لم تثبت إدانته.

لا بدّ من أن يهرب. الهرب أفضل من البقاء؛ ذلك يتيح له الفرصة لأن يبقى على قيد الحياة!

الآن، وبعد كل ما حدث، اقتنع مروان بأن البقاء في مونت كارلو حكم بالموت. الذين يطاردونه يعرفون عنه الكثير، ولديهم الدافع لقتله. هروبه وخروجه من موناكو ثم مغادرته أوروبا سوف ينقذه مؤقتاً من المأزق إلى أن يعرف من هم الذين يسعون خلفه، ولماذا؟ ثم يخطط لتحركاته القادمة. في تلك اللحظة اختار أن يهرب من مونت كارلو.

نظر مروان خلفه، ثم تلفّت من حوله فلم يجد أحداً. ذهب إلى السائق واستطاع أن ينزل ظهر المقعد ويجعله أفقياً. ثم جذب جسد الرجل ومدده على المقعد الخلفي، وخرج من السيارة، والتفّ من حولها، وفتح صندوق السيارة، ووجد به بطانية وبعض الخرائط. غطّى جسد السائق بالبطانية، ووضع الخرائط في جيب المقعد. ثم فتح الدرج الأمامي، فوجد به كتيب دليل استخدام السيارة، والرخصة، وكارت التأمين، ودفتر للإيصالات، وعلبة مناديل ورقية، وعبوات صلصة. المناديل الورقية هي كل ما كان يحتاج إليه. تلفّت مروان من حوله مرة أخرى ثم أخذ يمسح بقدر الإمكان أجزاء السيارة الداخلية باستخدام

المناديل. جلس على مقعد القيادة بعد أن أعاد ظهره للأمام. أغلق النافذة، ثم أدار المحرّك، وهو يعدّل وضع مرآة المؤخرة. أحسّ بالألم يحرق كتفه، لكن لم يعر ذلك أي اهتمام.

ظهرت كشافات سيارات قادمة نحوه، ورأى عن بعد مدير الفندق يخرج منه مهرولاً، ويلوّح لرجال الشرطة، ثم يشير إليه، ويصرخ فيه بصوت لم يسمعه. اعتبره أمراً بالابتعاد، وإفساح الطريق لسيارات الشرطة. تحرّك مروان من المكان بهدوء وحرص كسائق محترف واتجه ناحية الغرب.

أخذ يفكر: هل الأفضل الذهاب إلى إيطاليا أم فرنسا؟ بجيبه بعض أوراق النقد الفرنسي، وملابس أخذها من حجرة العروسين. هذا غير جوازات سفر مزورة يحتفظ بها في مرسيليا تحسباً لظروف مثل هذه كما اعتاد أن يفعل لتسهيل سفره متخفّياً أثناء المهام التي يقوم بها. يمكنه أن يصل إلى مرسيليا خلال ساعتين، وهناك يتخلص من السيارة والجثة المسجاة على المقعد الخلفي، ويستقل طائرة إلى الدار البيضاء.

هو لا يعرف أحداً في المغرب. لم يذهب إليها منذ سنوات ولم يكن في نيته أبداً الذهاب إليها، إلا أنه في هذه اللحظة لم يجد مكاناً غيرها يذهب إليه وإلى المرأة التي حطّمت قلبه.

الفصل السادس

أوقف رئيس المباحث المفتش جان كلود جودار سيارته الرينو القديمة ذات البابين، وسط تجمع كبير من سيارات الشرطة والإسعاف. بالقرب منه كانت أنوار سيارات المطافئ تضيء فوقها، وعربات التلفزيون تصوّر الحادثة المثيرة من أمام البناية محل إقامة رجل الأعمال المشهور رفيق رمزي.

أخذ الملازم جودار من درج سيارته مسدسه، وشارته، وخرج لتلفح وجهه نسمات نوفمبر الباردة.

يعمل جودار كمفتش مباحث في شرطة إمارة موناكو لأكثر من عشرين سنة، وأصبح رئيساً للمباحث الجنائية فيها منذ خمس سنوات. على الرغم من خبرته وتجاربه السابقة لم يشاهد جريمة مثل هذه التي جاء يحقق فيها.

الإمارة بسكانها الاثنين والثلاثين ألفاً تعتبر ثاني أصغر دولة في العالم بعد الفاتيكان. قابعة بين إيطاليا وفرنسا في مساحة لا تتعدّى الكيلومترين المربعين بين الجبال الوعرة. توجد فيها أفخم وأجمل وأغلى المناطق المأهولة في جنوب أوربا. كانت مونت كارلو دائماً مسرحاً لجرائم صغيرة وأعمال سطو وسرقة ومشاكل متنوعة. لوجود نسبة كبيرة من أصحاب الملايين فيها أكثر من أي مكان آخر في أوربا، فحدوث ذلك ليس مستبعداً بدافع الحقد والطمع الذي يملأ قلوب الفقراء نحو الأغنياء المقيمين فيها والمترددين إليها. لكن انفجار سيارات واغتيالات وجرائم قتل متتالية في أماكن مختلفة في يوم واحد، لم يحدث ذلك إلا الآن!

مر جودار بجوار حطام السيارة الـ Range Rover المحترقة التي كانت لا تزال في مكانها والدخان يتصاعد منها. دخل بهو البناية التي كان يقيم في إحدى شققها المليونير رفيق رمزي. استخدم المصعد للوصول إلى الطابق الذي

كان مسرحاً للجريمة البشعة. خطا فوق الجثث وداس بأقدامه على طلقات الرصاص المتناثرة في كل مكان. ما إن دخل حتى وجد أمامه مساعدته الشقراء ذات الثمانية والعشرين عاماً كوليت دوڤال تلقاه في حجرة الاستقبال الكبيرة هي ومجموعة المخبرين الأكفاء الذين يعملون معه منذ سنوات طويلة. بادرته دوڤال:

"بشعة يا سيدي. جريمة بشعة جداً."

نظر إليها جودار باهتمام وسأل:

"ماذا لدينا من معلومات حتى الآن؟"

ألقى بسؤاله بهدوء شكلي ليحتفظ بمظهره كرجل متمرّس في تحقيق كل أنواع الجرائم. وقبل أن يسمع إجابة لسؤاله أخذ يتفحّص المكان الشديد الفخامة الذي لم ير مثله من قبل وقد تحطّم كل ما فيه وتناثرت الأشلاء الآدمية على قطع السجاد الثمين. أجابت دوڤال سؤاله بسؤال:

"ألم تحصل على المعلومات الأولية من ضابط الشرطة الذي أجرى المعاينة؟"

"حصلت عليها طبعاً."

"فلنبدأ بما لدينا هنا."

قادته نحو الدائرة المرسومة بالطباشير والتي يرقد في وسطها رفيق رمزي وقالت:

"دعني أقدّم لك الفقيد رفيق رمزي سليمان."

بعينين ممتلئتين بالدهشة سأل مستوضحاً:

"رفيق رمزي؟ المليونير المصري؟"

قابلت دهشته بدهشة مماثلة وهي تسأل:

"نعم هو. هل تعرفه؟"

ركز جودار نظره على الجثة وهو يستعيد ذكرياته ويقول:

"قابلته هو وزوجته في سباق السيارات الكبير Grand Prix منذ بضع سنوات وتبادلنا الحديث لبعض الوقت. رجل عظيم. حديثه أخّاذ، ساحر، ممتع! رجل نادر! بدأ حياته هو وشقيقه من الصفر في مدينته في جنوب مصر؛ أسوان، أو الأقصر، أو سوهاج، لا أذكر تماماً. واستمرّ يعمل بجهد وكفاح، ونجح، وأصبح أغنى من فراعنة مصر القدماء. بدأ يعمل بالتعدين، ومناجم الحديد الخام، والصلب، ثم الذهب، والفوسفات، وغيرها من المعادن. بعد أن توفى شقيقه دخل سوق تجارة البترول والغاز خصوصاً في الصحراء الشرقية وشمال الدلتا ما جعله يحقق ثروة كبيرة جداً. كان رجلاً قوياً صاحب نفوذ، ومكانة مرموقة، وتأثيراً كبيراً في العالم العربي كله، صديق وحليف لأغلب الرؤساء والأمراء والملوك العرب. فوق ذلك كان مثقفاً، حلو الحديث، واسع المعلومات، رقيق الأخلاق، محترماً جداً."

وبعد لحظة سكون أبرقت عيناه وهو يقول:

"أما زوجته مدام كلوديت فهي في غاية الجمال والأناقة. سيدة مجتمع من الطراز الأول. من أرقى الطبقات وأعلاها شأناً."

حوّل جودار وجهه إلى مساعدته وسألها في صوت منخفض:

"وهل هي هنا؟"

هزّت دوڤال رأسها نفياً وقالت:

"ليس تماماً."

"ماذا تقصدين؟"

"تم خطفها منذ أسبوعين من صالون تجميل في باريس."

وضع يده على رأسه ثم قال في أسى:

"يا للمصيبة!"

مالت دوڤال نحوه وقالت:

"هناك ما هو أسوأ!"

"ماذا؟"

"ابنته. ابنته الوحيدة من زواج سابق قُتلت في يوم اختطاف زوجته نفسه."

بدا عليه الفزع وهو يفكر في ما يسمعه. مستحيل. الزوج وابنته يُقتلان والزوجة تُختطف، ما هذه اللعنة التي حلّت بتلك العائلة المنكوبة؟"

"وكم عمرها؟"

أجابته دوڤال بسرعة:

"اثنان وأربعون عاماً."

"لا أقصد الزوجة. الابنة كم عمرها؟"

ظهر الإحراج على وجهها وفتحت مذكراتها وقرأت ما بها ثم قالت:

"بريجيت كانت في الثانية عشرة من عمرها."

هزّ جودار رأسه مرات عديدة والحزن باد في عينيه، فابنته في العاشرة. سرعان ما عاد إلى ذاته والتفت إلى مساعدته يسأل:

"وهل هناك من يُشتبه فيهم؟"

كان يتمنى من كل قلبه أن يستطيع معرفة المعتدين والقبض عليهم وتقديمهم إلى العدالة في أسرع وقت.

"ليس بعد."

"وهل من شهود؟"

"هناك احتمال أي يكون هناك شاهد واحد."

"من؟"

"شخص اسمه مروان عقّاد."

حوّل كل وجهه إلى دوڤال وقال بكل جدية وقوة:

"ابحثوا عنه واضبطوه وأحضروه لي."

الفصل السابع

كان مروان يقود السيارة نحو الغرب بأقصى سرعة وسط جو ملبّد بضباب وظلام يعوق الرؤية. ساعة كاملة على الطريق وهو يعاني الإرهاق والخوف، والألم الذي يعتصر جسده، ويغشّي عينيه، ويشوّش تفكيره.

كان يتوقّع عند كل نقطة حراسة يقف فيها أن يتعرّف عليه رجال الأمن، ويخرجونه من السيارة، ويقيّدون يديه، ويعيدونه مقبوضاً عليه. كل ما وقع نظره على سيارة شرطة قادمة نحوه تصوّر أن بها من يتابعه ويسعى وراءه ليقتله، إلا أن كل شيء مرّ بهدوء. هدوء غير عادي.

الوقت كان يمرّ بسرعة ولا بد من أن جهات الأمن في موناكو قد بدأت تتحرّك وتحقّق فيما حدث وتبحث عنه. وتبعاً لذلك سوف تصل التحريات إلى فرنسا وإيطاليا، وتتحرّك قوات الأمن فيهما أيضاً، وينضمون إلى من يطاردونه. وهذا يعني أنه لن يستطيع الاختباء في أوروبا ولا خيار أمامه إلا أن يذهب إلى شمال أفريقيا. لن يستطيع أن يستخدم عبَّارة للوصول إليها فهذا يستهلك وقتاً طويلاً. عليه أن يطير إلى هناك، لكن من الحماقة أن يسافر مستخدماً اسمه الحقيقي، وهذا يحتّم عليه أن يستخدم أحد جوازات السفر المزوّرة التي أعدّها لمثل هذه الظروف، ما يضطره إلى أن يتجه إلى مرسيليا للحصول على جواز سفر مناسب ثم يلحق بآخر طائرة إلى المغرب.

على قدر ما يتذكر، فإن آخر طائرة لشركة الطيران الملكية المغربية تقلع في العاشرة مساء. هي مغامرة لا بد منها، وعليه أن يقوم بتلك المخاطرة حتى ولو كان هناك احتمال القبض عليه في المطار. لم يكن أمامه اختيار آخر ولا مفرّ من المحاولة.

ظهرت أمامه علامة على جانب الطريق تعلن أنه باق له مئة كيلومتر ليصل، غمغم بلعنات مكتومة وزاد من سرعة السيارة. اندفع نحو الغرب وهو يسابق الزمن على الطريق السريع A8. كان يعرف أن في استخدام طريق عام مزدحم بالمسافرين كهذا مخاطرة كبيرة. لكن الوقت لم يكن يسمح له باتخاذ الطريق الساحلي أو الطرق الجانبية المتعرّجة الأقلّ خطورة. كان يريد أن يصل إلى المطار من أقصر الطرق وأسرعها. أخذ يفكّر ويتساءل: حتى لو وصل إلى المطار في وقت مناسب، ماذا سيفعل بالسيارة والجثة المسجاة على مقعدها الخلفي؟ وليس لديه حجز على أية رحلة طيران، ولا تذكرة، ولا حتى جواز سفر مناسب للمغامرة. بسرعة تناول التليفون وأدار رقماً في بيروت وجاءه صوت مألوف لديه:

"ألو."

"رامي. أنا مروان."

"يا رب. أهذا أنت حقاً؟ كيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ سمعت حالاً عن أشياء رهيبة حدثت في مونت كارلو. رصاص وقنابل وغير ذلك. لم يعلنوا كل التفاصيل بعد."

"لا تقلق. أنا في أحسن حال. متاعب بسيطة فقط."

لم يكن في أحسن حال، ولم تكن متاعبه بسيطة، فالجرح الذي في كتفه كان يؤلمه بشدة، لكنه لم يشأ أن يجعل رامي يقلق. هناك أمور أخرى أكثر أهمية يحتاجها من أخيه. سأله:

"هل أنت وحدك؟"

"لا أحد هنا. عاد الكل إلى بيوتهم."

"عظيم. أنا محتاج إلى مساعدة."

"تحت أمرك. أنا هنا. قل... ماذا تريد؟" أخبرني أولاً بما حدث."

"انتظر قليلاً. سأخبرك بكل شيء. أحتاج أولاً لأن تحجز لي تذكرة طائرة."

"متى؟"

"الليلة."

"إلى أين؟"

"من مرسيليا إلى الدار البيضاء."

"مرسيليا؟ هل أنت في مرسيليا؟ حسبتك في..."

قاطعه مروان قائلاً:

"أرجو منك أن تتوقف يا رامي.. سأشرح لك الأمر بعد قليل. تذكرة سفر من مرسيليا إلى الدار البيضاء. ما هو موعد آخر طائرة الليلة؟"

"الثامنة والنصف. لكني لا أظن..."

رد عليه مروان بسرعة ولهفة وقال:

"لا. لا. أظن أن هناك طائرة تقلع في العاشرة أو بعد ذلك."

لمح مروان فجأة ما يشبه سيارة شرطة قادمة نحوه من جهة اليسار فخفض سرعة السيارة ورامي على الخط يؤكد:

"صدقني يا مروان. أنا شخصياً قمت بهذه الرحلة مرات عديدة. رحلة رقم ٢٥٦ للطيران الملكي المغربي بالمشاركة مع إيرفرانس، تقلع في الثامنة والنصف وتصل العاشرة تماماً."

أضاءت سيارة الشرطة مصابيحها واقتربت منه. ارتبك مروان وخرجت اللعنات مندفعة من بين أسنانه بصوت عال سمعها رامي فسأله:

"ماذا هناك يا مروان؟ ماذا هناك؟"

"لا شيء. لا شيء... ابحث جيداً. أليست هناك رحلة أخرى؟"

فكر بسرعة ماذا يفعل. هذه الأنوار المتتابعة على سيارة الشرطة تعني أن عليه أن يتوقّف. وإذا توقّف، كيف يفسّر لهم وجود جثة في سيارته؟ كان

يسمع بوضوح صوت أصابع رامي على الكمبيوتر في الجانب الآخر، وتصوّره يراجع كل الرحلات الجوية المقلعة من مرسيليا. وجاءه الصوت أخيراً يقول:

"آسف يا مروان. إذا أردت أن تصل الدار البيضاء الليلة فليس أمامك إلا هذه الرحلة رقم ٢٥٦. هل يمكنك أن تقضي الليلة في مرسيليا وتستقل أول طائرة في الصباح الباكر؟"

بدأ يشعر بالانهيار وهو يقلل من سرعة السيارة وينحرف إلى جانب الطريق ويقول لأخيه:

"لا. يجب أن أخرج من هنا الليلة."

"فلا بد أن تلحق بطائرة الثامنة والنصف. أين أنت الآن؟"

كانت سيارة الشرطة تقترب بسرعة وهو يقول لأخيه:

"احجز لي عليها."

"ذهاب فقط؟"

أوقف مروان السيارة وأضاء أنوار الانتظار بها.

"لا. ذهاب وعودة."

"والعودة متى؟"

"الله وحده يعلم."

"وهو كذلك. اسمع. ألا تزال محتفظاً بتلك الخزانة في مرسيليا؟"

لم يجب مروان على سؤال شقيقه، فقد كان كل تركيزه على سيارة الشرطة.

علا صوت رامي على التليفون:

"مروان. الخزانة التي استأجرتها في مرسيليا؟ هل ما زلت تحتفظ بها؟"

صاح بصوت عال:

"طبعاً. وإلا ما الغرض من ذهابي الآن إلى مرسيليا؟"

"إهدأ. إهدأ. لماذا انفعلت هكذا؟ أنا أريد أن أساعدك."

وهو في قمة التوتر أخذ يردد لنفسه: ماذا يقول رامي؟ إهدأ؟ كيف أهدأ الآن؟ ثم مدّ يده وأمسك بالمسدس الذي على المقعد المجاور له وصوت رامي يصله عبر التليفون:

"أنا فقط أريد أن أعرف أي اسم ستستخدمه الليلة؟"

"كارديل."

"جاك كارديل؟"

"بالضبط."

"حسناً. أين تحب أن تجلس؟ بجوار النافذة أم بجوار الممر؟"

لم يرد مروان عليه وكتم أنفاسه.

"بجوار النافذة أم بجوار الممر؟ مروان!"

لم ينطق بكلمة. وضع التليفون جانباً بيده اليسرى ومد يده اليمنى ليتناول المسدس. كان لا يزال يسمع شقيقه وهو يصرخ في التليفون بينما أصابعه تلتفّ حول مقبض المسدس ومعدنه البارد.

"مروان. هل أنت هناك؟"

قلبه يخفق بشدة وجبهته وامتلأت بالعرق.

"مروان!"

وفجأة مرّت سيارة الشرطة بجواره وتخطته بسرعة فائقة. لم تكن تطارده!! توقّفت بجوار سيارة پورش حمراء فاخرة تقف أمامه على بعد نصف كيلومتر. ارتجف بشدة ومرّت بجسده قشعريرة هزّت المقعد الذي يجلس عليه. لم يشعر بالراحة لمرور الأزمة بل أحسّ بطعم العلقم يملأ فمه وأنفه.

لم يصدق ما كان مزمعاً أن يفعل. أو ما كاد أن يقترفه وهو يدبّر بإصرار وإدراك وترصّد أن يقتل ضابطاً بريئاً بخسة ونذالة وعلى غرة. إصبعه كان على

زناد المسدس على وشك أن يجذبه ليقتل الرجل. ماذا حدث له؟ كيف تردّى إلى هذا المستنقع؟ أإلى هذا الحدّ من الانحطاط وصل؟

في جزء من الثانية نظر مروان إلى داخل نفسه، وإلى أعماق روحه، فوجدها شديدة السواد مظلمة أكثر من الليل الذي من حوله وهو مختبئ في سيارته. زاد من ارتجافه صوت رامي وهو يصيح:

"مروان. مروان. ماذا هناك؟ ماذا يحدث لك؟"

ألقى مسدسه على المقعد المجاور في تبلّد، جفّف وجهه ويديه بمنديل ورقي وحاول استعادة أنفاسه، ثم أمسك بالتليفون، وقال بصوت مرتعش:

"نعم يا رامي. أنا معك. آسف."

ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟"

"لا. الحقيقة أنني لست بخير. أعذرني."

وأدار محرّك السيارة وأسرع يسابق الريح على الطريق إلى مرسيليا.

شعر ببركان يكاد يتفجّر داخل قلبه. أخذ يقصّ على أخيه كل ما حدث: ما تبادله من حديث مع رفيق رمزي... مصرع الرجل وانفجار سيارة الأجرة التي كان مزمعاً أن يركبها... المعركة الدامية في فندق المريديان، والسائق المقتول، وجثته الموجودة خلفه على المقعد، والذي كان يستخدم تليفونه في الحديث معه، ثم قراره بالهروب، وكيف كاد أن يرتكب جريمة قتل منذ لحظات!

كان يتكلم ببطء، وفي صوت منكسر كأنه خاطئ يعترف بخطيئته، لكنه أيضا أراد أن يبلغ شريكه وأخاه رامي بالأحداث التي مر بها. فأخوه هو الرجل الثاني في الشركة، ويجب أن يعرف كل ما جرى، والذي لا بد من أنه سيؤثر على العمل الذي يقومان به معاً. أراد أن يوضح ويكشف لرامي كل التفاصيل ليلمّ بالموقف جيداً، ويدرك الصورة الكاملة، والظروف التي مرّ بها. ثم ختم حديثه بسؤال يحمل كل ما يختلج داخله من مشاعر:

"هل تظن أنني أخطأت؟"

"تقصد بخروجك من مونت كارلو؟"

"نعم."

بعد لحظة صمت أجابه رامي بثقة:

"أبداً. لم تخطئ أبداً. لو كنت مكانك لفعلت ذلك تماماً."

"حقاً؟"

"بلا أدنى شك. لم يكن أمامك اختيار آخر."

وفي صوت ينبض بعواطف جياشة وكلمات مترددة سأله:

"ودورية الشرطة، لو أوقفتك ماذا كنت ستصنع؟"

أخذ رامي يهدّئ من روعه وهو يقول:

"أحمد الله وأشكره أنها لم تصل إلى ذلك."

لم يكن مروان في حال يسمح له أن يحمد الله ويشكره، بل بالعكس، كان غاضباً منه لسنوات عديدة. كان في داخله غضب من الله، ورفض لما يحدث له، حتى أنه لم يعد قادراً أن يردد أية صلوات تعلّمها في طفولته... يوماً بعد يوم قلَّت، وتباعدت، حتى توقّفت تماماً. لديه أسئلة كثيرة لا يجد لها إجابة عند الله. لديه جروح لم تلتئم. فَقَدَ كلَّ من أحبّه من الناس. لم يبقَ له إلا شقيقه رامي، وها هو الآن يرى كل ما حققه من أعمال يضيع، وشركته تنتهي بسبب تلك الأحداث الأخيرة. كل شيء ينهار ويتحطم وينتهي. قال لرامي في إحباط:

"هذا سوف يجرفنا إلى القاع. ما حدث سيغرقنا."

"أو يقتلنا."

تقلّصت أمعاؤه داخله وهو يسمع كلمات أخيه. رامي على صواب. عنده كل الحق. وهو السبب. هو الذي وضع شركته وأخيه في هذا الموقف التعس.

كان دائماً هو الذي يدافع عن أخيه ويحميه. هو الآن يجرّ نفسه وإياه إلى خطر عظيم، ومستقبل مروع، ومشاكل لا حصر لها. قال في صدق:

"آسف يا رامي. لم أكن أقصد أن أصل بك إلى هذه النهاية."

لم يكن رامي مستعداً أن يسمع ذلك فقال بصوت كله حماس:

"هيه. لا تقلق عليّ أبداً."

"لكني فعلاً قلق عليك."

"مروان. إسمع. أنا لست قلقاً مما حدث. وأنت يجب ألا تقلق أيضاً. لقد مررنا بظروف أسوأ من هذه."

زفر مروان ما بقلبه من حزن وألم وهمّ وخوف وتوجّس وقال:

"لا أظن يا أخي الصغير. لا أظن."

الفصل الثامن

كانت طائرات الشرطة المروحية تحوم فوق المدينة. أُقيمت نقاط تفتيش على كل الطرق التي تقود إلى مونت كارلو لمراقبة وفحص جميع الداخلين إليها والخارجين منها. كل سيارة، وتاكسي، وحافلة، وقطار كان عرضة للتفتيش الدقيق. وكذلك الفنادق جميعها الكبيرة والصغيرة، والمستشفيات، والعيادات الخاصة. أُغلق الميناء وكذلك المطارات الخاصة الموجودة في أنحاء موناكو. وأُخطر المسؤولون في مطار نيس – أقرب المطارات المفتوحة بقرب مونت كارلو والذي يحمل المسافرين منها وإليها – وكُلِّفوا بتدقيق وتكثيف عمليات تفتيش الركاب.

مع جميع هذه الإجراءات الأمنية لم يظهر أثر لمروان عقّاد الشاهد الوحيد على الجريمة التي هزّت المدينة الشاطئية الصغيرة، ولا أي خيط يقود إلى القناص أو القناصة الذين اغتالوا رفيق رمزي. هزّ مفتّش المباحث جون كلود جودار رأسه في حيرة وهو يخطو إلى الشرفة. تنفّس هواء الليل المنعش، ونظر إلى أمواج البحر التي تصدم برفق الجدران الخرسانية لأرصفة الميناء، وقد بدأت القرحة تحرق جدار معدته. اقتربت منه مساعدته كوليت وقالت وهي تمدّ إليه صورة كبيرة حديثة لا تزال ألوانها تلمع في ضوء الشرفة الخافت وتقول:

"هذه هي الصورة التي طلبتها."

"التي التقطتها كاميرا الحراسة في المدخل؟"

"نعم. الجميع جاهزون لك يا سيدي."

تناول الصورة وأخذ يدقّق النظر فيها وقال:

"لحظة من فضلك."

كانت صورة مروان عقّاد واضحة أمامه. شاب طويل وسيم، إلا أن وسامته لم تكن صارخة مثل عارضي الأزياء أو نجوم السينما. جلده به سمرة خفيفة، وشعره أسود قصير، وتبدو ذقنه في الصورة محلوقة بعناية، ناعمة ونظيفة. بلا شوارب أو سوالف. أنف دقيق، وذقن قوي، وجسم رياضي متناسق. لم يجد جودار في ملامح مروان شيئاً ملفتاً للنظر غير ذلك. لا آثار جروح، ولا علامات مميّزة تجعل التعرّف عليه وسط أي تجمّع بشري سهلاً. نموذج لرجل حراسة محترف.

أكثر ما لفت نظر جودار في الصورة هما عيناه. عينان واسعتان لونهما بني مشحونتان بدفء لم يكن يتوقّعه. حادتان طموحتان، تعكسان مزيجاً من الشموخ والعزة والزهو. لفت انتباهه شيء آخر جعله يدقق النظر في الصورة باهتمام. شيء لم يستطع أن يتبيّنه جيداً. لم يقدر أن يحدّده، ولا يستوعبه أو يدركه في عينيه. ركّز في الصورة وغاص في العينين محاولاً أن يصل إلى معرفة هذا الشيء. حزن صامت وألم خفي ممزوج بكبرياء وتعالي أو شيء من هذا القبيل حيّر جودار. التفت إلى دوڤال وقال لها في لهجة أمر:

"وزّعي هذه الصورة على رجالنا في كل مكان، وابعثي بها إلى محطات التليفزيون لعرضها على المشاهدين على أنه شخص مطلوب للتحقيق معه."

"سمعاً وطاعة يا سيدي."

"وضعوا مكافأة لمن يدلي بمعلومات عنه."

"كم؟"

"ماذا بقي لدينا من حساب المكافآت؟"

"مئة على ما أظن."

"حسناً. استخدموا الرصيد. مئة ألف يورو لأية معلومات تقودنا إلى القبض عليه وحلّ لغز هذه الجريمة الغامضة. وبلّغي كل ما حصلنا عليه من بيانات إلى شرطة الإنتربول بسرعة."

"حالاً يا سيدي."

خرج جودار من الشرفة ودلف إلى مكتب صغير في غرفة النوم حيث أراه أحد المخبرين صوراً أخرى من كاميرات الحراسة. أدهشه ما رآه من مظاهر القلق المنعكس على عيني رفيق رمزي وهو يتحدث مع مروان، أما مروان فيبدو هادئاً. وبينما هو يتابع الصور على الشريط رأى شيئاً فصاح:

"انتظر. أوقف الشريط."

مال إلى الأمام وهو يدقق النظر، والمخبر يُرجِع الشريط إلى الخلف.

"هنا. حسناً. أعد من هنا. من هنا."

كان مروان يسلم رفيق مظروفاً كبيراً أصفر اللون، وكان التعبير الأول على وجه رفيق يظهر صدمة، وبعد ذلك... ما هذا؟ ما الذي يبدو عليه بعد ذلك؟ أهو غضب أم ماذا؟ حقد واحتقار وازدراء؟ شيء من ذلك كله. سأل جودار المخبر الذي يعرض الفيلم:

"ما هذا؟ أترى ذلك؟ ما الذي أخرجه من المظروف؟"

"لا أرى جيداً. مسيو عقّاد يقف أمام الكاميرا ويعوق الرؤية."

"هل هناك زاوية أخرى تجعل الصورة أوضح؟"

"لا يا سيدي. هذا كل ما لدينا."

"هل هي صورة؟ تلك التي أخرجها من المظروف؟"

"قد تكون كذلك."

"هل يمكن أن تقرّب الصورة أكثر؟"

"لا أستطيع ذلك هنا، ممكن في المعمل. لو أردت نقوم بتقريبها في المعمل."

"نعم. إفعل ذلك. قرّب الصورة وركّزها لعل ذلك يوضح هذا الشيء الذي أخرجه من المظروف. وافعل ذلك بسرعة."

تلقّى المخبر أمر جودار وقال:

"أمر سيدي."

الفصل التاسع

الحقيقة التي لا يستطيع أن ينكرها هو أنه لا يطيق أبداً مارسيل لومييه. هذا ما كان يجول بخاطر جودار طوال الوقت. مجرد التفكير في أن عليه أن يتكلم معه من جديد، ويعمل معه مرة أخرى قلب معدته. لكن لا مفر من ذلك، فهذا الرجل مارسيل لومييه هو الذي يدير التحقيق في قضية خطف كلوديت ومقتل زوجها رفيق رمزي. لا بد من إخطاره بما حدث. واجبه أن يخبره ولا بد من أنه سيقوم بمعاينة مكان وقوع الجريمة، وشرائط الفيديو التي التقطتها كاميرات الحراسة داخل بيت رفيق. ولا بد من أن يعرف كل شيء عن مروان عقّاد الذي يعتبر حتى الآن الشاهد الرئيسي الذي لديهم إذا أمكن التوصل إليه طبعاً.

ما يضايقه أكثر أنه على المستوى العام للدوائر البوليسية في أوروبا، فإن لومييه يُعتبر أسطورة، فقد استطاع أن يكشف أسرار جرائم كبيرة غامضة من قتل، إلى خطف، إلى سطو على البنوك. تدخّل وعالج قضايا لرجال أعمال مرموقين، وأصحاب ثروات، وكثيرين ممن في مراكز القوة والنفوذ والسلطة.

على الرغم من ذلك كله، فإن جودار لا يطيقه من قريب أو بعيد. عمل معه في قضيتين سابقتين تركتا في نفسه آثاراً سيئة. أول مرة كانت عام ٢٠٠٠ حين كان أحد الساسة الفرنسيين يقضي إجازته في مونت كارلو ولم يُعثر عليه لمدة ثلاثة أيام. تلقّت زوجته طلب فدية إلا أن السلطات العليا في فرنسا نصحتها بألا تدفع. بعد ذلك عثر جودار ورجاله على جثة الرجل ملقاة على الشاطئ، وفي اليوم نفسه ، وبعد ساعات قليلة تم العثور على مضيفه في أحد الكازينوهات قتيلة في شقة بشكل يوحي أنها قد انتحرت. هل من علاقة بين الجريمتين؟ بدأ جودار التحقيق مع كل أصدقاء ومعارف وجيران الفتاة، وبعد

ثمان وأربعين ساعة استطاع أن يربط بين الحادثين بعد توفر أدلة قوية على ذلك، وتمكن من تحديد ثلاثة متهمين لم يستطع أحد منهم أن يثبت أنه كان بعيداً عن موقع الجريمتين خلال الأيام الثلاثة وقت حدوثها. قضية محكّمة وأدلّة دامغة لا يرقى إليها شك. إلا أن لوميه تدخّل وأقحم نفسه في القضية وانتزعها منه لا ليعالجها ويقدم المتهمين إلى المحاكمة، بل ظل يطيل ويتشعب في تحقيقات كثيرة لا داعي لها ما عقّد الأمر، وأضاع الأدلة، وشكك في إجراءات الضبط والتحقيق، وخرج المتهمون من السجن، ونجوا من العقاب. وأثناء ذلك كان لوميه يتصرف معه ومع معاونيه بكل غرور، وكبرياء، واستهانة، وتحقير. وبعد وقت طويل أعلن أن الأدلة غير مقنعة، والقضية غير قابلة للحل، وقيّدها ضد مجهولين، وعاد إلى باريس تاركاً جواً من الاستياء والسخط والازدراء.

المرة الثانية التي التقى فيها لوميه كان عام ٢٠٠٣، حين جاء إلى مونت كارلو رجل فرنسي من أقوى وأكبر رجال الملاحة وأعمال الشحن والسفن هو وأولاده، وقام بجولة باليخت الفاخر الذي يمتلكه، والذي اشتراه حديثاً بمبلغ خمسة وعشرين مليون دولار. خرج به من ميناء مونت كارلو في رحلة بحرية قصيرة في مياه البحر الأبيض المتوسط. لا يزال جودار يذكر الموضوع كأنه حدث في الأمس. تلقى مكالمة تليفونية عاجلة ومهمة في السادسة صباحاً أربكت زوجته وأوصلتها إلى أقصى درجات الانفعال والتوتر. أثار الحادث وسائل الإعلام وجعلها تتابع الأحداث دقيقة دقيقة وتعرض التطورات على كل القنوات التليفزيونية كما أصدرت الجرائد طبعات متتالية وإضافية تحمل عبارات مثيرة بالخطوط العريضة والمانشيتات الكبيرة.

لم يكن هيناً اختفاء شخصية بارزة مهمة كهذه، وصديق مقرّب لرئيس الوزراء الفرنسي، كأنه تبخّر في الهواء. لم يوجد له ولا لأحد من أبنائه المصاحبين له أثراً. بلا جثث. بلا دماء. بلا أدلة من أي نوع. وعلى الرغم من ذلك كله كان المسؤولون في كل مواقع السلطة يتعجلون الحل. وعلى مدى

أيام استمرت الصحف الفرنسية تنتقد بعنف شرطة مونت كارلو وتتهمهم بالبطء والتخاذل والإخفاق. قضى جودار أياماً عصيبة وهو تحت ضغوط شديدة ليقدم نتائج سريعة وأدلة تساعد على حلّ اللغز. كان يفتش عن أي شيء، بصمات أصابع أو شهود عيان، أو أي شيء يظهر تقدماً في التحقيق. لم يستطع تناول الطعام، أو النوم وهو يدفع رجاله دفعاً، ويسوقهم بعنف حتى أرهقهم وأرهق نفسه وسقط منهاراً ودخل المستشفى للعلاج. وأخيراً جاء الفرج الذي كانوا ينتظرونه على أحرّ من الجمر ويصلون لأجله. اكتشف جودار أن الأبناء كانوا مديونين لرجل ظنوا أنه من رجال المال وصاحب بنك روسي، لكنه اتضح أنه من رجال المافيا السوفييت. وقد وصل جودار إلى اكتشاف أن هذا الرجل الروسي يمتلك شقة في مونت كارلو، وأمكن التعرّف عليه وهو يجول في المدينة قبل الحادث. كما ظهر أن اثنين من شركائه كانوا يسيرون صباح يوم الاختفاء بجوار الميناء يسألون عن مكان لتأجير أحد القوارب السريعة... ابتدأت الخيوط تتجمّع وخفايا المؤامرة تتكشف. اتصل بالمسؤولين وطلب الحصول على إذن بالذهاب إلى موسكو لمتابعة تطور القضية، إلا أنه فوجئ برفض طلبه!

بعد أقل من ساعة، وبالتحديد خمسة وأربعين دقيقة، دخل لوميه مكتبه ليعلن تحويل القضية إليه وليطلب كل المستندات الخاصة بها. أبدى جودار احتجاجه إلا أن رؤساءه رفضوا اعتراضه.

وفي اليوم التالي طار لوميه بدلا من جودار إلى موسكو، ومرة أخرى تحولت القضية، وتبدلت الأمور، وأخذت الأحداث تتعقّد وتتخبط وتتهار. اختفى شركاء رجل الأعمال الروسي فجأة وبطريقة مريبة. وقدم الرجل ادعاءات واعتراضات خادعة وملتوية ومثيرة، لم يرفضها لوميه أو يعترض عليها أو يواجهها بحزم، بل بالعكس، أطلق سراح المتهمين المتورطين في القضية وعاد إلى باريس معلناً أنه لن يغلق ملف القضية تاركاً بصيصاً من الأمل في إمكان حلها.

وزاد الطين بلة أن رجل الأعمال الروسي تلقى اعتذارات رسمية من حكومات كثيرة ومن جودار نفسه عما حدث. ونال جودار من جراء ذلك لوماً، وتم خصم أجر أسبوع من مرتبه بسبب تشويه مشين لسمعة صديق كريم لإمارة موناكو من دون وجه حق.

وها هو مارسيل موريس لوميه يعود، أكثر رجال المباحث في أوروبا غروراً وعجرفة وغطرسة.

لحقت دوڤال بجودار في الشرفة وسلمته التليفون وهمست:

"هذا هو."

ضغط جودار على عينيه بشدة ثم تناول التليفون وقال:

"المفتش لوميه. أهلاً. يسرني أن أتحدث إليك مرة أخرى."

ورد الصوت الأجش يقول في كلمات جافة غير مهذبة:

"إنك تفسد عليّ يوم إجازتي."

"آسف. أعذرني يا سيدي. لا سبيل أمامي إلا الاتصال بك فعندي بعض الأخبار السيئة جداً."

أسرع لوميه بالرد:

"وهل هناك أسوأ من سماع صوتك؟"

شدّ جودار على أسنانه في غيظ من هذا الرد المستفز وقال:

"يؤسفني أن أبلغك أن رفيق رمزي قد قتل."

بعد لحظة صمت جاء صوت لوميه:

"رفيق رمزي رجل الأعمال، المليونير المصري؟!"

"هو بعينه يا سيدي."

ثم أخذ جودار يشرح ظروف مقتل رفيق رمزي وما حصل عليه من معلومات. بعد أن قال ذلك بكل ما أمكنه من إيجاز جاءه سؤال لوميه:

"هل من متهمين؟"

"ليس بعد. لكننا بدأنا التحقيق والبحث وأظن أنك تستطيع أن تساعدنا في ذلك."

"هل من شهود؟"

"نحن نمشط المنطقة كلها باحثين عن شهود. هناك رجل اسمه مروان عقّاد يمتلك شركة خاصة للأمن والحراسة. كان موجوداً مع رفيق رمزي أثناء إطلاق الرصاص. يبدو أن رفيق رمزي كان يحاول أن يستعين به ليتولى حراسته. ونأمل أن يكون قد كشف له عن مخاوفه وما يمكن أن يساعدنا على إلقاء الضوء للتعرّف على من قاموا بقتله وأسباب ذلك."

وجاء صوت لوميه عالياً على التليفون:

"ماذا تقصد بنأمل هذه؟ ألم تستجوبه بعد؟"

"في الحقيقة لا. ليس تماماً."

كان متردداً ولا يعرف كيف يجيبه فبادره قائلاً في تحقير وازدراء:

"حسناً. سأسأله أنا بنفسي. سأذهب حالاً إلى المطار. كلف أحداً بأن ينتظرني في مهبط الطائرات المروحية بعد عشرين دقيقة."

"عشرون دقيقة. ألست في باريس؟"

"لا. أنا في نيس."

قال ذلك بسخط وضيق وكأن جودار يعرف أين هو أو كان عليه أن يعرف أين يكون. لماذا لم تخبره دوڤال بأنه في نيس؟ هي تعرف أنه يكره المفاجآت. ما هذا الاستهتار؟ سوف يحاسبها على ذلك. لا بد من ذلك.

لكن ليس الآن. الآن لديه مشكلة عاجلة. أجاب قائلاً:

"وهو كذلك مسيو لوميه. سوف أرسل حالاً أحداً لينتظرك ويأتي بك إلى شقة رفيق رمزي. لكنني لا أستطيع أن أعدك بترتيب لقاء لك مع مروان عقّاد بعد."

"لماذا؟"

"مروان غير موجود. اختفى."

صرخ لومييه:

"اختفى؟"

أخذ جودار نفساً عميقاً، فهذا الخبر كان آخر ما يريد أن يبلغه لأحد خصوصاً لومييه. قال في استسلام:

"نعم. أخشى أن هذه هي الحقيقة يا سيدي. لقد انتهز مروان ما حدث من ارتباك واضطراب وفوضى فغافل الجميع وهرب. لكننا نحاصر المدينة كلها جيداً وسوف نجده ونقبض عليه في أسرع وقت ونستوجبه. نحن نعرف أنه يعتبر أهم شاهد لدينا. هو الشاهد الوحيد."

لم يُسرّ لومييه بتبريرات جودار ولا تعهداته فقال بتأنيب وحزم:

"لا يا جودار. يا مسيو جودار. أنت مخطئ. مروان عقّاد ليس شاهداً. ليس شاهدنا المهم أو الوحيد. مروان عقّاد متهم. متهم بالقتل."

سأل جودار في دهشة معلقاً على قرار لومييه الغريب:

"متهم؟ كيف؟ نحن لا نعرف شيئاً عنه. لا نعرف من هو ولماذا جاء إلى هنا؟ لا نعرف شيئاً أبداً."

صرخ لومييه في التليفون:

"إعرفْ. يجب أن تعرف كل شيء. ابحثْ بسرعة واعرفْ. أصدر أمراً بالقبض على مروان عقّاد حالاً. وكلف كل الجهات بالانتباه والتيقظ من ميلان إلى مرسيليا. لا أريد أن يفلت منا هذا الرجل. وإلا."

توقّف قليلاً ثم أطلق تهديده:

"وإلا أؤكد لك يا مسيو جودار: رؤوس كثيرة ستسقط. وأول تلك الرؤوس. رأسك أنت."

الفصل العاشر

بدأت السماء تمطر. ضغط مروان على محرك ماسحات الزجاج، وصلى إلى الله – مع أنه لم يكن يؤمن أو يثق به – ألا تنزلق السيارة إلى الهاوية التي على الجانبين. فجأة انطلق صوت جرس التليفون وسط السكون فانتفض وأمسك به.

"هالو."

"مروان. هذا أنا. رامي. هل وصلت؟"

"ليس بعد."

نظر مروان إلى ساعته، ثم إلى الخريطة المفتوحة بجواره، وبدأ يشعر بمعدته تتقلّص من الألم. الساعة تقارب السابعة والنصف وهو يقترب من مشارف مدينة مرسيليا... قال لأخيه:

"لا أظنني سأنجح يا رامي."

"مروان. لا بد من ذلك. لا بد من ذلك. ليس أمامك سبيل آخر. أنا أستطيع أن أخرجك من أي مكان بالمغرب. لكنني لن أستطيع أن أخرجك من سجن في فرنسا. كم باق عليك لتصل؟"

"خمسة كيلومترات أو عشرة. لكن انظر إلى الساعة."

"أعلم. أنا أعلم أنها السابعة والنصف عندك. لكن هناك أشياء يتحتم عليك أن تعملها قبل أن تصل إلى المطار."

"أشياء أعملها؟ ماذا؟"

"نبدأ بالتليفون. قلت أنه خاص بالسائق."

"نعم. هو ملك السائق."

"وطلبتني بواسطته مستخدماً مجمع اتصالنا اللاسلكي في براج. أليس كذلك؟"

"هذا صحيح."

"حسناً. بذلك لن تستطيع الشرطة تتبع المكالمات وتصل إلى... لكنهم لا بد من أنهم سيحاولون. لذلك لا يجب أن تحتفظ به ولا تستخدمه بعد ذلك. بمجرد أن تنهي مكالمتك معي الآن ألقِ به حالاً. لا. لا. الأفضل أن تحفر حفرة وتخفيه فيه. هل فهمت؟"

رد مروان على تعليمات رامي وهو يفكر ويسترجع ما قاله له:

"فهمت يا رامي."

واستمر أخوه يشرح له ما عليه أن يعمل بتفصيل وتدقيق. قال:

"وحين تصل إلى الدار البيضاء اشترِ تليفوناً هوائياً محمولاً جديداً. استخدم النقد. لا تقتّر ولا تبحث عن واحد رخيص الثمن. اشترِ تليفوناً حديثاً غالياً يصعب متابعة المكالمات عليه. اشتره نقداً."

"وهو كذلك."

"ولا تستخدمه إلا في الاتصال بي أنا وحدي. لا أحد غيري. أبداً. فاهم؟"

"فاهم."

"مروان. أنا جاد فيما أقول. لا بد من أن تسمع كلامي وتنفذه بدقة تامة. أنت الآن متعب وقد مررت بأحداث كبيرة. لست في كامل قواك الليلة. لا بد من أن تتوخّى الحذر. لا تستطيع أن تتحمّل تبعة أي خطأ. وحتى تمرّ من هذه الأزمة تصرّف بهدوء وحرص وحذر. لا تتصل بأي من أصدقائك. ولا من معارفك أو مَن اعتدت اللقاء بهم واللهو معهم. لا تعمل شيئاً اعتدت أن تفعله في الماضي. هل تسمعني؟"

"أسمعك. وما تطلبه سهل فأنا لا أعرف أحداً في المغرب."

وتنفّس رامي براحة حتى سُمع صوت زفيره عبر التليفون، ثم قال:

"عظيم. نفّذ ما قلته لك."

لم يكن رامي يعرف أن رانيا قد تركت باريس، وانتقلت إلى الدار البيضاء، ولم يكن مروان في حال تسمح له أن يخبر أخاه بذلك. واستمر حديث رامي:

"إسمع. هناك شيء مهم وأكيد. ظنونك في كلوديت رمزي من جهة خطتها للاستيلاء على أموال زوجها يبدو أنها صحيحة. هي تقيم الآن في ساو پاولو وتقوم بإجراء تحويلات برقية للأموال ما يجعل احتمال أنها وراء ذلك كله كبيراً. وهذه أخبار جيدة. فنحن نعلم الكثير عنها الآن."

صمت مروان يفكر في ما قاله أخوه ثم سأل:

"وما هي الأخبار السيئة؟"

كان المطر ينهمر بشدة وبلا توقف في مرسيليا، وألم الجرح في كتفه يزداد ويتضاعف مع كل دقيقة تمر. أجابه رامي:

"الأخبار السيئة هي أنهم يعرفون عنك أيضاً أنك تعرف وأنك قد كشفت مؤامرتهم وتتابع اللعبة وراءهم."

"لا أفهم كيف وصلوا إلى معرفة ذلك. فأنا الوحيد الذي يملك هذه المعلومات. طبعاً هناك مصادري الموثوق بها في زيوريخ وساو پاولو."

"لعل أحدهم عميل مزدوج خدعك؟"

"لا أظن. فأنا أتعامل معهم منذ خمسة عشر عاماً على الأقل."

"إذاً فالتليفون الذي تحدث فيه رفيق رمزي معك كان مراقَباً من خلال جهاز تنصّت."

"الذي في مونت كارلو؟"

"لا... الذي في باريس."

فكّر مروان قليلاً ثم سأل:

"ومن الذي وضع الجهاز لمعرفة اتصالات رفيق رمزي؟ شركة الحراسة الفرنسية؟"

"أو الشرطة. الأمن. ألم يقل لك أنه يشك في أن هناك من يتجسس عليه ويتابع تصرفاته من البوليس؟"

عندك حق."

"حسناً."

استوعب مروان الصورة، وأدارها في ذهنه، ومال لتصديق ما قاله شقيقه. وجاءه صوت رامي يسأله من جديد:

"ماذا قلت لرفيق رمزي حين تحدث معك بالتليفون من باريس ذلك اليوم؟ هل كلمته عن الصورة التي معك؟ هل ذكرت له ساو پاولو؟"

رد عليه مروان بسرعة قائلاً:

"لا. لا. لم نتكلم في ذلك حينئذ. كل ما قلته له أن لدي أخباراً مهمة وعاجلة، وأنني أحتاج أن أراه بسرعة في أي مكان بعيداً عن باريس."

"وهل اقترحت أن تراه في مونت كارلو؟"

"لا. هو الذي اقترح مونت كارلو."

"وبالطبع أعطاك كل تفاصيل المكان والوقت الذي ستلتقيان فيه."

"هذا صحيح."

"آه. هكذا عرفوا كل شيء. التليفون كان تحت المراقبة من خلال جهاز تنصّت."

فكر مروان في ما قاله شقيقه ووجده منطقياً ومقنعاً ليعرف مطاردوه مكان ووقت اللقاء مع رفيق رمزي. ثم بادر إلى القول:

"لكن الذين استمعوا إلى المكالمة لم يعرفوا ما كنت أملك من أخبار ومعلومات. كل ما سمعوه أن لديّ شيئاً مهماً خطيراً. صحيح أنه مهما كان ما

لدي فهو لم يكن في صالحهم. وهذا ما جعل كلوديت وشركاءها يقلقون ويتوجسون ويفكرون في إنهاء العملية جميعها فجأة. ألا تظن أن ذلك ما حدث؟"

"تماماً. وهذا جعلهم يسعون لا أن يتخلصوا من رفيق رمزي فقط. بل منك أنت أيضاً معه."

"وهذا يبرر ما حدث بعد ذلك من اعتداءات في مونت كارلو بعد أن عرفوا أنني ما زلت على قيد الحياة. وما يحدث الآن بعد فشلهم في قتلي هناك."

جاء صوت رامي متفقاً مع مروان وأضاف:

"معنى ذلك أنهم يشعرون بالخوف منك وأنهم لن يستريحوا إلا بعد القضاء عليك تماماً وقتلك."

"هذا صحيح فعلينا أن نعثر عليهم نحن قبل أن يصلوا إلينا."

"وكيف سنعثر عليهم؟"

قال مروان:

"أولاً: نرسل مجموعة من رجالنا إلى ساو پاولو في أول طائرة مسافرة إلى هناك. لا بد من أن نجد كلوديت رمزي قبل أن تهرب. وبمجرد أن نجدها ستقودنا إلى الباقين."

"هذا صحيح. أنا معك في كل ما قلت."

"ثانياً: نبحث عمّن يجري التحقيقات في مونت كارلو ونتأكد منه وهل هو أمين ويتجه في بحثه إلى هذا الاتجاه أم هو شخص لا يمكن الوثوق به."

"فهمت. وماذا أيضاً؟"

سأل مروان أخاه:

"هل لديك معارف أو اتصالات في باريس؟"

"عندي صديق يشغل مركزاً كبيراً في المباحث الجنائية الفرنسية التقيت به عندما كلفتني بأن أفتح فرع الشركة في باريس قبل أن تذهب أنت وتستقر هناك. له موقع مرموق ومهم، ونفوذ يعتد به، واتصالات واسعة، ومعارف في كل هيئات الحكومة. وفوق ذلك كله فهو مدين لي بمعروف كبير صنعته معه."

قال مروان في حماس:

"عظيم. ابحث عما إذا كان قد سمع شيئاً عما نحن فيه. احذر يا رامي. توخى الحرص ولا تندفع، فنحن لا نعرف جيداً من هم الذين يقفون ضدنا ويحركون بأصابعهم المدربة جيداً كل هذه الأحداث."

"لا تقلق. صديقي هذا ذكي وكتوم وحذر، ويمكن الوثوق به."

"لا بد من أن يكون كذلك."

استمر انهمار المطر وزادت شدته، وانخفضت حرارة الجو بشكل ملحوظ وبسرعة، لكن مروان رأى على الطريق علامة تشير إلى المنفذ الذي يؤدي إلى المطار. ولم يكن بعيداً.

"الأفضل أن أذهب الآن يا رامي. اقتربت من المطار."

"حسناً. حافظ على نفسك ولا تجازف. كلمني خلال الأيام الثلاثة القادمة."

"وهو كذلك. خلال ثلاثة أيام."

وقبل أن ينهي المكالمة نادى:

"رامي."

نعم يا مروان."

"شكراً لك."

"تشكرني؟ نحن إخوة أشقاء. وهذا أقل شيء يعمله الأشقاء."

الفصل الحادي عشر

قاد مروان السيارة إلى ساحة الانتظار في المطار تمام الساعة الثامنة مساء. ذهب إلى جانب مهجور في الجزء الخلفي من الساحة وأوقف السيارة هناك. ومسح بصمات أصابعه التي كانت عالقة داخل السيارة، وتناول حقيبة الملابس من على المقعد، وألقى المفاتيح والمسدس والتليفون المحمول في صناديق قمامة متباعدة، وأسرع ليلحق بالطائرة.

دخل إلى صالة السفر في الساعة الثامنة واثنتا عشر دقيقة. كان يسير بسرعة لكن بشكل لا يلفت الأنظار، وذهب إلى حيث الخزانة التي يستأجرها في المطار. فتحها وأمسك بمجموعة من جوازات السفر المزوّرة، ومجموعة من بطاقات الائتمان اثنان لكل اسم من الأسماء على الجوازات، وبعض أوراق النقد ذات الفئات الصغيرة من اليورو. وأخذ مجموعة من الملابس الداخلية، وزوج عدسات للعين تجعل عينيه تبدوان خضراوين بدلاً من لونهما البني، وحقيبة من النوع الذي يعلق على الظهر. أغلق باب الخزانة، وألقى صورة كلوديت رمزي في صفيحة قمامة واندفع داخل دورة مياه قريبة للرجال.

في الساعة الثامنة وواحد وعشرين دقيقة وقف أمام مركز بيع تذاكر شركة الطيران الملكية المغربية، وتسلم بطاقة المغادرة بعد أن دفع ثمن التذكرة نقداً. قالت له الموظفة الشقراء التي استقبلته:

"أسرع يا مسيو كارديل. الطائرة على وشك الإقلاع."

انطلق مروان نحو مركز مراجعة الجوازات ولم يكن أمامه إلا نفر قليل من المسافرين. إلا أن الشرطة ورجال المباحث كانوا منتشرين في كل مكان. وبدا له أن المطار ممتلئ بهم. كان قلبه يخفق بشدة، لكنه تمالك نفسه واستبعد فرصة احتمال إلقاء القبض عليه واستجوابه، وحاول جاهداً أن يبدو ساكناً، ويتظاهر بأنه الشخص الذي يدّعي أنه هو، جاك كارديل.

حاول بكل ما لديه من جهد أن يركز تفكيره في رانيا. أخذ يتذكّر ملمس يدها على وجهه وأنفاسها تدفئ صدره ورائحة عطرها يملأ أنفه. ماذا ستقول له عندما تفتح الباب وتجده أمامها؟ وماذا سيقول هو لها؟ هل ستسمح له بالدخول إلى بيتها؟ هل نسيته واستبدلته بآخر تلتقي به وتصاحبه؟ كل ما كان يحتاج إليه في هذه اللحظة أن يفكر في رانيا، إلا أنه شغل تفكيره مشاكل أخرى. ماذا ستعتبره جهات التحقيق؟ شاهد أم متهم؟ مطلوب في جريمة قتل مزدوجة بل ثلاث جرائم قتل معاً؟

هل أُخطرت المطارات، والموانئ، ومحطات السكك الحديدية، والفنادق في كل من فرنسا وإيطاليا بما حدث؟ هل يترقبه كل هؤلاء أم لا يتعدى من يبحثون عنه مونت كارلو وضواحيها؛ دائرة لا تزيد على مئة كيلومتر؟ هل نجا من الفخ؟ أم لا يزال الحبل يلتفّ حول رقبته؟

وهو يقف في الصف نظر إلى صورته منعكسة على سطح مرآة بجانبه. الحذاء العالي الذي يلبسه أطال قامته بوصتان ثم السروال الجينز الأزرق الممزق عند الركبة، والقميص الأسود، والجاكيت الكاكي الجينز، والشعار المطرز بحروف كبيرة على الظهر تقول: "الميت الضاحك"... كل هذا مع النظارات السوداء على عينيه، والحقيبة المعلقة خلف ظهره، وسماعات جهاز التسجيل المثبتة فوق أذنيه، والجهاز الكبير المعلّق في حزام سرواله، يجعله يبدو كطالب جامعي أمريكي يجول أوروبا متطفلاً على السيارات العابرة يوقفها ويركبها في انتقالاته كعادة الشباب المغامرين. لا يمكن أن يدل مظهره على أنه حارس خاص للرؤساء والوزراء ورجال الأعمال. مظهره الذي تعكسه المرآة غريب حتى عليه هو نفسه وهذا ما كان يريده.

ثمانية رجال شرطة فرنسيين على الأقل كانوا يفحصون جوازات السفر، والوجوه، والأمتعة، ويستخدمون الأجهزة الإلكترونية والمعدنية في التفتيش. شعر وكأن كل العيون تتجه نحوه. منذ سنوات لم يمرّ في مثل هذا الحصار الأمني الدقيق ويخترقه. ترى، هل لا يزال قادراً على خداع مثل هؤلاء كما كان في الماضي؟

جاء دوره أخيراً. قذف بحقيبة الملابس التي أخذها من حجرة العروسين والحقيبة التي يعلقها على ظهره فوق السير الذي يحمل الأمتعة للفحص تحت الأشعة الكاشفة، ثم سلم جواز سفره الأمريكي المزور، وتذكرة السفر، وكارت المغادرة لرئيس الشرطة. كان مظهر الرجل جافاً خشناً عدائياً. بدا هكذا لمروان، فقد كان قصيراً، جامد الملامح، حليق الرأس، محشوراً في سترته العسكرية الفرنسية، وعيناه ترسلان نظرات قاسية منذرة كلها اتهام وشك. أخذ ينظر إلى المستندات التي بيده ويفحصها بدقة. بدقة شديدة. علت دقات قلب مروان وزادت سرعتها. سأله الرجل سؤالاً باللغة الفرنسية. نظر إليه مروان بارتباك وحيرة وسحب السماعات من أذنيه وسأل مدعياً عدم الفهم:

"هه؟"

تحوّل الرجل نحوه وخاطبه باللغة الإنجليزية قائلاً له:

"مستر كارديل إلى أين أنت ذاهب الليلة؟"

وبلغة شبابية مستهترة وبلهجة جنوب كاليفورنيا قال:

"الدار البيضاء يا أخ. والرباط بالتحديد لو وجدت توصيلة."

كان سعيداً وهو يكذب أنه ليس تحت اختبار جهاز كشف الكذب.

"وحدك؟"

"للأسف."

"للعمل أم المتعة؟"

ضحك مروان ضحكة ماجنة محاولاً أن ينتزع منه بسمة، أو بادرة ترحيب، أو أي شيء يخفف من شدة التوتر والتجهم الذي يبدو عليه وقال بجرأة:

"المتعة الصافية واللهو فقط يا أخ."

لم يجد لضحكته ولا لكلماته صدى، وحملق الرجل في وجهه بشدة وقال:

"هل تحمل سلاحاً؟"

رد عليه بسرعة:

"لا."

وإن كان يتمنى في قلبه لو كان كذلك.

"مخدرات؟"

الإجابة سهلة فلم يحدث له أن جرب أو تعاطى أية مخدرات إنما لكي يكمّل الصورة التي يريد أن يبدو عليها قال مبتسماً:

"اليوم لا."

لم يبدُ على الرجل أنه أُعجب برده وسأله:

"هل معك أكثر من عشرة آلاف يورو؟"

فكّر مروان بسرعة وهو يحصي ما لديه فوجد أن ما يحمله أقل من ألفين. ضحك ثانية وقال:

"أنت تمزح يا أخ. أليس كذلك؟"

لمح حاجبي الرجل ترتفعان في تعجب فتابع كلامه:

"لقد بعت الموتوسيكل الهارلي لأخرج في هذه الرحلة. وضاع نصف المبلغ في فرنسا. لم أكن أتصور أن الأسعار مرتفعة إلى هذا الحد."

نظر إليه الرجل وسأل:

"وأين ستقيم في الرباط؟"

سكت مروان قليلاً. لم يتذكر أنه قد سبق له أن وُجِّهت إليه كل هذه الأسئلة وبهذا الشكل عند مغادرة فرنسا من قبل. هو مغادر منها لا داخل إليها. هل يعني هذا أنهم يستجوبونه هو بالذات؟ لماذا إذاً لم يقبضوا عليه؟ جفّ حلقه وهو يجيب:

"عند صديقتي."

وكانت هذه كذبة أخرى. فهو لم يرَ رانيا طوال الستة أشهر الماضية.

وليس لديه أي توقّع أن تسمح له بالدخول من الباب. أكثر من ذلك، لم يكن واثقاً أن في مقدوره أن يعثر عليها لكنه كان مرهقاً. الجرح الذي بكتفه بدأ يلتهب، فقد شعر بالبرودة تسري في عروقه. في الوقت نفسه ليس لديه أي حجز في فندق ولا أصدقاء في المغرب، ولا سبب منطقي يستدعي ذهابه إلى هناك. لم يكن لديه أي شيء يفكر فيه في تلك اللحظة غير ذلك.

نظر الرجل إليه بحدة وقال:

"يعني ليس معك مخدرات."

"بالطبع لا. أنا لست معتوهاً إلى هذا الحدّ. قد أكون غبياً قليلاً. لكن مجنون! لا."

"هل يمكن أن أفتّش حقيبتك؟"

قال الرجل ذلك وكان يبدو عليه عدم الاقتناع بكل ما قاله مروان. لم يستطع إلا أن يقبل تفتيش الحقيبة فقال باستسلام:

"تفضّل."

بعد أن خرجت الكلمات منه تذكر أنّه لم يفحص الحقيبة التي أخذها من العروسين في مونت كارلو. لا يعرف ما فيها وهل هي حقيبة الفتى أم الفتاة؟ سيعرف الآن وثمانية رجال شرطة مسلحون يفتشون الحقيبة.

بدأوا بحقيبة الظهر. مزيد من السراويل الجينز الزرقاء. قميصان قديمان. ملابس داخلية بعضها نظيف وبعضها متسخ. بطاريات لجهاز التسجيل. قصة في كتاب بعنوان "الشركة". بعض قطع الحلوى. فرشاة ومعجون أسنان. ثم علبة مجوهرات صغيرة فيها خاتم ذهبي.

ما إن وقع نظر مروان على الخاتم حتى تزاحمت الذكريات داخله.

كان قد نسي وجود الخاتم معه. لم يفكر فيه من شهور. كان هذا هو الخاتم الذي قدمه إلى رانيا والذي أعادته إليه. آلاف المشاعر عصفت به وتفجّرت داخله لكنه فجأة لمح نظره تعاطف في عيني الرجل.

"خاتم الخطبة؟ ستخطب صديقتك؟"

فوجئ بالسؤال لكنه بسرعة تمالك نفسه وقال:

"إذا قبلَتني، وإلا ما كان هناك داعياً لأن أبيع الموتوسيكل الهارلي."

لدهشته رأى ابتسامة باهتة على وجه الرجل، ابتسم ثم هزّ رأسه، وأعاد كل شيء إلى حقيبة الظهر، وأغلقها بعناية، ثم استدار نحو الحقيبة الأخرى. كاد قلب مروان أن يتوقّف. ماذا سيجد بها؟ انفتحت الحقيبة بسهولة.

أزعجه أن الحقيبة كانت ممتلئة بملابس نسائية وأدوات زينة. قمصان حريرية، وسراويل جينز ضيقة، وأحذية مختلفة الأشكال... أقمصة نوم وقطع ملابس داخلية... كلها جديدة وبعضها لا يزال عليه ورق الأسعار. أشياء رقيقة أنيقة ثمينة. ما معنى هذا؟ كيف سيفسر ذلك؟

وقف مروان محتاراً ومندهشاً، والرجل يحملق فيه بعينين نصف مغلقتين ترسلان نظرات شك واتهام تحولت بعد لحظة إلى سخرية واستهجان بعد أن راودته فكرة مقززة:

"لعل الأفضل أن أدعوك جاكلين بدلاً من جاك كارديل. أليس كذلك؟"

وأخذ يطلق ضحكات ماجنة ساخرة عالية لفتت نظر الرجال من حوله فجاروه الضحك والمجون. بعد وقت قصير تغيّرت تعبيرات وجهه فأصبحت جادة وابتسم في ودّ وقد تخلّى عن سخريته وقال:

"لعل هذه لوازم شهر العسل."

وجد مروان في هذا مخرجاً له من الإحراج الذي أحسّ به من نظرات الرجال وضحكاتهم. تراجع إلى الخلف وهو ينحني في استخفاف واستهزاء خفي قائلاً:

"هيه. عفواً. يبدو أنك أكثر ذكاء وفطنة مما يدل عليه شكلك ومظهرك. وداعاً يا أخ."

الفصل الثاني عشر

"وصل الشبح. جاء الشبح."

هذا ما كان يُطلق على لوميه من كل من جودار ودوڤال. تبريرهم لهذه التسمية أنه طويل رفيع وكتلة عظام بلا قلب، يظهر فجأة ويختفي فجأة.

وقف جودار في شرفة رفيق رمزي يراقب الطائرة المروحية التي تقل لوميه وهي تهبط إلى أرض المطار المجهّز لاستقبال هذا النوع من الطائرات.

نزل منها الرجل النحيل الطويل، وتوجّه إلى السيارة التي أمر جودار بإرسالها لاستقباله ونقله إلى المدخل الأمامي. لم يكن المطار يبعد أكثر من مئة متر عن الميدان الذي تعلو فيه البناية الفخمة التي يقيم فيها رفيق رمزي وعائلته، كما تقيم في شقة أخرى إحدى الأميرات من العائلة الحاكمة في موناكو.

من المعلومات التي جمعها جودار عرف أن رفيق رمزي لديه أربعة أماكن لإقامته، واحد في الإسكندرية على الساحل الشمالي لمصر جنوب البحر الأبيض المتوسط حيث نشأ هناك. كما كان لديه بيتاً كبيراً فخماً في ضاحية المعادي الأنيقة في القاهرة بقرب مكاتب شركة النيل للاستثمارات والتجارة. بجوار ذلك كان يمتلك شاليه فاخراً جداً في داڤوس بسويسرا وسط أشهر مناطق التزحلق على الجليد، والذي كان يقدمه لزبائنه لاستخدامه في موسم ممارسة هذه الرياضة التي لم تعد صحته تسمح له بممارستها. هذا بجوار الضيعة الكبيرة التي تزيد مساحتها على الأربعين فداناً والتي تقع على مشارف باريس في المقاطعة التي وُلدت فيها كلوديت. وكان رفيق وكلوديت يقضيان أغلب أوقاتهما هناك وسط كل مظاهر الثراء والعظمة والمناظر الطبيعية الخلابة.

شراء الشقة الفخمة في مونت كارلو كانت رغبة كلوديت وفكرتها. هذا ما قاله لجودار الطاهي الخاص لهما، والذي كان في جناح الضيوف وقت إطلاق الرصاص. قال إن السيدة كلوديت تحب الحياة الاجتماعية، وكانت تريد مكاناً مناسباً لتستضيف فيه صديقاتها وأصدقاءها المرموقين والأغنياء وأصحاب الشهرة والنفوذ لتناول الطعام والشراب، ولتندمج وسط السيدات المتأنقات المتألقات من صفوة المجتمعات، تراهنّ ويرونها وهنّ في أوج الزينة والأناقة والجمال حين يزرن مونت كارلو لقضاء الوقت للمقامرة في كازينوهاتها الشهيرة.

علا رنين التليفون، ورفع جودار السماعة حالاً، وتلقى المكالمة الواردة، ثم أعلن لمن حوله بعد أن وضع السماعة:

"هو قادم. اخرجوا جميعاً."

لم يكن أحد من فريق جودار يرغب في البقاء عند وصول الشبح. جميعهم عملوا معه من قبل. كانوا قد أنهوا المهام المكلفين بها من تصوير مكان الجريمة من كل الزوايا، ورفع بصمات الأصابع، وقياس أبعاد المكان، ومواقع إطلاق النار، والإصابات في الجدران والأثاث، وجمع وفحص طلقات الرصاص المتناثرة. كل ذلك تم، وأنهى الجميع أعمالهم، وجمعوا أدواتهم، وخرجوا بأسرع ما يمكنهم من الشقة. قالت دوقال وهي تتراجع خارجة:

"على كل حال كل شيء انتهى. نُقلت الجثث، ورُفعت البصمات، وتم جمع كل الأدلة هنا. إن كان هناك شيء آخر تحتاج إليه يمكن استدعاؤنا. نحن مستعدون للخروج."

أومأ جودار إليها فخرجت، وبعد دقائق انفتح باب المصعد وخرج منه لوميه. استقبله مرحباً:

"سيدي المفتش. أهلاً بك."

لم تكن لكلماته أي صدى من لوميه. لم يومئ برأسه. لم يتكلم. لم يبتسم. لم يعلّق. لم يصافح جودار وأهمل يده الممدودة نحوه. تحرك بمجرد دخوله إلى غرفة الاستقبال ببطء وبأسلوب تقليدي.. كان يتوقف أحياناً، وينحني يفحص

بعض علامات الطباشير وبقع الدماء. بدا مهتماً بدراسة مسار الطلقات والزوايا التي أُطلقت منها.

بعد طول انتظار تدخّل جودار قائلاً:

"حين تكون مستعداً أستطيع أن أريك الشقة المقابلة التي استخدمها القاتل أو القتلة. رجالي عثروا هناك على البندقية والتلسكوب."

بقي لوميه صامتاً... كان يحصي عدد الطلقات. تحرك من مكان إلى آخر. وتتبّع الأماكن التي كانت مبعثرة فيها على الأرض، وآثار تلك التي اصطدمت بالجدران ورفوف الكتب، والتي أصابت المكتب والمقاعد والأرائك، وفي كل مرة كان ينظر إلى المكان الذي انطلقت منه. تابع جودار كلامه:

"للأسف، لا توجد بصمات أصابع على الطلقات."

لم يعلق لوميه واستمر في صمته. وخيم على الغرفة سكون ثقيل.

أخذ جودار يتفحّص الرجل وهما يعملان في غرفة الانتظار. كاد طوله يبلغ ستة أقدام وبوصتين، نحيل نحيف بشكل مزعج، ويرتدي معطف مطر طويل أسود يغطي جسده ويلفه كأنه كفن ميت. وجهه مستطيل مسحوب هزيل في الثانية والستين من عمره، في مثل سن والده، ولديه صلعة مثل صلعته مع سلافتين رماديتين تغطيان أذنيه، وشارب رمادي رفيع تحت أنف مدببة مرتفعة بحركة تحد وغرور.

أكثر ما كان يضايق جودار فيه كانت عيناه، ليس لكونهما ضيقتان ولونهما بني داكن، لكن لأنهما تعكسان كل صفاته وقدراته؛ ذاكرة قوية خرافية تختزن الأحداث بتفاصيلها وصورها، وذكاء حاد ممتزج بالكثير من الخبث جامدتان باردتان لا تظهران أي تعاطف أو مشاعر، لا نحو ضحايا الجرائم التي يحققها ولا ذويهم. ولا تعكس تقارباً أو تعاوناً أو مشاركة مع كل من يعملون معه بجهد للوصول إلى القاتل أو القتلة لتقديمهم إلى المحاكمة. عيناه مخيفتان لا يسهل تبادل النظر معهما. ما يشغل عقله دائماً هو كيف استطاع هذا الرجل الجاف جامد المشاعر الذي يفتقد كل العواطف الإنسانية أن يصل إلى ما

وصل إليه من شهرة كبيرة وتقدير واهتمام جميع الدوائر الجنائية في أوروبا. لا أحد ينكر أن القضايا التي عالجها والنتائج التي حققها فيها كانت مذهلة لدرجة أنها تُدرّس في أكاديميات الشرطة والاستخبارات الجنائية في العالم. لكن هناك أيضاً قضايا تناولها فشلت بسبب الإهمال والمماطلة وعدم الدقة ونبذ الأدلة والوقائع المهمة. كيف لا تُذكر هذه الحالات الفاشلة عندما يرد ذكر مارسيل لوميه؟

قطع لوميه الصمت الذي لفّ غرفة الاستقبال فجأة وقال:

"لا يمكن أن تتصوّر مقدار سعادتي وأنا أقترب من موقع جريمة قتل حديثة وأتحسس المكان وأشم رائحة المشهد وألمس آثاره."

كانت عيناه تبرقان وهو يذرع الغرفة ويتجوّل فيها وأضاف:

"أراها كلوحة جميلة لرسام ماهر عبقري أمثال مونيه أو كلينت. لوحة كلها خطوط، ونقط، وظلال يا مسيو جودار. تقترب منها فلا تفهمها ولا تدرك ما بها ولا ترى إلا خليطاً متداخلاً من الألوان والخطوط لا تعبّر عن شيء، لكنك عندما تخطو إلى الخلف، عندما تغلق عينيك قليلاً وتتأملها من بعيد، وتتطلع إلى الصورة الكبيرة بكل اتساعها، تُحلّ الألغاز وتكشف لك عن قضية مثيرة كبيرة رائعة. هذا ما نقوم به كرجال مهرة في مجال البحث الجنائي. نغلق أعيننا ونصمت ونترك الأحداث تكشف لنا عن الحقيقة وتقودنا إليها."

لم يعلّق جودار على ذلك بشيء. كل شيء في هذا الرجل يصدمه ويخيّب ظنه، وهو بكلامه هذا يريد أن يرسم لنفسه صورة رجل خارق عظيم عبقري مدّعياً التميّز والتفرّد والإبهار.

أخذ لوميه يشاهد فيلم فيديو التقطته الكاميرات التي وزعتها شركات حراسة رفيق رمزي على كل مكان داخل البناية والطرقات الخارجية لها منذ ستة شهور. اقترب منه جودار وأجاب قبل أن يُسأل:

"لقد سجلنا كل الصور وطبعناها، وكلها ديجيتال حديثة ومؤرخة، ومحددة الوقت وشاملة كل شيء. لدينا صور لرفيق ومروان وهما يتحدثان معاً وللحظة

إطلاق الرصاص ومقتل رفيق ثم مقتل الحارسين وحصول مروان على أسلحتهما. كل شيء مسجل وقد وصلني حالاً تقرير المعمل الجنائي وفيه تأكدنا أن الجثتين اللتين عثرنا عليهما في فندق الميريديان قُتلا برصاص هذين المسدسين اللذين أطلقهما مروان بلا شك."

توقّف لومييه ونظر إليه باهتمام ما أسعد جودار وجعله يسترسل في كلامه:

"المشكلة هي أن الأفلام ترينا بتفصيل ما حدث لكنها لا تكشف لنا المبرر لذلك. فالأفلام صامتة لم تسجل الصوت بجوار الصور. لا أحد غير مروان عقّاد يعرف ماذا قال رفيق رمزي في آخر لحظات حياته قبل أن يموت. لكنني كما قلت لك عبر التليفون عندي توقع كبير، ولا بد من أنك تتفق معي في ذلك أننا سوف نستطيع أن نلقي الضوء على هذه الجريمة البشعة."

ألقى لومييه عليه سؤالاً يعرف إجابته جيداً:

"وهل عثرتم عليه يا مسيو جودار؟"

وأجاب جودار في استسلام وإذعان متلعثماً:

"ليس بعد. لكن لدينا شيئاً جديداً سوف يقودنا إليه."

"ما هذا الجديد؟"

"شركة سيارات أجرة أبلغتنا أن إحدى سياراتها مفقودة وآخر اتصال مع السائق كان من خارج فندق الميريديان. كما قالوا إن أحداً لم يعثر على هذا السائق وإنه لا يرد على اتصالات الراديو به. وأخطرنا مدير الفندق أنه شاهد السائق بنفسه ورآه يغادر المكان ويتجه ناحية الغرب خارج المدينة."

سأله لومييه في اهتمام:

"في اتجاه فرنسا؟"

"يبدو ذلك، وقد كلفت رجالي بمتابعة السيارة بكاميرات المرور ومعرفة أين ذهبت."

كان جودار يعرف جيداً الامتيازات التي تتيحها التكنولوجيا المتقدمة في

عصره خصوصاً في أماكن تتصف بثراء السكان فيها. كاميرات المراقبة مثلاً منتشرة في كل مكان في مونت كارلو ولا يستطيع أحد أن يتحرك من دون أن تُلتقط صورته. هذا بالطبع لن يوقف الجرائم لكن في الاستطاعة التعرّف إلى مرتكبيها ومتابعتهم.

قطع لوميه تفكير جودار وسأله:

"منذ متى شاهد مدير الميريديان سائق سيارة الأجرة يغادر مكانه؟"

"من ساعتين تقريباً."

"ولم يشاهد أحد مروان عقّاد في المدينة؟"

"لا."

"ولم يجد أحد له أثراً في مطار نيس؟"

"لا."

"ولا في كان؟"

"لا."

"ولا أي من مدن الريفييرا؟"

"لا."

أخذ لوميه يتمشى في الغرفة ثم توقّف فجأة وقال:

"لا بدّ من أنه اتجه إلى مرسيليا. اطلب لي بسرعة مدير أمن المطار. حالاً."

الفصل الثالث عشر

انطلقت طائرة بالرحلة ٢٥٦ لشركة الطيران الملكية المغربية، وانسابت على المدرج تحت وابل المطر وسط ظلام الليل وعلى متنها مائة وأربعين راكباً يغالبون النوم، منهم مروان عقّاد الذي أصبح اسمه جاك كارديل.

بعد أن ارتفعت الطائرة في الجو، واتجهت نحو الجنوب بارتفاع ٢٥٠٠٠ قدماً، وبسرعة خمسمئة ميل في الساعة، تجولت المضيفات بين المسافرين تقدمن المرطبات. بعد الانتهاء من ذلك أطفأ قائد الطائرة الأنوار الداخلية وغرق أغلب الركاب في النوم. لم يستطع مروان أن ينام من عنف الألم الذي في كتفه. بدأ يعرق وترتفع حرارته ويشعر بالغثيان. طلب من أحدى المضيفات مسكّناً ابتلعه برشفة من كوب الكوكا الذي في يده، ثم توجّه إلى دورة المياه ليغتسل.

أغلق الباب ونظر إلى صورته المنعكسة في المرآة. بدا شكله سيئاً جداً لا يقلّ سوءاً عما يشعر به. الاحمرار كان يغطي عينيه الغارقتين في سائل لزج حارق. ما إن خلع عنه سترته حتى ظهر قميصه غارقاً في الدماء. نفذ الدم من المناشف الورقية التي وضعها حول الجرح حين كان في دورة مياه مطار مرسيليا لما أبدل ملابسه. علّق مروان سترته على خطاف بالباب، وغسل يديه بماء دافئ وصابون، وصبّ بعض الماء بحرص على المناشف الورقية الملتصقة بكتفه حتى تمكن من نزعها عنه. آلمه ذلك واحتاج منه لوقت أطول مما توقّع حتى أن إحدى المضيفات طرقت الباب وسألت:

"هل كل شيء على ما يرام يا سيدي؟"

فوجئ بالطرق والسؤال لكنه أجاب بصوت ثابت:

"نعم. شكراً."

"هل أنت متأكد؟"

"نعم. ليس هناك ما يدعو إلى القلق. ها أنا خارج."

"أرجو منك الخروج يا سيدي. نحن في طريقنا إلى الهبوط. تفضّل بالرجوع إلى مقعدك واربط الحزام."

"وهو كذلك. سأعود حالاً."

آخر شيء كان يريده مروان هو أن يفعل ما يلفت النظر إليه. وعلى الرغم من الألم الرهيب الذي كان يشعر به أسرع بغسل الجرح وكل جسده يقشعرّ، وأعاد وضع مناشف ورقية مبللة جديدة عليه. ثم صب الماء على وجهه، وغسله جيداً، ثم جففه ونظر إلى صورته المنعكسة على المرآة ليتأكد أنه لا توجد آثار دم عليه ولا على ملابسه، ثم خرج وما إن رأته المضيفة عائداً إلى مقعده حتى بادرته بالسؤال:

"هل أنت متأكد أن ليست هناك مشكلة؟"

"دوار بسيط بسبب ارتفاع الضغط على ما أظن."

قال ذلك مبتعداً متمنياً أن تقبل هذا التبرير وتتركه. لكنها قالت:

"تبدو في حال سيئة. هل تريد أن نخطرهم في مطار الوصول أن يستدعوا لك طبيباً؟"

قال وقد بدأ يعرق من جديد:

"صديقتي تنتظرني وستعتني بي جيداً حين أصل. لا تقلقي عليّ وشكراً لاهتمامك."

تركته فعاد إلى مقعده وأغمض عينيه وباقترابه من الوصول إلى الدار البيضاء عاودته المخاوف، على الرغم من مغادرته مرسيليا وخروجه من أوروبا إلا أنه لفت الانتباه أكثر من اللازم، وهذه الفتاة لا بد من أنها سوف تتذكر وجهه وعينيه وتصرفاته إذا ما استُجوبت، وقد يكون ذلك في وقت قريب.

هو يعرف أن رجال الأمن في ثلاث دول على الأقل يطاردونه، هذا غير كلوديت رمزي وشركائها السفاحين، لكنه لا يعلم متى سيلحقون به ويقبضون عليه. لقد ترك آثاراً وخيوطاً كثيرة وراءه في المطار. فإن وصلوا إليها سيعرفون أنه انتقل إلى المغرب، ولو حالفه الحظ لبقي على قيد الحياة في اليومين القادمين. هبطت الطائرة أخيراً في المغرب، ومر مروان عبر مركز مراجعة الجوازات من دون أية مشاكل، وخرج من باب المطار، واستأجر سيارة من أول شركة صادفته لتأجير السيارات قادها بسرعة في اتجاه الدار البيضاء. كانت أمطار نوفمبر تسقط بغزارة، ولم يستطع مروان أن يشغل مساحات المطر أو جهاز التدفئة ما جعله يرى علامات الطريق بصعوبة، وهو لم يكن يعرف طرق المدينة التي لم يزرها إلا مرات قليلة متباعدة وكان يتحرك دائماً في مواكب رسمية.

زاد من صعوبة الموقف أن درجة حرارته كانت مرتفعة، وشعر بالضعف، والارتباك، وعدم القدرة على الاستدلال على طريقه، وأفاق مرتين من غفوته وهو يسقط على عجلة القيادة ويكاد يصدم السيارات القادمة في الاتجاه العكسي. كان يدرك خطورة ما يعمله، لكن لم يكن أمامه إلا أن يجبر نفسه ويستمر في التقدم نحو المدينة. نزف الكثير من الدم، وأخذ الجرح ينبض بالألم، كما أنه لم ينم ولم يتناول طعاماً خلال اليومين الماضيين، وأخذ يشعر بأن جسده ينهار ويسقط في أزمة وصدمة عصبية.

وصل إلى عنوان المكان المكتوب في ورقة صغيرة في حافظته عند منتصف الليل. رفع بصره إلى البناية الخرسانية العالية القريبة من الجامع الكبير والتي تتوسط بنايات كثيرة مشابهة لها. الاختلاف الوحيد هو أن في الطابق السابع منها تسكن الفتاة التي أحبها منذ كان في المدرسة الابتدائية.

كل من في المبنى كان نائماً حتى حارس العمارة نفسه. تخطاه مروان وسار على أطراف أصابعه واتجه نحو السلم حتى لا يوقظ الرجل العجوز الطيب الأسمر بأجراس المصعد وأبوابه.

وصل مروان إلى الطابق السابع وهو يلهث بشدة ويشعر بألم قاتل في كتفه. مسح العرق المتساقط على وجهه ونظر إلى العنوان المكتوب مرة أخرى في الضوء الخافت الذي كان في الممرّ ما جعله يجد صعوبة في القراءة. كان فمه جافاً، والعرق يتساقط من حاجبيه إلى عينيه فيغشاهما ويعوق الرؤية. لم يتمكن من تمييز الرقم، هل هو ٧٠١؟ أخيراً تعرّف على رقم الشقة، وها هو يقف بجوار الباب.

كان قلب مروان ينبض بشدة ويخفق بمزيج من مشاعر الخوف والتوقع. لم يكن يعرف ما يمكن أن يحدث. كان يعلم أن مظهره يبدو سيئاً وغير لائق للقاء رانيا، لكن إلى أين كان يستطيع أن يتجه إلا إلى هذا المكان؟ كل شيء من حوله كان هادئاً إلا صوت تليفزيون خافت يأتي من آخر الصالة. طرق الباب برفق لكنه لم يتلقّ رداً. أعاد الطرق مرة أخرى ولا مجيب.

ملأ قلبه شعور بالخوف والتوتر. هي ليست بالمنزل. أين يمكن أن تكون في وقت كهذا؟ هل هذا هو المكان الذي تقيم فيه فعلاً؟ أخذت الأفكار تهاجمه وتشغل تفكيره واستمر قلبه يخفق وتزداد ضرباته. شعر بالبرودة تسري في جسده والارتجاف يغمر بدنه. هل يبحث عن فندق يقضي فيه الليلة ويعود صباحاً؟ أي فندق يذهب إليه في هذا الوقت من دون حجز مسبق؟ هو لا يعرف مكان أي فندق في المدينة، وليس لديه وسيلة اتصال، فهو لا يحمل هاتفاً. زاغت عيناه مرة أخرى وبدا الممرّ يدور ويلفّ ويتباعد، وشعر بركبتيه تخوران تحته.

في غفوته سمع مزلاجاً يفتح، وسلسلة تُرفع، وانفرج الباب أمامه قليلاً، وظهر نور أصفر خافت من انفراجة الباب، ثم سمع همساً:

"مروان؟ أهذا أنت؟"

ثم أظلم كل شيء وسقط مروان أمام الباب مغشياً عليه.

القسم الثاني

الفصل الرابع عشر

تمددت كلوديت رمزي في لباس بحر بيكيني على مقعد مريح بجوار حوض السباحة في الفيلا التي تقيم فيها في جبال البرازيل، وهي ترتشف شراب البيناكولادا، تحت أشعة شمس ساو پاولو الحارقة.

وعلى الرغم من أنها كانت تتصرف كامرأة تتمتع بحريتها في حياتها الجديدة وهي مستلقية على وجهها تاركة جسدها لفتى من العاملين بالشاطئ يدلك ظهرها وكتفيها بزيت جوز الهند، إلا أن معدتها كانت تتقلّص داخلها في انتظار أخبار عن العملية الأخيرة. لم تعد مضطرة أن تعيش مع الطاغية الذي تزوجته، "فرعون" المستبدّ كما كانت تدعوه من خلف ظهره. مات الآن وانتهى وانكسر قيدها وانفك ارتباطها به. لكن ماذا عن ذلك المخبر الخاص الذي استأجره؟ هل مات هو أيضاً؟ وحتى لو كان قد قُتل، فهل يعلم أحد غيره بالمؤامرة ويعرف اللعبة التي تلعبها؟ هل تحدث مع أحد في ذلك؟

انطلق صوت جرس الهاتف الهوائي المُلقى بجوارها. اعتدلت في جلستها وصرفت الفتى الذي يقوم بتدليكها. وبعد أن تأكدت من أنه لا يوجد أحد بالقرب منها يستطيع أن يسمعها تناولت التليفون وقالت:

"هل تتكلم من تليفون مأمون؟"

جاءها الصوت من الطرف الآخر يقول في لهجة اعتراض جافة:

"طبعاً. هل تظنينني على هذه الدرجة من الغباء؟"

"لست في حال تسمح بمجازفة أخرى. أنت تعلم جيداً المأزق الذي أنا فيه."

"أنتِ لست الوحيدة التي تجازفين."

قالت بلهفة وسرعة:

"وهل انتهى الأمر الآن؟"

"ليس تماماً."

"ماذا تعني بذلك؟"

"تمكّنوا من زوجك وقضوا عليه، لكن مروان عقّاد هرب."

صرخت في غضب شديد:

"كيف يحدث هذا. لقد استأجرت ثلاث مجموعات لمطاردته ودفعت لهم الكثير."

"هو ماهر جداً."

"كنت أحسبكم أفضل منه."

أجاب الصوت بهدوء وثقة وقال:

"سنعثر عليه ونتمكن منه ونقتله لكن ذلك يحتاج منا لبعض الوقت ومنك لمزيد من المال طبعاً."

زمجرت كلوديت في غضب وخرجت الكلمات من بين أسنانها متتابعة:

"أبداً. لا. لن أدفع سنتاً آخر. قلت لي أنكم ستقضون عليهما معاً وبالضربة بنفسها. لهذا دفعت ما دفعت. الباقي عليك أنت. المشكلة مشكلتك وحدك."

"هكذا؟"

"هكذا."

"نسيتِ شيئاً واحداً يا مدام رفيق رمزي."

قاطعته في غضب:

"لا تناديني بهذا الاسم. أنت تعرف كم أكره اسمه."

"لا بأس. أنا أعرف تماماً أين أنتِ الآن، وأعرف جيداً ماذا فعلتِ حتى الآن، ولديّ من الأدلة ما يكفي ليُلقى بك خلف القضبان في السجن حتى نهاية عمرك."

أزعجتها لهجة التهديد لكنها تماسكت وردت هجومه قائلة:

"أي دليل لديك ضدي هو ضدك أنت أيضاً. مصيرك مصيري."

"أهذا ما تظنين؟ حسناً، لنرى ما سوف يحدث. سنرى."

قفزت كلوديت على قدميها وأخذت تذرع المكان وتلف من حول حوض السباحة وقد اكتسى وجهها بكل مظاهر الغضب وقالت:

"كيف تجرؤ على تهديدي. ألا تعرف أنني..."

قاطعها الصوت وصاح بلهجة آمرة:

"أسكتي. هل تتصورين أنك أول عميل استعان بنا ثم أراد أن ينسحب من دون أن يسدد التزاماته في نصف الطريق؟ لا. لا يا مدام. لدينا وسائل كثيرة للتعامل مع مثل هؤلاء. طرق وأساليب أشفق عليك أن تضطريني لاستخدامها معك."

تراجعت وقالت بصوت أقل عنفاً:

"أنا لا أنسحب ولا أتراجع. أنا فقط لا أريد أن أدفع أكثر مما اتفقنا عليه."

"ستدفعين كل نفقات العملية. إن لم تدفعي المصاريف اللازمة ستدفعين حياتك. هل هذا مفهوم؟"

توقفت كلوديت عن السير وتجمّدت في مكانها. هي تعرف أنه جاد في تهديده ويعني ما يقول وقادر أن ينفذ وعيده. وهي لا تريد أن تموت. كل ما تريده هو أن تكون حرة وأن تبقى غنية، فهي تستحق ذلك.

قتلُ بريجيت كان مأساة مروعة، لكنها لم تخطط لذلك ولم تتوقعه أو تدفع مقابلاً له. الآن أدركت أنها قد تواجه المصير نفسه، وأنهم يمكن أن يقتلوها كما قتلوا بريجيت.

تنهدت وقالت له:

"حسناً. كم تحتاج حتى تنهي العملية؟"

الفصل الخامس عشر

غطت رانيا فواز فمها بيدها حتى لا ينطلق صوتها صارخاً من الفزع للمشهد الذي أمامها. سرت في بدنها رجفة خوف ولم تصدّق ما تراه. لم تر مروان عقّاد منذ ستة شهور. فقد تركت باريس وحصلت على عمل في الدار البيضاء لتمحو الماضي وتبدأ حياة جديدة بعيدة عنه. كيف عثر عليها؟ ولماذا جاء حتى باب بيتها؟ وما هي مشكلته؟

جذبت رانيا بيدها الرداء الوردي ولفته جيداً من حول رقبتها، ثم انحنت ناحية مروان وفحصت بيدها الأخرى نبضه وتحسست جبهته. كان غائباً عن الوعي وحرارة جسده مرتفعة جداً لكنه كان لا يزال على قيد الحياة. لاحظت الدماء تلوث قميصه، ففتحت بحرص وهدوء سترته، واكتشفت الحال السيئة التي كان عليها. همست بأعلى ما يسمح بها صوتها حتى لا توقظ جيرانها وهي تنادي:

"ليلى. تعالي بسرعة."

لم تكن ليلى زميلتها في السكن سعيدة بأن يوقظها أحد في ذلك الوقت المتأخر. لكنها غادرت فراشها متأفّفة ودخلت غرفة الاستقبال وهي تتعثّر في سيرها. ما إن اقتربت من مدخل الشقة حتى وقع نظرها على الرجل الذي يرقد مكوّماً خارج الباب. سألت بفزع:

"من هذا؟"

أجابتها رانيا وهي تقلب مروان على ظهره بحرص:

"مروان عقّاد."

شهقت ليلى وقالت في دهشة:

"مروان؟ كنت أظن... وماذا يفعل هنا؟"

"الله وحده يعلم. لكن انظري، إنه مصاب بطلق ناري."

حملت نظرات ليلى كل مظاهر الخوف والفزع وهي تردد خلفها بلا وعي:

"طلق ناري؟"

"ساعديني نحمله إلى الداخل."

"هل أنتِ مجنونة؟ نستدعي الشرطة."

رفعت رانيا رأسها نحوها وقالت بسرعة وقوة:

"لا."

"لا؟ ولماذا لا نستدعي الشرطة؟"

"سأشرح لكِ فيما بعد."

لم تقبل ليلى ذلك وقالت:

"لا. قولي لي الآن."

همست لها رانيا:

"اخفضي صوتك."

كررت ليلى طلبها بحزم:

"قولي لي الآن."

نظرت إليها رانيا وقالت:

"لا أستطيع. ليس هنا في وسط الصالة."

"فلن أساعدك في إدخاله إلى شقتي."

"شقتنا. أنا أدفع نصف قيمة الإيجار. أليس كذلك؟ أم نسيتِ؟"

"عقد الإيجار يحمل توقيعي أنا، ولن أقبل أن أُطرد من هنا، أو أن يُقبض عليّ وأُلقى في السجن من أجل شخص – تركتِ فرنسا وهربتِ منه إلى هنا."

انتصبت رانيا واقفة ونظرت في عيني زميلتها. كلتاهما تشتغلان بالتمريض

وفي المستشفى نفسه وفي القسم نفسه. كانت رانيا تعلم أنه لا هي ولا صديقتها تستطيع أن تقدم إلى مروان المساعدة والعناية التي يحتاج إليها. لكن عليهما أن تحاولا. قالت:

"ليلى. إنه يموت. لا يمكن أن نتركه يرقد هكذا."

وأجابتها ليلى في تحدّ وإصرار:

"هذا صحيح. فعلينا أن نستدعي الشرطة ليعتنوا به."

ثم اندفعت داخلة إلى الشقة متجهة نحو جهاز التليفون، لكن رانيا لحقت بها وأمسكت بذراعها وهي تقول في عزم من بين أسنانها:

"أنا أطلب منك ذلك كصديقة. صديقتي."

"أتركي ذراعي."

جذبتها رانيا نحوها وقربت وجهها نحوها وهي تسأل:

"هل تساعدينني؟"

"قلت لك أتركي ذراعي. أتركينني."

قالت رانيا وقد ازداد صوتها إصراراً وتحدياً:

"وهو كذلك. لن تساعدينني؟ فسأذهب صباحاً إلى الدكتور رامز وأبلغه أنك لم تكوني مريضة الأسبوع الماضي."

ضاقت عينا ليلى وقالت:

"لن تفعلي ذلك."

نظرت إليها رانيا واستطردت:

"ولماذا لا أفعل ذلك؟ لقد ساندتك وأخبرته أنك مصابة بنزلة برد عنيفة على اعتبار أنكِ صديقتي كان واجبي تغطيتك. ماذا تظنين سيعمل الدكتور رامز بعد أن أخبره أنك كنت الأسبوع الماضي كله على الشاطئ تتزحلقين على الأمواج مع صديقك الأسباني؟"

"سوف يفصلك أنتِ أيضاً لأنك كذبت عليه."

لوت رانيا ذراعها بعنف وقالت:

"قد يفعل. يفصلنا نحن الاثنين. لكن ماذا سيقول والدك عندما أخبره عن راؤول. هل يعرف والدك أنكما تتقابلان سراً بعد أن منعك من ذلك؟ ماذا يفعل عندما يعرف أنكما كنتما تقيمان في فندق واحد؟"

نظرت إليها بفزع وسحبت ذراعها منها وتراجعت إلى الخلف وهي تقول:

"حسناً. سأساعدك بشرط أن تغلقي فمك ولا تقولي شيئاً لأبي أو لأحد عن راؤول. لو عرف والدي شيئاً فسوف..."

أضاء فجأة مصباح في الشقة المقابلة وانساب النور من تحت الباب إلى الصالة وسُمع صوت حركة مدام بدوي – أكثر سكان العمارة فضولاً وثرثرة – التي لو لمحت مروان فلن تهدأ بل تستدعي الشرطة وبسرعة ينتشر الخبر في كل العمارة.

همست رانيا بسرعة:

"أسرعي."

تحركتا حالاً وأمسكتا ذراعي ورجلي مروان وجذبتاه داخل الشقة وأغلقتا الباب خلفه. وبعد أن استعادتا أنفاسهما رفعتاه إلى الأريكة في غرفة الاستقبال ووضعتا عليه أغطية ثقيلة.

جرت رانيا إلى الداخل لتحضر حقيبة أدواتها الطبية وليلى لتحضر مناشف نظيفة. ثم عادتا واقتربتا من مروان. عندما رفعت رانيا الأغطية وخلعت عنه سترته ومزقت قميصه، وقع نظرهما على الجرح فأجفلتا وقالت ليلى:

"الجرح ملوّث وبدأ يتعفّن."

أيدتها رانيا وهي تقيس درجة حرارته وتقول:

"درجة حرارته مرتفعة جداً. أربعون."

أخذت رانيا تصارع مشاعرها وهي تتصاعد إلى رأسها. حاولت أن تركز كل انتباهها في ما يجب أن تقوم به من محاولات لإنقاذ مروان. تناولت مشرطاً صغيراً معقماً وبعض الأربطة والشاش وبدأت تنظف الجرح. ثم صبّت عليه بعض المضادات القوية ضدّ التلوّث. على الرغم من شدة هذه المضادات فإن مروان لم يتحرك أو يرتجف.

كانت ليلى تراقب رانيا وهي تعمل بجهد لتنقذ حياة رجل اعترفت لها أنها لا تحبه. قالت:

"رانيا. لا بد من أن نستدعي أحد الأطباء. إذا لم نقم بذلك حالاً فسوف يموت ونكون مسؤولين عن موته."

"لا نستطيع."

"لماذا؟"

حبست رانيا دموعها بجهد وهي تقول:

"ألا تظنين أنه كان يمكنه لو استطاع أن يذهب إلى المستشفى أو إلى الشرطة. لكن يبدو أنه يواجه مشكلة وإلا ما كان جاء إلى هنا."

"تقصدين أنه هارب من شخص أو أشخاص يطاردونه؟"

"لا أعرف."

"وكيف عرف الطريق إليك؟ ظننت أنه..."

أخذت تفكر محاولة الوصول إلى إجابة ثم قالت:

"لا أعرف. لكنه كان دائماً يعرف كيف يصل إلى غايته بسهولة."

"وماذا عن مطارديه؟ قد يكونون على الدرجة نفسها من القدرة فيصلون إلى هنا ليقتلوه ثم يقتلوننا نحن أيضاً."

استمعت رانيا إليها والدموع تكاد تنهمر من عينيها. مروان يموت وعليها أن تساعده، لكن مساعدته قد تؤدي إلى تعرض حياتها وحياة صديقتها إلى الخطر. إلا أنها لا تستطيع أن تتصرّف كأن شيئاً لا يعنيها مهما كان السبب

الذي أدّى بهما إلى الافتراق. جرت إلى غرفة نومها فسألتها ليلى:

"إلى أين أنت ذاهبة؟"

بسرعة فائقة أخذت رانيا تستبدل ملابسها وترتدي ملابس المستشفى وتضع في قدميها حذاء أبيض، وأخذت بطاقة التمريض الخاصة بها وحافظة يدها واتجهت نحو الباب. بادرتها ليلى بالسؤال مرة أخرى:

"إلى أين أنت ذاهبة؟"

"إلى المستشفى."

"هل أنت مجنونة؟"

"أحتاج إلى بعض الأدوية."

"ماذا تقولين؟" أي أدوية؟"

"مضادات حيوية وأمصال ومسكنات للآلام."

"في هذا الوقت المتأخر؟ نحن بعد منتصف الليل!"

"أعرف ذلك. سأعود خلال عشرين دقيقة."

نظرت ليلى إلى مروان في يأس وقالت:

"قد لا تكون أمامه هذه العشرين دقيقة."

"فيجب أن أسرع إذاً."

"لكنك لا تستطيعين أن تحصلي على تلك الأشياء من المستشفى. هذا ليس مسموحاً به."

خطفت رانيا معطفها وارتدته وهي تقول:

"ليس أمامنا اختيار."

"وإذا أمسكوا بك؟"

"سأكون حذرة."

"هذا خطر. خطر شديد عليك."

"هل عندك اقتراح آخر؟"

"دعيني أطلب راؤول تليفونياً."

"ماذا؟"

"عنده خدمة ليلية طوال هذا الأسبوع."

فكرت رانيا لحظة ثم قالت:

"لا. لا يجب أن يعرف أحد سوانا أي شيء عن مروان."

"راؤول لن يقول شيئاً."

"شكراً يا ليلى. أنا ممتنة لك جداً. صدقيني. لكنني سأقوم بذلك بنفسي."

نظرت إليها ليلى وهي تخرج وسألتها:

"لماذا؟ أنت بذلك تخاطرين بوظيفتك وحياتك وكل شيء. في مقابل ماذا؟ كل هذا من أجل مروان عقّاد؟ الرجل الذي لن تتزوجيه؟ هذا جنون. بعد أن رفضتِ طلبه الارتباط بك وأعدت له خاتمه. قلت أنك لا تريدين أن تريه مرة أخرى. أنت بنفسك قلت لي ذلك."

"أعلم هذا."

قالت رانيا ذلك بأسى وحيرة. ثم أخرجت مفاتيحها من حقيبتها وتحوّلت إلى ليلى وقبلتها على وجنتها قبلة سريعة وهي تقول:

"أنا فعلاً قلت لك ذلك كله. أخبرتك برفضي إياه وإعادتي خاتمه وعدم رغبتي الارتباط به لكنني لم أخبرك بالسبب الذي دفعني إلى ذلك. لو عرفت السبب لأدركت دافعي وفهمت موقفي. فقط أرجو منك أن تصلي لأجلي وأن تطلبي أن لا يُقبض عليّ."

"أعدك بأن أقوم بذلك."

"شكراً لك."

واندفعت رانيا خارجة.

الفصل السادس عشر

وصلت رانيا إلى المستشفى بسرعة ووجدت مكان انتظار لسيارتها بجوار المدخل الخلفي. حاولت الدخول فوجدت أن كل الأبواب مغلقة. دارت حول المستشفى وحاولت الدخول من الأبواب الأمامية فوجدتها أيضاً مغلقة بسبب الوقت المتأخر. ليس أمامها إلا باب دخول الطوارئ ما يحتم عليها المرور أمام رجال الحراسة. هذا سوف يلفت النظر إليها وقد تجد من يكلمها أو يسألها. كما أن هناك سجل لقيد من يتواجد بالمستشفى ليلاً، وليس هناك سبب مقبول لوجودها في المستشفى في ذلك الوقت. لم يكن أمامها اختيار فنظرت إلى ساعتها ودلفت إلى الباب. نظر الحارس إلى علامة المستشفى المعلقة على صدرها وقال:

"ما هذا. آنسة فواز لم أعتد أن أراك هنا في وقت متأخر كهذا."

اضطرت أن تكذب وتقول:

"الدكتور رامز اتصل بي في البيت وطلب منى أن أحضر له بعض الأشياء من هنا."

"هل هناك مشكلة؟"

ردت عليه ودقات قلبها تتسابق داخلها:

"لا. كل ما في الأمر أن الدكتور رامز سيقوم بزيارة بعض المرضى غداً، واكتشف أنه تنقصه بعض الأدوية الخاصة بهم. دقيقة واحدة. لن أتأخر."

"هل تحتاجين إلى مساعدة؟"

"لا. شكراً. لن أتأخر."

شعرت رانيا بقلق وهي تخدع زميلاً لها وتجازف بعملها.

قال الحارس في لطف وهو يستخرج سجل الزيارات ويشير إلى مكان فيه:

"عظيم. أرجو منك أن توقعي هنا."

نظرت إلى القلم الذي يقدمه إليها والسجل الذي ستوقع عليه وتساءلت في خوف إلى أين يقودها ذلك كله؟ تباطأت قليلاً فلاحقها الحارس بالقول:

"هل أنت بخير يا آنسة فواز؟"

فتحت عينيها وأغلقتهما وتثاءبت قائلة:

"نعم. أنا فقط متعبة. لم أتصوّر أنني سأكون على هذه الدرجة من التعب."

ثم تناولت القلم وحاولت أن تكتب اسمها في السجل إلا أن القلم كان خالياً من الحبر فقالت للحارس:

"القلم لا يكتب."

نظر إليها الحارس وقال:

"هل أنت متأكدة؟ انفضيه قليلاً."

نفضت القلم وحاولت مرة أخرى. لم يحدث شيء.

ابتسم لها الحارس وقال بلطف:

"ما رأيك؟ استخدمي قلمي."

مد يده نحو جيب قميصه يبحث عن قلمه فلم يجده. ابتسم معتذراً قائلاً:

"هذا غريب. كان هنا منذ دقيقة."

بحث عن القلم على المكتب وتحته ولم يجده.

نظرت رانيا إلى ساعتها وقالت له:

"الحقيقة أنا في عجلة من أمري. هل أستطيع أن أصعد بسرعة وآتي بما يحتاج إليه الدكتور رامز؟"

كان الحارس منحنياً على الأرض يبحث في كل مكان وأخذ يردد في حيرة وتوتر:

"لا أفهم أين ذهب. هذا قلمي المفضل."

وجدت رانيا أنها لن تتلقى رداً سريعاً وأن عليها أن تسرع راجعة إلى مروان وليلى قبل أن تغير موقفها وتتراجع عن مساعدتها. نظرت إلى المصعد لكنها توقعت أنها ستفقد بعض الوقت في انتظار وصوله فاندفعت نحو السلالم صاعدة إلى المكان الخاص بالممرضات في الدور الثالث تاركة الحارس يبحث عن قلمه.

نظرت من النافذة التي بجوارها إلى السلم المؤدي إلى الطابق الذي وصلت في صعودها إليه فوجدته هادئاً. هناك ممرضة تجلس على مكتب وأخرى تقوم بالمرور على حجرات المرضى. كان عليها أن تتحرك بسرعة. أمسكت بمفاتيحها وانتقت المفتاح المناسب وفتحت الباب ثم دلفت إلى الداخل. وجدت في الغرفة كل ما تبحث عنه وجمعت ما تحتاج إليه ووضعته في حقيبة يدها. سمعت أصوات أقدام قادمة فأطفأت الأنوار بسرعة وانحنت واختبأت خلف أحد رفوف الأدوية.

انفتح الباب وعاد الضوء إلى الحجرة ودخل أحدهم. استطاعت أن تراه من مخبئها، كان القادم هو راؤول صديق ليلى. ما الذي جاء به إلى هنا؟ هل اتصلت به ليلى وأخبرته؟ هل أقحمته في الموضوع؟ هاجمها توتر كاد يعصف بها. كيف تفسر ما تقوم به هنا في هذا الوقت المتأخر؟ ما معنى وجودها هكذا مختبئة في مخزن الأدوية؟ ماذا تقول لو اكتشف وجودها وواجهها؟

أفكار مرعبة هاجمتها حاولت أن تطردها بجهد. كانت ترى قدميه وتسمع حركة يديه تعمل في الأدوية على الرفوف وهو يصفر لحناً بفمه. لم يكتشف وجودها وبدا واضحاً أنه لم يكن يبحث عنها. وفجأة أطفأ الأنوار وخرج.

زفرت رانيا وأخرجت كل ما كان في داخلها من خوف وتوتر. كانت ترتعش وهي في مخبئها تنتظر بعض الوقت، ولما وجدت أن كل شيء هادئ، انتصبت واقفة ببطء وحرص وسط ظلام الغرفة وتحركت يدها بحذر نحو مفتاح الكهرباء. نظرت ما معها من أدوية ووجدت أنها قد أخذت كل ما تريده. عليها الآن أن تخرج قبل أن تفاجأ بشيء آخر يعوق مهمتها. أعادت إطفاء الأنوار وفتحت الباب ونظرت ولم تجد أحداً في الخارج. أمسكت حقيبة يدها بعناية واحتضنتها جيداً وأغلقت الباب خلفها ثم اندفعت نحو السلالم ونزلت تقفز درجات الأدوار الثلاثة بهدوء وسرعة، فلما وصلت إلى الدور الأرضي أبطأت وحاولت استرداد أنفاسها وتحركت بسرعة قاصدة باب الخروج محاولة ألا تلتقي عيناها بعيني الحارس الذي كان يركز نظره على شاشة تليفزيون صغير أمامه.

كانت قد اقتربت من الباب الأمامي حين سمعت فجأة:

"آنسة فواز. انتظري."

تجمدت رانيا في مكانها.

كان الصوت صوت الحارس يناديها وهو ينظر نحوها. كيف أحس بها؟

كانت خائفة تخرج أنفاسها بسرعة ورأسها يدور وتكاد تنهار وهي لا تدري كيف تتصرف. لا تستطيع أن تجري هاربة فسيلحقون بها ولو أمسكوا بها واستجوبوها فقد يدينونها ويطردونها لا من المستشفى فقط بل من المغرب كله. أو ماذا؟ ماذا لو..؟ لم تعد تحتمل التفكير أكثر من ذلك. تحولت ببطء وتظاهرت بالهدوء وقد فارقها الأمل وشعرت بالخوف والاستسلام لمصيرها هي ومروان وليلى. لا طريق أمامهم للنجاة من العقاب.

كان الحارس يقف وقد ركز كل نظراته إليها. لم يكن غاضباً، كان يبتسم وهو يقول لها ضاحكاً:

"آنسة فواز. انظري. لقد وجدت قلمي. تعالي. يمكنك استخدامه والتوقيع في خانتي الدخول والخروج. تفضلي."

اندهشت لضحكته وكلامه وحبست بجهد دموعها وهي تقوم بالتوقيع.

في خلال عشر دقائق كانت رانيا قد عادت إلى شقتها. بادرتها ليلى:

"ما الذي أخّرك هكذا؟"

"تعقيدات لم أستطع تفاديها."

"أية تعقيدات؟"

أمور لم تكن لي يد فيها. كل شيء جيد الآن؟!"

"لا يا رانيا. ليس جيداً."

"ماذا تقصدين؟"

"حرارة مروان تعدّت الأربعين."

الفصل السابع عشر

اكتشف أحد العمال الذين يقومون بأعمال النظافة خارج مطار مرسيليا جثة السائق عند شروق شمس الصباح التالي من سفر مروان. في خلال ربع ساعة امتلأ المكان برجال الشرطة والمباحث. وفي تمام السابعة والنصف صباحاً انطلق رنين جرس هاتف المفتش جين كلود جودار في مكتبه بمونت كارلو. فتح عينيه بعد إغفاءة قصيرة بعد تعب نهار كامل ثم قضاء الليل كله في مكتبه، أمسك بسماعة التليفون وقال:

"هالو. نعم. ماذا؟ هل أنت جاد في ما تقول؟ أين؟ هل تحفظتم على المكان كله؟ لا. لا. سوف أستقل طائرة مروحية. أعدوا كل شيء وتمموا كل الإجراءات حتى وصولنا. أحسنتم. أحسنتم."

اتصل بكوليت دوڤال لتقوم بالترتيبات اللازمة ثم قال للوميه عبر الهاتف أنهم أمسكوا بطرف الخيط الذي سيقودهم إلى حل القضية. صب جودار بعض الماء الدافئ على وجهه ونظّف أسنانه وغسل وجهه وتناول قميصاً نظيفاً من أحد الأدراج واستبدل به القميص القديم الذي قضى نهاره وليله يلبسه. وضع شارته وتناول مسدسه وحافظته ومفاتيحه والتقى بدوڤال عند المدخل. أخذته إلى المطار حيث سيقابل لوميه.

وبينما هي تقود السيارة بسرعة في الطرق التي تبدو خالية في هذا الوقت، نظرت في وجهه وقالت:

"منظرك يبدو سيئاً."

"ما أشعر به أكثر سوءاً من مظهري."

"ألم ترجع إلى بيتك أمس؟

"لم أستطع." ونظر في مذكرته وسأل:

"هل عثرتم على شيء عن مروان عقّاد؟"

أجابته وهي تقترب من منطقة الانتظار في المطار لتوقف السيارة هناك:

"أخبرتك بكل ما وصلنا إليه في الرسالة الإلكترونية التي أرسلتها إليك الساعة الرابعة بعد ظهر أمس. وأيضاً أجريت اتصالات هاتفية مع بيروت وباريس في العاشرة مساء وسوف أخطرك تليفونياً بكل ما يستجد في الأمر من معلومات."

كانت الطائرة المروحية قد أدارت محركاتها واستعدت للإقلاع. خرج جودار من السيارة وأمسك حقيبة يده وصاح في مساعدته بصوت عال وسط ضجيج الطائرة وهو يقول لها:

"هل أنت متأكدة أنك لا تريدين أن تأتي معي؟"

وصاحت ترد عليه:

"لأقضي يوماً كاملاً مع الشبح؟ عرضٌ مغرٍ لكن أشكرك. أنا متنازلة عن هذا الشرف."

وبابتسام قال:

"وهو كذلك. المهم وافينا بسرعة بالمزيد من المعلومات عن مروان عقّاد."

"سأفعل."

لحظات قليلة ووصل المفتش لوميه وانطلقت الطائرة صاعدة بهما في الهواء.

بعد أن استقل لوميه الطائرة بدقائق سأل:

"ماذا لديك عن هذا الرجل يا مسيو جودار؟"

أراد جودار في رده أن يستعرض قدراته ويتباهى بمعلوماته عن القضية. كان يتكلم ببطء وهما يطيران فوق الريف الفرنسي الرائع الجمال:

"اسمه بالكامل مروان أديب موسى عقّاد، وُلد في صيدا في لبنان في ١٤

فبراير عام ١٩٧٨. والده كان يعمل في أحد البنوك. وأمه واسمها سارة كانت مدرسة في إحدى المدارس هناك. انتقلت العائلة إلى بيروت في عام ١٩٧٣. بعد ذلك كل شيء معروف لدينا. مروان له أخ وحيد اسمه رامي ولد عام ١٩٨٢. ونعرف أيضاً أن مروان التحق بالجيش عام ٩٦ وأبلى بلاء حسناً ولفت أنظار رؤسائه وتمت ترقيته مرات عديدة ، وتولى مناصب مهمة. بعد ذلك تم تكليفه بالعمل في المخابرات، ثم عُيّن حارساً خاصاً لوزير الدفاع عام ٩٨ ثم حارساً خاصاً لحماية رئيس الوزراء من عام ١٩٩٩ حتى ٢٠٠١."

وكان جودار وهو يسرد ذلك كله يختلس النظر إلى الرسالة الإلكترونية التي أرسلتها إليه دوڤال، واستمر يقول:

"بعد ذلك ترك خدمته للحكومة عام ٢٠٠٣ وأنشأ شركته "عقّاد وشركاه". شركة حراسة خاصة. وهذا كان في الوقت الذي أنهى فيه رامي خدمته في الجيش. ويمكن أن نقول أن أغلب ما يقومون به من أعمال في تلك الشركة هو حماية رجال الأعمال الغربيين الذين يعملون في شركات البترول ومصالحهم. وحالياً هم يعملون في العراق للمحافظة على عملائهم من الاختطاف أو القتل. وفي الآونة الأخيرة بدأوا في حماية رجال الأعمال الذين يعملون في شركات البترول الغربية في ليبيا أيضاً. ومن الطبيعي أنهم يقومون بأنشطة سريعة لحماية وحراسة حوالي خمسمئة من الأغنياء في منطقة الخليج ومحيطها. ولا توجد تفاصيل دقيقة على الموقع الإلكتروني للشركة. كل ما هناك كشف بأسماء العملاء ووسيلة الاتصال والحصول على المعلومات من مركز الشركة الرئيسي في بيروت. زميلتي كوليت دوڤال أجرت مكالمة تليفونية مع مكتب بيروت فوجدته مغلقاً وستحاول الاتصال ثانية خلال ساعة."

استمع لوميه لذلك كله ثم سأل:

"أهذا كل ما لديك؟"

استعد جودار لمواجهته وقال:

"حتى الآن."

خرج صوت لوميه مشحوناً بقدر كبير من الاستخفاف والتحقير والاشمئزاز:

"هل تظن أنني لا أعرف ذلك كله. لقد حصلت على كل هذه المعلومات بمكالمة تليفونية واحدة مع مكتبي. وتم ذلك في خمس دقائق فقط. سكرتيرتي تعرف عن مروان عقّاد أكثر مما تعرف أنت يا مسيو جودار. هل هذا كل ما تستطيع شرطة موناكو أن تقدم لي؟ يا للهول!"

على الرغم من شدة غيظه قرر جودار أن يحتفظ برباطة جأشه. مرات كثيرة كانت تراوده رغبة في أن يلكم ذلك الرجل ويحطم أنفه لكنه لم يشأ أن يفقد هدوءه ولا أن يتيح له أن يعرف ما يشعر به نحوه. وأجابه قائلاً:

"أنت طلبت مني أن أسرد عليك ما لدي. سيكون لدينا أكثر بعد بضعة ساعات."

وقال لوميه باللهجة نفسها:

"بعد بضعة ساعات! بعد بضعة ساعات سيصل مروان عقّاد إلى اليابان أو إلى ألاسكا. ليس لدينا وقت يا مسيو جودار. لدينا قاتل طليق هارب سبقنا بتسع ساعات كاملة."

تلوّن وجه جودار وعنقه باللون الأحمر والتهبت أذناه وشعر بهما تحرقانه. سمع كل من في الطائرة سخرية لوميه وكلماته الموجعة وكان يريد أن يرد له هجومه بكلمات أعنف، لكن لا الوقت ولا المكان يسمحان بذلك. واستمر لوميه – وهما في طريقهما إلى مرسيليا – يقول:

"أنا أتعجب أنك لم تقل لي كيف تمكن مروان وأخوه رامي أن يبقيا على قيد الحياة بين ذراعي أمهما عند غزو لبنان عام ٨٢ وهم يختبئون في صالة بيتهما وحمّامه من القنابل المتفجرة من حولهم والشظايا المتناثرة في كل مكان؟"

"أخشى أنني لم..."

قاطعه لوميه واستمر في كلامه يؤنبه:

"لماذا لم تخبرني عن اليوم الذي رأى فيه مروان اثنين من أعمامه وأطفالهما يقتلون بطلقات المدافع التي انهمرت عليهم في يوم عيد ميلاده الأول. هل تعلم أن مروان وشقيقه شاهدا والديهما يقتلان في انفجار سيارة ملغومة أمام أعينهما في أحد شوارع بيروت بعد بضع سنوات؟"

تشاغل عنه جودار وألقى بنظرة من النافذة على الأشجار الجرداء والحقول الطينية بعد مطر غزير انهمر طوال الليلة السابقة.

وجه لوميه كلماته إليه وقال:

"هل تعلم ذلك؟ هل تعرف ما حدث يوم ٣ يناير ١٩٩٣؟"

"لا."

أحسّ بإذلال شديد وخزي وهو يستمع إليه، وما زاد من شعوره أن لوميه كان على حق في كل ما قاله. فقد كان من واجبه أن يجمع معلومات أوفى ويعرف عن مروان عقّاد أكثر مما قدمه له. كان عليه أن يقدم إليه وجبة كاملة من الأخبار لا بعض الكِسر وفتات الخبز. كان يعرف كفاءة وقدرات هذا الرجل وأخذ يلوم نفسه لما أظهره من عجز.

لكن لوميه لم يكن قد انتهى بعد، واستمر يقول في كلمات جامدة جافة خالية من أي تعاطف أو مشاعر:

"حين احتفل مروان بعيد ميلاده الخامس عشر كان رامي في الحادية عشرة، وفي يوم لا يزال شبح ذكراه يطاردهما حتى اليوم، يوم لا يتحدثان عنه أبداً. لا يذكرانه لأحد ولا حتى لنفسيهما. إذا أردت أن تصل إلى حل لغز هذه القضية يا مسيو جودار فيجب عليك أن تعرف جيداً مروان عقّاد الحقيقي. هل تدرك كيف وصل مروان إلى ارتكاب جرائم القتل والابتزاز؟ وإلى إرهاب وترويع مجتمع كامل من الأبرياء؟ لو شئت أن تعرف ذلك فعليك أن تبدأ أولاً بأن تفهم الأحداث التي شكلت الرجل وجعلته مجرماً متوحشاً وشيطاناً رجيماً."

واستمر لوميه في حديثه يقول:

"تبدأ القصة منذ اليوم الذي اغتيل فيه والدَي مروان عقّاد. تغيّر كل شيء في حياته من هذا اليوم. لم يعد مروان مجرد أخ لرامي، أصبح بالنسبة إلى أخيه هو الأب والأم معاً. لم يبق أحد يعتني برامي ويرعاه غيره. أعمامه وعماته قُتلوا جميعاً. هرب بقية الأهل وغادروا لبنان إلى أوروبا والولايات المتحدة. فجأة وجد مروان نفسه مسؤولاً وحده عن شقيقه الأصغر، عن توفير الطعام واللباس، وحمايته من أي أذى قد يلحق به. حتى وقت خدمته بالجيش كان على مروان أن يمهد الطريق هناك أمام رامي. سعى حتى نقله إلى وحدة معينة ليقوم بمهام محددة في موقع قريب منه ومن عمله في دائرة حماية رئيس الوزراء."

وتابع كلامه وأخذ يسأله:

"قل لي. لماذا؟ إلى ماذا كانا يهدفان بذلك؟ هل كانت لديهما دوافع نبيلة؟ هل كانا يريدان حماية القادة في الدولة من الأذى وأن يحميا أولادهم من أن يواجها ما واجهاه هما من معاناة وآلام ومتاعب مرعبة؟ فكر يا مسيو جودار. شغّل عقلك واستخدم ذكاءك ولا تكن ساذجاً."

لم يجب جودار بشيء. كان لديه ما يكفيه من هموم، أما لوميه فقال:

"دافع مروان عقّاد ليس حبه لوطنه. دافعه هو الطمع والجشع فقط. صدقني، لقد قضيت حياتي أطارد رجالاً مثله. أستطيع أن أتعرّف إليهم بمجرد رؤيتهم. مروان عقّاد يريد أن يحصل على ما يتصوّره حقاً له. هو يريد أن يستولي على ما لا يملك. الثروة، والمال وكل ما يأتي به المال من سلطة ونفوذ وقوة تجعله يزداد ثراء باستمرار. وليُشبع جوعه وشهوته التي لا حدود لها يختار ضحاياه من الأغنياء الأقوياء ويستدرجهم بادعاء رغبته في حمايتهم قبل أن يمتص دماءهم. تأمل كلماتي جيداً يا مسيو جودار. مروان عقّاد حليف للشيطان نفسه، هدفه الدمار والقتل. لهذا يجب أن نعثر عليه قبل أن يضرب ضربته الجديدة."

الفصل الثامن عشر

ما إن وصل المفتشان جودار ولوميبه إلى مرسيليا حتى كان رجال الأمن المحليين قد جمعوا أدلة جديدة مهمة. اتجها إلى مكتب مدير أمن المطار وأخذا يشاهدان الصور التي التقطتها كاميرات المراقبة.

أول شريط فيديو أظهر سيارة الأجرة التي كان يستقلها مروان وهي تدخل أرض المطار. الشريط الثاني أظهر مروان نفسه وهو يدخل المطار بعد ذلك بدقائق قليلة. كاميرا أخرى أظهرته من زاوية خاصة وهو يفتح الخزانة ويأخذ ما فيها، ثم وهو يذهب إلى دورة المياه، وبعد ذلك وهو يستلم تذكرة السفر، وبطاقة المغادرة، ويمر في مركز الأمن على أنه جاك كارديل.

سأله جودار وعيناه تتابعان الصور:

"ما هذا الذي ألقى به في صندوق القمامة؟"

علّق لوميبه قائلاً:

"يمكن أن يكون أي شيء."

تحول جودار إلى مدير الأمن وقال:

"يجب أن ترسل من يفتش القمامة التي رُفعت في ذلك اليوم ويفحصها جيداً ويعرف ما الذي ألقى به مروان في صندوق القمامة."

أجابه المدير وهو ينظر إلى لوميبه قائلاً:

"لكن يا سيدي. ما قاله سيادة المفتش صحيح فقد يكون أي شيء."

وأصرّ جودار على ما قاله:

"وقد يكون شيئاً مهماً. ابحثوا عنه وأحضروه."

ثم استدعى لوميبه ضابط الشرطة الذي فحص مستندات مروان عند مروره من بوابة الأمن واستجوبه بتدقيق وعنف حتى أن جودار توقع أن تنهار

أعصاب الرجل تحت ضغط الاستجواب. وتم إيقافه عن العمل من دون مرتب نتيجة للتحقيق.

في الوقت نفسه تمت مراجعة البيانات على أجهزة الكمبيوتر واتضح أن شراء تذكرة الطيران من شركة الطيران الملكية المغربية تم عن طريق رسالة إلكترونية من لبنان.

وعلق لوميه على ذلك قائلاً:

"لا بد من أن يكون ذلك بواسطة شقيق مروان."

إلا أن جودار اعترض محذراً:

"لا نستطيع أن نؤكد ذلك."

"فمن يكون غيره؟"

لم يترك جودار سؤال لوميه من دون جواب فقال:

"أريد أن أقول إننا نحاول أن نقيم قضية وحتى يكون البناء قوياً متماسكاً لا نستطيع أن نعتمد على الافتراضات بل على حقائق ثابتة ودلائل دامغة تقبلها المحكمة. إذا كان مروان عقّاد مذنباً، ويمكن أن يكون كذلك طبعاً، نحتاج إلى أدلة أكثر إقناعاً مما لدينا. كل ما لدينا الآن مجرد ملابسات عرضية ضعيفة."

على الرغم من كلام جودار المنطقي إلا أن لوميه علق متفاخراً:

"لقد ربحت قضايا كثيرة بما هو أقل من ذلك."

لم يعلّق جودار بشيء لكنه قال لنفسه: وكم من قضايا خسرتها وقد كانت عندك أدلة أكثر من ذلك."

فجأة قال لوميه وهو يستعد للوقوف:

"افعل ما تشاء. أنا شخصياً سوف أستقل أول طائرة إلى الدار البيضاء لأقبض على القاتل. أريدك أن تذهب إلى بيروت وتبحث عمن قام بشراء تذكرة الطيران. لكن خذ حذرك وانتبه لنفسك جيداً يا مسيو جودار. مروان عقّاد وشقيقه من المجرمين الخطرين، وكلما اقتربت منهم كلما زادت درجة الخطر. احذر!"

الفصل التاسع عشر

"مروان. مروان. هل تسمعني؟"

حاول مروان أن يفتح عينيه لكنه شعر كأن أجفانه كتل رصاص. ألم شديد في كل جسده وعلى الرغم من العرق الذي كان يغطي وجهه ورأسه إلا أنه كان يرتجف من البرد. جذب الأغطية حول صدره وضم ساقيه وتكوّر حول نفسه.

"مروان. أتسمعني؟ أنا رانيا."

طبعاً يسمعها. طبعاً هو يستطيع أن يميّز صوتها جيداً. كم يحب هذا الصوت وكم اشتاق جداً لأن يسمعه.

كانا صديقين قريبين جداً من بعضهما منذ أيام الطفولة. لعبا معاً، وضحكا كثيراً معاً. عاشا أيام الحرب الأهلية في لبنان معاً. احتفلا معاً بأعياد ميلادهما. كانا يجلسان متقاربين بجوار بعضهما في المدرسة. بنيا قصراً لهما فوق سطح العمارة التي كانا يسكنان فيها. وضعا فيه كتب قصص الأطفال برسومها وألوانها التي كانا يقرآنها معاً. واحتفظا في ذلك القصر بزجاجات عصير التفاح الذي تحبه هي وعصير البرتقال الذي يحبه هو. أول فتاة تجرّأ وقبلها كانت رانيا. أول فتاة اصطحبها للذهاب إلى السينما ليشاهد معها فيلماً أمريكياً كانت رانيا. لا يذكر اسم الفيلم لكنه يتذكر جيداً كيف دخلا صالة العرض متلصصين واختبآ في آخر القاعة من الخلف خوفاً من أن يكتشف أحد وجودهما معاً، فقد خرجا من دون إذن من أهليهما. وتذكر ملمس يدها وهي في يده. كان مقتنعاً تماماً أنها فتاته الوحيدة التي سيتزوجها. وفي يوم وهو في الرابعة عشرة من عمره بعد انتهاء العام الدراسي وبداية عطلة الصيف جاءت إلى بيته وطرقت بابه وأبلغته بالخبر. حصل والدها على عمل في فرنسا وتحديداً في باريس وأنهم سوف يسافرون تلك الليلة. وقالت له بأسى أنهم لن

يعودا إلى لبنان ثانية. لا يزال مروان يتذكر مشاعره وهو يقبل وجنتها والدموع تسيل بغزارة من عينيها وهي تودعه ثم تتحوّل عنه وتجري بعيداً. لا يزال يشعر بالغصة في حلقه والألم الذي أصاب قلبه. وتذكر كل الأفكار التي ملأت ذهنه. ماذا فعل حتى يعاقبه الله هكذا؟ أي شر فعل؟

جاءه همسها مرة أخرى وهي تقول:

"مروان. هل تستطيع أن تفتح عينيك؟ يجب أن تستيقظ."

ها هي مرة أخرى. ها هو يحس بأنفاسها الحارة على وجنتيه، ورائحة عطرها يملأ الجو. أخذت عيناه المحتقنتان المغمضتان تنفتحان ببطء. فتح عينيه لتصطدما بوجهها. ها هو يراها مرة أخرى وبدأت ابتسامة واهية تزحف إلى أركان فمه.

لم تكن ترتدي قميص نومها الوردي. كانت ترتدي ملابس التمريض البيضاء. شعرها الأسود لم يعد طويلاً كما كان. الآن يصل إلى كتفها فقط. لم يكن على وجهها أية مساحيق ولا تحت أجفانها خطوط مظللة، فبدت أنقى وأحلى وأجمل، وعيناها العسليتان الجميلتان بدتا له أكثر سحراً وفتنة عما كانتا عليه من قبل. لم يرهما رائعتين هكذا. النظر إليهما وتأملهما يستحق كل ما مر به من معاناة ليصل إليها. شعر بكل الألم والحزن الذي ملأه طوال الستة شهور الماضية يختفي تماماً. أن يكون في بيتها راقداً على أريكتها تحت نظرها واهتمامها وعنايتها ويصل إلى سمعه صوت دقات قلبها، ذلك هو الشفاء، الشفاء الحقيقي الذي يريده.

"مروان. هل تسمعني؟"

همست رانيا مرة أخرى بصوت رقيق ممتزج باهتمام وقلق.

جاءها صوت مروان ضعيفاً مهتزاً:

"كم الساعة الآن؟"

كان الصداع العنيف الذي لازمه طويلاً قد بدأ يخفّ ويغمره سلام وأمان

وهدوء وراحة لم يشعر بها منذ شهور.

نظرت رانيا إلى ساعتها وقالت:

"الساعة تقترب من الثامنة."

"صباحاً؟"

سأل ذلك وهو يتطلع إلى الستائر نصف المغلقة على النوافذ وأضاف:

"ولماذا لا يزال الجو مظلماً؟"

أجابته رانيا وقالت:

"إننا في المساء يا مروان. إننا في الثامنة مساء تقريباً. لقد بقيت نائماً منذ سقطت أمام الباب حتى الآن."

همس في خجل يقول:

"آسف. أنا آسف."

هزت رأسها وتحسست جبينه وقالت:

"حسناً. هذا حسن."

"أنا آسف على كل ما حدث. أنا أعلم أنك لم تريدي..."

قاطعته وهي تضع إصبعها على شفتيه وتقول:

"هس. هناك شيء أريد أن أقوله لك."

فكر مروان فيما يمكن أن تقوله ثم قال في نفسه لتقل أي شيء. كل ما يعنيه هو أنه عاد من جديد إلى حياتها. تمهلت رانيا قليلاً ونظرت في عينيه واكتشفت أنه قد بدأ يتحسن. أخذت نفساً عميقاً ثم قالت بحزم:

"لا يمكنك البقاء هنا."

كاد قلب مروان أن يتوقف عن النبض.

وتساءل في نفسه: ما هذا؟ ماذا تقول؟ بدأت البرودة تسري في كفيه.

حاول أن يتكلم فلم يستطع أن يستجمع كلمة واحدة يقولها. حين رأت شفتيه ترتعشان همست قائلة له:

"لا تتكلم. أرجو منك أن تستمع إليَّ فقط."

لم يكن في حال تمكنه من ذلك. لم يكن قادراً أن يسمع شيئاً بعد ذلك. لم يرد ذلك. ثم بدأت رانيا تقول في صوت ثابت:

"أنا أحبك يا مروان. أحببتك دائماً وطوال الوقت. منذ القبلة الأولى أو حتى قبل ذلك. قبل ذلك بكثير، يوم أن سافرنا بكيت كما لم أبكِ أبداً في حياتي، لأنني لم أكن أظن أنني سوف أراك ثانية. ظللت أبكي لأسابيع. قلت لوالديّ أنني أكرههما لأنهما أخذاني بعيداً عنك وأنني سأهرب وأبحث عنك وألحق بك. كنت حينئذ بنتاً صغيرة يا مروان. غريرة وساذجة. لكنني كبرت وأنت أيضاً كبرت. كلانا كبر وكلانا تغير وسار كل منا في طريق متباعد وأصبحنا مختلفين. اختلفنا يا مروان، اختلفنا. وعندما جئت إلى بيتي العام الماضي ورأيتك على الباب حاملاً زهوراً وهدايا وتعرض عليّ الزواج جفلت وخفت. خفت لأنني تغيرت وأصبحت لي حياة جديدة مختلفة وأحببت هذه الحياة. أصبح لي أصدقاء جدد، أصدقاء يهتمون بي وأهتم بهم. تعرفت بشاب يبدي إعجاباً بي وأنا أيضاً معجبة به."

تمهلتْ قليلاً ثم عاودت كلامها:

"لكنك لم تتوقف عن أن ترسل لي خطاباتك الجميلة واستمرت المذكرات والمكالمات والهدايا الرقيقة، وتوالى وصول الزهور والورود إلى بيتي. كل ذلك كان يحرك حواسي ويربك عواطفي. لعشر سنوات تقريباً وأنا أحاول أن أنساك بكل ما لدي من عزم وإصرار. لم أستطع أن أنساك طبعاً، لكنني كنت أرغب أن أُشفى منك، أن أستبعدك من تفكيري وأتخطاك وأتركك حتى أتمكن من أن أشكل لنفسي حياة مناسبة لي. حياة أنقشها وأرسمها وأنسجها حسب رغبتي وميولي واحتياجاتي. أعرف أنك في محاولاتك هذه كلها كنت تريد أن تؤكد لي مقدار حبك لي وشغفك بي، وهذا جميل ولذيذ ولطيف منك. وكنت أقرأ

خطاباتك يا مروان. نعم، قرأتها مع أنه يمكن أن يكون قد جال بخاطرك أنني لا أقرأها. وفي خطاباتك شرحت لي نوع الحياة التي تحياها ولعلك كنت تتصور أن ذلك سوف يبهرني وأن عملك ومصاحبتك للصفوة من أصحاب الثروات والنفوذ من الطبقات العليا في المجتمعات سوف يخلب لبي ويخطف بصري. لكنني في كل ما قرأت لم أتعرف على صديقي القديم العزيز الذي له صورة مختلفة عندي."

قالت عبارتها الأخيرة بلهجة بها إحباط وفشل ثم أضافت:

"لا أريد أن أتزوج رجلاً نادراً ما يكون في البيت... رجلاً يعيش طوال الوقت في خطر... رجلاً كلما غامر بحياته كلما زادت الأموال التي يحصل عليها. أنا لا أريد أن أتزوج رجلاً يعبد المال والسلطة بدل الله وحده. أريد شخصاً يحبني... شخصاً يحب أن يقضي وقته وحياته معي يا مروان... شخصاً يرغب في أن يكون رب عائلة يرعاني، ويرعى أولادي، ويهتم بالأمور الجادة والمهمة في الحياة. الأشياء التي تستحق أن يحيا الإنسان لأجلها. وهذا الشخص ليس أنت يا مروان. لعلك كنت كذلك في الماضي، أما الآن فلا. لا أظنك هو. لست الشخص الذي أتمناه لنسير معاً رحلة الحياة."

حاول مروان أن يجد ما يقوله لها وبعد جهد قال:

"أستطيع أن أتغيّر."

مسحت رانيا وجهه الدافئ بكفيها الرطبتين وابتسمت ثم قالت وليس في كلماتها أو عينيها أي اتهام أو تأنيب أو حتى اعتراض:

"قد تستطيع ذلك فأنت رجل تتصف بالقوة والعزم. لكنني في الأمس وجدتك ملقى على بابي فاقد الوعي تنزف بغزارة بسبب جرح غائر من رصاصة غادرة أُطلقت عليك. لقد جازفت بعملي وسمعتي حتى أعيد إليك وعيك وعافيتك. هذه ليست الحياة التي أريد أن أعيشها."

سألها مروان بكل عينيه:

"وهل لهذا هربت؟"

"أنا لم أهرب. وجدت فرصة عمل مناسبة وصالحة لي، تُعرض عليّ. قبلتها."

قال وصوته لا يزال به رعشة ألم وإرهاق:

"كنا على موعد لتناول العشاء في باريس. جلست منتظراً ساعة كاملة قبل أن يلحق بي أخوك ويخطرني أنك سافرت."

"ربما لم يحسن أخي أن يبلغك رسالتي بطريقة لبقة لائقة مهذبة."

"بلا كلمة؟ حتى كلمة وداع؟"

"حسبت ذلك أفضل. حاولت كثيراً أن أجعلك تفهم، ولم تدرك رسالتي جيداً."

"لعلكِ لم تحاولي ذلك بوضوح ولم تتناولي الموضوع بطريقة أفضل."

وقالت في استسلام:

"لعله كذلك. قد أكون أخطأت لكنني أبداً لم أقصد إيلامك."

"بل فعلت. آلمتني."

"أنا آسفة جداً يا مروان. صدقني إني آسفة. لكن مجيئك إلى هنا خطأ. أخطأت بمجيئك."

"لم يكن أمامي مكاناً آخر أذهب إليه."

"وما هو حجم مشكلتك؟"

"رأيتِ الجرح بنفسك."

"من الذي اعتدى عليك هكذا؟"

"لا أعلم. أحتاج إلى مكان ألجأ إليه حتى أتماثل للشفاء وأفكر كيف أخرج من هذه الورطة."

"ليس هنا يا مروان."

سألها مروان بشكل تلقائي لا يحمل أي اتهام أو عتاب:

"لماذا؟ لن أقف في طريقك. سأبقى قليلاً حتى أسترد قواي."

هزت رانيا رأسها وأكدت له:

"ليس من الصواب البقاء هنا. المكان ليس آمناً... ثم..."

على الرغم من توقعه ما سوف تقول سألها:

"ثم ماذا؟"

"مروان. أرجو منك ألاّ تدعني أقول المزيد."

"أريد أن أسمع ما سوف تقولين."

"توقف يا مروان. أرجو منك أن تتوقف."

وأصرّ مروان أن يستمع إليها. تجمعت الدموع في عيني رانيا وهي تقول:

"أنا أحبك يا مروان. ليس بالشكل الذي تريده، وأنا آسفة لذلك. أرجو منك أن تدعنا نفترق هكذا. عند هذا الحد فقط."

خفض مروان رأسه ببطء ولاحظ وجود ليلى وهي تجلس هادئة بعيداً في جانب من القاعة. كانت عيناها ممتلئتين بالدموع أيضاً.

استجمع كل ما لديه من قوة وانتصب واقفاً وأخذ يجمع حاجياته ويتجه نحو الباب، والتفت نحو الفتاة التي كانت أول حب له، أول من أحب بكل ما بقلبه من حب. نظر إليها ملياً وهو يقول بصدق:

"أتمنى أن تجدي الرجل الذي تبحثين عنه. أنت تستحقين أن تعيشي حياة سعيدة يا رانيا. وأعدك ألا أضايقك مرة أخرى."

كانت عينا رانيا قد اصطبغتا بلون أحمر وشفتها السفلى ترتعش ولم يكن يريد أن يجعل الأمر يزداد صعوبة، فقال وقد استعاد رباطة جأشه:

"شكراً من أجل العناية بي وتضميد جرحي."

مرّ وقت قصير في صمت ثقيل حرج ثم فتح الباب ليخرج.

قطع الصمت صوت رانيا المفاجئ:

"إلى أين ستذهب يا مروان؟"

"وهل هذا يهم؟"

"يهمني أنا."

اعترف بحيرته وعدم معرفته قائلاً:

"صدقيني لا أعرف. ربما إلى مصر أو الخليج. المهم أن أذهب إلى مكان بعيد. أبعد مكان من هنا."

وخرج وأغلق الباب بهدوء خلفه واختفى.

الفصل العشرون

خرج مروان عقّاد من باب العمارة التي تقيم فيها رانيا في التاسعة مساء تقريباً. كان يسير بخطوات ثقيلة متعثرة ليلاً وهو لا يعرف إلى أين يذهب. لم يكن يعرف أحداً في المدينة، ولا في البلد كله. لم يجرؤ أن يبحث عن فندق يقيم فيه. من المتوقع أن أولئك الذين يطاردونه سوف يقتفون أثره إلى المغرب في أسرع وقت، هذا إذا لم يكونوا قد وصلوا إليها فعلاً.

لا زال يعاني درجة حرارة مرتفعة على الرغم من انخفاضها بعض الشيء بعد تناوله المضادات الحيوية. جسده كله يؤلمه وها قلبه قد تحطم أيضاً. ذهابه إلى رانيا كان قراراً غبياً وخطأ غير محسوب جيداً. كيف تصرف بهذا الغباء؟ أدرك الآن سبب خوفه خلال الشهور الستة الماضية. تأكد بأن الحياة التي اختار أن يحياها أفقدته المرأة التي أحبها. بعد هذا لا شيء يهم. لا شيء له قيمة.

ضاع الأمل وتراجع كل رجاء في أي شيء، ومعه ضعفت رغبته في محاولة النجاة من السقوط في يد أعدائه. زحف الظلام إلى عقله وشل تفكيره. راوده خاطر أن ينهي حياته ويضع حداً لآلامه ويذهب إلى الجحيم. لكن أفكاراً أخرى راودته، رامي الذي يعمل بكل جهد ليوفر له سلامته، صديقه الوحيد في هذا العالم... لا يستطيع أن يتخلى عن رامي أبداً. لو فعل ذلك لما غفر له والداه، على الرغم من كل ما حدث فهو لا يستطيع أن يخون ذكرى والديه أو يجلب العار إلى أسرته.

ما المفروض أن يعمله؟ لا مكان يقيم فيه، لا أحد يذهب إليه، والوقت يمر ودقات الساعة لا تتوقف. وراءه من يسعى للانقضاض عليه وأي خطأ فيه نهايته وهلاكه.

تذكر مروان فجأة السيارة التي كان قد استأجرها. استقلها وابتعد بها عدة كيلومترات عن المنطقة التي تقيم بها رانيا، ثم تركها في شارع جانبي هادئ وألقى المفاتيح في صندوق السيارة. رأى سيارة أجرة فأشار إليها لتقله إلى مطار محمد الخامس الدولي. هناك اتصل بشقيقه رامي من تليفون عمومي مستخدماً كارت ائتمان يحمل أحد الأسماء المستعارة التي يتسمى بها. ما إن جاءه الرد حتى قال:

"آسف يا رامي لاتصالي بك في بيتك."

قال له رامي في عتاب:

"ألم أقل لك إنّ أي اتصال يجب أن يتم من هاتف هوائي؟"

"أعرف ذلك. لكن ليس لدي الوقت."

"المفروض أن تنتظر ثلاثة أيام. لم يمر يوم كامل منذ اتفقنا على ذلك."

"أريد أن أرجع إلى وطني وبيتي."

"لماذا؟ هل حدث شيء؟"

قال مروان مبرراً:

"القصة طويلة."

"طويلة؟ كيف؟ كل ما مر اثنتا عشر ساعة."

" أرجو منك أن تسمع يا رامي. لا أستطيع أن أحكي لك ما حدث الآن. احجز لي تذكرة."

"لا. التفكير في العودة إلى بيروت ليس تفكيراً سليماً."

"لماذا؟"

"لن تكون في أمان هنا. الآن على الأقل."

"وأنا لا أستطيع أن أبقى هنا ولا أن أذهب إلى أوروبا. ما رأيك في ساو باولو؟"

وفي صوت يعكس التعب والإرهاق قال رامي:

"أهذا وقت المزاح؟"

"ولم لا؟ هناك أستطيع المساعدة في العثور على كلوديت رمزي."

"لدي من يقومون بذلك من دونك."

"ماذا عن الولايات المتحدة؟ هل تستبعد أمريكا؟"

"لن تستطيع الحصول على تأشيرة لدخولها."

"وماذا عن القاهرة؟"

"ولماذا القاهرة بالذات؟"

"ولماذا لا؟"

وبينما هو يتحدث مع رامي شاهد عدداً من رجال الشرطة المغاربة يلتفون من حول سيارة أجرة. أكمل حديثه مع شقيقه:

"أستطيع أن أختفي وسط الأربعة عشر مليوناً الذين يعيشون فيها."

"لا أفهم لماذا لا تبقى في الدار البيضاء؟"

"أجابه مروان في حزم:

"قلت لك لا أستطيع ذلك. سأوضح لك السبب فيما بعد."

"حسناً، سأحجز لك تذكرة إلى القاهرة. متى تريد أن تسافر؟"

"الآن."

"الآن؟ أتقصد هذا فعلاً؟ أين أنت الآن؟"

"في المطار."

"فعلاً؟ اسمع. انتظر قليلاً."

"ماذا هناك؟"

"أخبار مهمة جديدة على التليفزيون الفرنسي."

"ماذا؟"

"وجدوا سيارة الأجرة وجثة السائق في مرسيليا."

سأله مروان بعد انتظار:

"وماذا يقولون أيضاً؟ هل يقولون شيئاً عني أو عن المغرب؟"

"لا. ليس بعد. يقولون إن رجال الشرطة يجمعون المعلومات. وإنهم لم يصلوا إلى شيء بعد."

"كذابون. هم يتبعونني. يجب أن أخرج من هنا حالاً."

"هذا صحيح. أي اسم تريد أن تستخدمه هذه المرة؟"

"طارق جميل. احجز لي تذكرة باسم طارق جميل."

رد عليه رامي بسرعة وهو يقوم بالحجز على جهاز الكمبيوتر الذي في منزله:

"تم الحجز. هل هناك شيء آخر؟"

"أحتاج إلى مكان أقيم فيه عندما أصل القاهرة."

"فندق؟"

"لا. هذا يسهل عليهم اقتفاء أثري!"

"فأين تريد أن تقيم؟"

"استأجر لي شقة مفروشة."

"شقة مفروشة؟ والمدة؟ لكم من الوقت تريدها؟"

"لا أعرف، لمدة معقولة."

"معقولة؟ ماذا تقصد بذلك؟"

"مدة طويلة."

"هل تنوي ذلك فعلاً؟"

قال مروان لأخيه:

"لِمَ لا؟ أنت بنفسك قلت أنني لا أستطيع العودة إلى بيروت ولا أن أذهب لأبحث عن كلوديت رمزي. أين أذهب إذاً؟"

لم يجب رامي، فاستمر مروان يلحّ عليه:

"المهم، ابحث لي بسرعة عن مكان أقيم فيه مهما كلفني ذلك. ثم أرسل لي بالبريد العاجل المسجل هاتفاً هوائياً من عندك وبعض النقد وبطاقات عمل جديدة."

"بطاقات عمل، من أي نوع؟"

"خاصة برجال أعمال تصبغ عليّ صبغة الرجال المهمين المحترمين."

"رجل أعمال مهم ومحترم؟ مثل ماذا؟"

"لا أعرف. تصرف. خبير كمبيوتر... معد برامج أو وكيل وممثل لإحدى الشركات العالمية. أنشئ شركة خاصة لي، واختر لها اسماً رناناً، واختر لها شعاراً ملفتاً، وكوّن لها موقعاً على الإنترنت حالاً."

"لا بد من أنك تمزح. أليس كذلك؟"

"لا. ليس كذلك. أنا لا أمزح. أرجو منك أن تتصرف بسرعة ؟"

* * * * * * * * * * *

في الحادية عشرة والنصف صعد مروان عقّاد أو طارق جميل إلى طائرة شركة مصر للطيران الرحلة رقم ٨٤٨ التي أقلعت قبل منتصف الليل بخمس دقائق وهبطت في مطار القاهرة الدولي في السابعة وخمس دقائق صباح اليوم التالي.

لم يوقظه أحد ولم يستجوبه شرطي. ولم ير من يتبعه. لماذا؟ هل ذلك مكافأة من السماء أم فخاً وشركاً نُصب لاصطياده بدقة؟ لا يبدو أنه فخ. لماذا يظهر له الله كل هذا العطف والرحمة الآن؟ لماذا يهبه كل هذا بعد أن أخذ

منه أشياء كثيرة؟ أخذ منه عمله ومستقبله، أخذ منه المرأة التي أحبها، وكاد أن يأخذ منه حياته خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية؟ هذا شيء غير طبيعي. إلا أنه سيقبل أي فرصة متاحة له من الحظ الحسن أو الفضل الإلهي مهما كان حجمه صغيراً أو ضئيلاً.

السؤال الذي يشغله الآن ليس كيف جاء إلى هنا، بل ماذا سيفعل الآن بعد أن وصل إلى هنا؟ أول شيء يبدأ به هو أن يتذكر أنه هو الآن طارق جميل. هذا ما يؤكده ويعلنه جواز سفره وما تعززه تذكرته. هذا هو الاسم الذي سيدوِّن في عقد إيجار الشقة. عليه أن يتعوّد عليه ويتعايش به وأن يتصوّر نفسه ويعترف بأنه طارق جميل. وما يحتاجه أيضاً قصة مقنعة تناسب الاسم وتكمله.

شق طريقه وسط زحام المطار وحصل على تأشيرة دخول بسهولة بعد أن دفع قيمتها، واستقل سيارة أجرة أنزلته عند مدخل فندق شيراتون بطريق العروبة، والذي لا يبعد عن المطار إلا بضعة كيلومترات. لم يكن راغباً في أن يقيم في الفندق أو يحجز لنفسه غرفة بل كان يحتاج إلى مكان يستخدمه بعض الوقت لعمل الاتصالات بشقيقه رامي، ويتناول فيه شيئاً يأكله، ويخطط لتحركاته القادمة. دخل إلى مركز الخدمات الإدارية ووجد فيه أحد العاملين الذي بادره بالتحية:

"مساء الخير. هل من خدمة أقدمها إليك؟"

"أريد استئجار كمبيوتر."

"حالاً يا سيدي. وهل سيادتك نزيل في الفندق؟"

"لا. أنا هنا لمقابلة زميل وقد نسيت أن أحضر الكمبيوتر المحمول الذي أستخدمه وأريد أن أراجع رسائلي الإلكترونية."

أجابه الموظف بلطف:

"هذا أمر سهل. كم من الوقت تحتاجه؟"

"ساعة تقريباً."

"بكل سرور. فقط املأ هذه الاستمارة. ما اسم سيادتك؟"

أجاب مروان من دون تردد:

"طارق جميل."

"عظيم يا سيد طارق. ستحتاج طبعاً إلى كارت لتشغيل الكمبيوتر."

"كم؟"

"خمسة وأربعون جنيهاً للساعة."

"حسناً. هل تقبل كارت فيزا؟"

بعد لحظات كان مروان أو طارق يجلس في ركن هادئ تحت ضوء خافت في صالة الاستقبال في الفندق أمام جهاز الكمبيوتر. دخل إلى الموقع الذي يستخدمه لاتصالاته الإلكترونية، وهو يشرب من كوبه عصير برتقال طبيعي. أرسل رسالة إلكترونية تقول:

"رامي. هل أنت هناك؟ هذا أنا طارق. لقد وصلت."

انتظر لحظات قليلة وظهر رد رسالته على الشاشة:

"الحمد لله. كيف حالك؟"

"عظيم. رحلة جيدة؟ هل وجدت الشقة؟"

"تقريباً."

"بمعنى؟"

"وجدت مكاناً لم يُستخدم لبعض الوقت، وكما يقول مالكه إنه يحتاج إلى بعض الإصلاحات. كما قال إنه يمكنك استخدامه من اليوم إذا لم تمانع أن تُجرى الإصلاحات في وجودك."

"ما حجم تلك الإصلاحات؟"

"بعض التنظيف والطلاء. لا أعرف بالضبط."

"وأين موقع الشقة؟"

"في مصر الجديدة. قرب المطار."

"عظيم جداً. أنا الآن في الشيراتون."

"المالك مستعد أن يتقابل معك في أي مكان تحدده. يبدو أنه سعيد إن وُجد من يستخدم المكان."

"هل يقبل أن يؤجره لشهر مثلاً؟"

وجاءه رد رامي مكتوباً على الشاشة أمامه:

"لا. ليس أقل من ستة شهور."

"مستحيل. قل له إننا سندفع إيجار شهر نقداً لكننا لن نوقّع عقداً معه قبل أن يُنهي جميع الإصلاحات. ثم نفكر في استئجاره ستة شهور."

"وهو كذلك."

"حسناً. ماذا أيضاً؟"

"عرفت الذين يقومون بالتحقيق في قضيتك بمونت كارلو."

"من؟"

"اثنان: الأول جين كلود جودار. من مواليد نيس في فرنسا ويعيش في موناكو. عمره ٤٦ سنة. كبير مفتشي المباحث. رجل ذكي سمعته طيبة محترم في أوساط مونت كارلو. متزوج وله ابنة وحيدة. الثاني مارسيل لوميه، عمره ٦٢ سنة. مولود في جرينوبل في فرنسا، يعيش في نورماندي، وهو رئيس المباحث الجنائية في باريس، ويُعتبر أكفأ مفتش بوليس في كل فرنسا بل من أفضل الباحثين الجنائيين في أوروبا كلها. استطاع أن يحل قضايا كثيرة معقدة في الإتحاد الأوروبي. مطلّق من دون أبناء."

"من منهما الذي ذهب إلى المغرب؟"

"كيف عرفت؟"

"بالفطرة. تخمين يا أخي."

"لوميه. سيصل هناك بعد دقائق."

"وجودار؟"

"سيأتي إلى هنا يا مروان ليحقق معي."

"أنت تمزح."

"ليتني كنت أمزح."

"أترك لبنان بسرعة. الآن. لا تجعلهم يعثرون عليك. ليس الآن."

"لا أستطيع أن أهرب وأترك العمل هنا يا مروان."

"تستطيع أن تدير العمل وأنت بعيد عنه. عملت ذلك مرات عديدة."

"وإلى أين أذهب؟"

"إلى بغداد. عندنا الآن فريق في بغداد يصاحب رجال الأعمال من شركة إكسموبيل."

"هل جننت؟ تريدني أن أذهب إلى العراق هروباً من رجل شرطة قادم من مونت كارلو؟"

أرسل إليه طارق يقول:

"طبعاً. من دون شك. لا يجب أن تبقى هناك الآن. إذا عثر عليك جودار ولم تعطه ما يريد من معلومات فسوف يصدر الأمر بحبسك بتهمة تعطيل العدالة ومقاومة السلطات القضائية. والله وحده يعلم ما يمكن أن يحدث لك أيضاً. لا يمكن أن نسمح لهم بأن يفعلوا ذلك بك يا رامي."

"وماذا لو تبعني جودار إلى بغداد؟"

"لن يتبعك ولن يجازف بحياته. حياته أغلى من ذلك."

الفصل الحادي والعشرون

بقي طارق جميل في الشقة ولم يخرج منها لمدة يومين.

كانت حرارته لا تزال مرتفعة... لم يعرف مقدارها، فليس لديه ما يقيسها به. ولم يكن قادراً لأن يخرج ليعرض نفسه على أحد الأطباء ولا إلى مطعم أو محل بيع مأكولات. لم تكن لديه أية شهية للأكل. كل ما كان يتناوله هو زجاجات المياه الغازية والمعدنية التي أحضرها من فندق الشيراتون ليقاوم الجفاف وتناول حبوب المضادات الحيوية والأدوية التي أعطتها له رانيا قبل أن يخرج من بيتها، ووضعتها في حقيبته التي كانت معلقة على ظهره. لم يبالغ رامي في وصف الشقة المستأجرة. كانت كبيرة متسعة أكبر مما يحتاج إليه. كانت تشتمل على ثلاث غرف نوم، وثلاث دورات مياه، وقاعة هائلة للاستقبال. أما قوله أنها تحتاج إلى القليل من الإصلاحات فلم يكن صحيحاً. لا بد من أنها كانت رائعة وجميلة في الخمسينات والستينات، لكن كما يظن طارق، لم تمتد يد لتنظيفها وإصلاحها من ذلك الحين.

كان التراب يغطي كل شيء من الأرض إلى السقف. أما المطبخ بكل ما فيه فكان مغطى بطبقة لزجة من الدهون. دش واحد كان صالحاً للاستعمال أما الآخران فكانا معطلان. تواليت واحد صالح والآخران يرشحان المياه. حوض المطبخ لا يصلح للاستخدام والفرن لا يعمل. عين واحدة من أربعة عيون البوتاجاز تشتعل. على الرغم من برودة الجو فلم يكن بالشقة أجهزة تدفئة تعمل وكان طارق ينام وهو يرتجف من البرد.

إلا أن جدران الشقة كانت مغطاة بلوحات فنية رائعة الجمال مثل صورة موناليزا بالحجم الطبيعي، وصورة المرأة الإسبانية، وفي حجرة الطعام لوحتان

متكررتان لصبي صغير يدخن، وعلى جدران الممرّ صوراً مجسمة لأربع قطط جميلة جداً. في قاعة الاستقبال كان هناك ثلاثة تماثيل كبيرة من النحاس لتنين ورجال من آسيا وصور حيوانات مختلفة معلقة على البار. لكن ذلك كله كان مغطى بطبقة كثيفة من التراب.

كل هذا لم يضايق طارق كثيراً كما ضايقه أن أغلب المصابيح الكهربائية في المكان كانت محترقة ما جعل إمكانية الرؤية حتى في وقت النهار صعبة.

كان مالك الشقة قد وعد بتنظيفها وإصلاحها، إلا أن طارق كان يحتاج إلى بضعة أيام من الراحة من دون عمال يزعجونه بالتكسير والطرق والدق وغير ذلك من مضايقات. طلب من العمال ألاّ يحضروا إلى الشقة قبل يوم الاثنين. كل ما كان يحتاج إليه هو أريكة صالحة للنوم عليها، ووسادة تحت رأسه، وبطانية ثقيلة يستدفئ بها. لم تتوفر له إلا الأريكة التي في غرفة المعيشة تكوّر فوقها ونام طوال الوقت.

أيقظته في اليوم الثالث طرقات على الباب. مد يده تلقائياً يبحث عن مسدسه ثم تذكر أنه ليس معه سلاح. نظر إلى ساعته وعرف أن الوقت ظهراً على الرغم من الستائر المغلقة، وأغلب المصابيح مطفأة.

استمر الطرق وزادت شدته فأسرع نبض طارق. لم يخبر أحداً أنه في القاهرة أو مصر الجديدة. اليوم الخميس والعمال لن يحضروا قبل يوم الاثنين. فمن الذي يطرق الباب بهذا لإصرار؟

قام طارق وأمسك مصباحاً صغيراً وتحرك نحو الباب. ترى هل عثروا عليه؟ إذا كانوا هم فلماذا يطرقون الباب؟ سيقتحمونه مندفعين من دون طرق على الأبواب. التفّت أصابعه على المصباح من الوسط حتى يمكنه أن يستخدمه في الدفاع عن نفسه إن حاول أحد الاعتداء عليه. لن يستسلم من دون مقاومة. وصل إلى الباب ونظر خلال العين السحرية ثم عاد إليه هدوؤه وهو يرى رجل البريد يحمل عدداً من الصناديق الكبيرة. فتح الباب ورأى الرجل وقد صدمه منظر طارق فانعكس الفزع على وجهه وسأله:

"هل أنت طارق جميل؟"

"نعم. أنا هو."

فسر دهشة الرجل وفزعه بالحال المزرية التي كان عليها طارق. لم يحلق ذقنه لعدة أيام ولم يغتسل ولم يغير ملابسه منذ يوم إطلاق الرصاص.

"وقّع هنا."

وقّع طارق على الأوراق، ومنحه مكافأة، وتناول الصناديق واللفافات. كان من الواضح أنها جاءت من بيروت. مزق غطاء الطرد الأول بسرعة كطفل صغير يتلقى هدية في عيد ميلاده.

وجد بداخل الصندوق هاتفاً هوائياً جديداً مع البطاريات، وشاحن، وكتيب إرشادات للاستعمال. ووجد أيضاً مظروفاً يحتوي على عشرة آلاف جنيه مصري تكفي ليتحرك ويشتري احتياجاته. كما كان هناك مجموعة من البطاقات مطبوع عليها "طارق جميل". مدير تنفيذي لشركة ICT للاستشارات. بروكسيل، بلجيكا. مع بيانات موقع إنترنت، وعنوان مركز مراسلات إلكترونية، ورقم صندوق بريد، ورقم تليفون إقليمي في بروكسيل.

شحن طارق التليفون الهوائي، وأدار الرقم المكتوب على بطاقة العمل، فجاءه صوت نسائي يجيب بالفرنسية: "شكراً من أجل اتصالكم بشركة أي سي تي للاستشارات. نأسف لعدم وجود من يرد على مكالمتكم الآن. الرجاء ترك الاسم ورقم التليفون وهدف الاتصال. وسوف نقوم بالرد عليكم في أقرب فرصة ممكنة." ثم تم إعادة الرسالة باللغتين الإنجليزية والألمانية. فكر رامي في كل شيء جيداً!!!

فتح طارق الصندوق الثاني ووجد فيه حقيبة صغيرة من الجلد، حين فتحها ظهر كمبيوتر جديد Dell Latitude D800 مشحون بأحدث المعلومات، ومعه العديد من الشرائط الممغنطة بكل ما يمكن الاحتياج إليه من بيانات. وعلى كثير من الملابس. سراويل جينز وكاكي، قمصان جديدة متعددة، ملابس

داخلية، سترات وملابس صوفية، أدوات حلاقة، ومعجون وفرشاة أسنان، وصابون، وكريم للشعر، وغير ذلك من اللوازم.

الصندوق الثالث كان مفاجأة لطارق. ما إن فتحه حتى رأى جهاز تليفزيون محمول ديجيتال وراديو جديد في صندوقه. فهم أن رامي يريده أن يتابع الأخبار جيداً، خصوصاً أخبار مطاردته. تحت ذلك وجد عدداً من خرائط القاهرة وضواحيها، وكشفاً بشركات الاستشارات الخاصة بالكمبيوتر والإنترنت في القاهرة. كما عثر على مجموعة من المطبوعات والدوريات والجرائد، فيها مقالات وبحوث عن كل ما له علاقة بصناعة الكمبيوتر، حتى يتمكن من ادعاء فهمه لكل أسرار المهنة التي اختارها لنفسه.

ثم وجد في القاع صندوقاً صغيراً معدنياً، ملتصقاً مفتاحه بسطحه، ما إن فتحه حتى عثر على مسدس عيار ٤٥ وطلقاته.

الفصل الثاني والعشرون

شعر طارق بالذنب لإرساله شقيقه إلى بغداد. وما لا شك فيه أن رامي يعرف جيداً لماذا طلب منه ذلك. لم يكن أبداً يقبل أو يسمح أن يتركه في قبضة جين كلود جودار أو أحد من رجاله. شعر بألم يهاجم معدته ويعتصر أمعاءه. لو قُتل رامي في العراق فلن يغفر لنفسه جرماً كهذا. لا بد من أن يجد حلاً ويطرد ذلك الكابوس الذي يعيش فيه. وبسرعة. ركّب الكمبيوتر وأوصله بالخط التليفوني في حجرة المعيشة ودخل شبكة الإنترنت محاولاً إيجاد معلومات حديثة عن رفيق رمزي وعائلته. كما توقع، وجد أن وسائل الإعلام في أوروبا ومصر حافلة بالقصص والتعليقات على مقتل رفيق وابنته بريجيت، واختطاف واختفاء زوجته كلوديت. ثم ظهرت على الشاشة أمامه صورته، صورة مروان عقّاد المطلوب القبض عليه كقاتل. وتكرر ظهور الصورة في مواقع كثيرة ما جعله يفكر فيما إذا كان قد أخطأ بقدومه إلى القاهرة. لم يكن لديه اختيار آخر. آخر الأخبار كانت على الصفحة الأولى من جريدة لوموند الفرنسية وكانت تشمل تفاصيل دقيقة عن الأحداث التي سبقت مقتل رفيق رمزي في مونت كارلو. ومن تلك التفاصيل وصول رسالة إلى مكتب رفيق في باريس بالبريد السريع من برلين في اليوم التالي لاختفاء كلوديت بطلب فدية. وتحمل الرسالة تعليمات بتحويل مليون يورو برقياً إلى حساب حددوا رقمه في بنك سويسري في مدة لا تتجاوز أربع وعشرين ساعة وذلك "إذا كان مسيو رفيق رمزي يرغب في أن يرى زوجته ثانية." وتقرر الجريدة أن رفيق رمزي قام بدفع المبلغ كاملاً من دون تردد.

وأضافت الجريدة أنه "بعد أيام قليلة وصلت بيت رفيق رمزي رسالة أخرى من بروكسيل بالبريد السريع أيضاً مرفقاً بها شريط فيديو يظهر زوجته مقيدة

ومكممة، وكانت لا تزال حية. وفي الرسالة طلب جديد بمبلغ عشرة ملايين يورو وإلا ستُقتل وتذاع جريمة قتلها على الإنترنت ليشاهدها العالم أجمع. وكانت التعليمات أن يحول رفيق رمزي المبلغ برقياً خلال اثنتين وسبعين ساعة ثم يذهب إلى بروكسيل وينتظر هناك تعليمات جديدة من الخاطفين."

واستمرت الجريدة تروي المزيد من القصة عن العثور على طرد غريب في مكتب استقبال الفندق الذي كان يقيم فيه رفيق رمزي وفي داخله صورة جديدة لزوجته مع مذكرة بطلب خمسة وعشرين مليون يورو وتفاصيل المكان حيث ستوجد فيه الزوجة في مدريد بعد أسبوع من دفع المبلغ كاملاً. القصة حقيقية تماماً كما ذكرتها الجريدة وكانت سبباً في أن يتصل به رفيق رمزي. لم تفاجئ القصة مروان وتسترعي دهشته فهو يعرف كل ذلك جيداً. ما أدهشه وأقلقه هو الفقرة التالية المكتوبة في الجريدة:

"ويعتقد رجال الشرطة أن مروان عقّاد صاحب شركة حراسة لبنانية خاصة ومديرها التنفيذي قد يكون وراء هذه الجريمة المرعبة. وتقول مصادر قريبة من جهات التحقيق أن لديهم دليلاً قوياً بتورط مروان عقّاد في الجريمة وأنه تمكن من الهرب ولم يتم العثور عليه بعد. وقد قامت جريدة لوموند باتصالات متعدّدة بمكتب شركة عقّاد وشركاه في بيروت، ولم تتلقّ رداً، إلا أن هناك جهوداً مكثفة لمطاردته والقبض عليه في أقرب وقت وبواسطة أكفأ رجال الشرطة."

فجأة سمع طرقاً آخر على الباب. بدأ خفيفاً ثم زاد عنفاً.

تجمّد طارق في مكانه. هل يمكن أن يكون رجل البريد قد عاد ثانية؟ أم من يكون؟ حشا بسرعة مسدسه الـ ٤٥ بالرصاص وتحرك بخفة نحو الباب. ولما نظر من العين السحرية تعجب جداً لما رآه. خارج بابه كانت تقف ثلاث فتيات جميلات. لا تتعدى أي منهما العشرين من عمرها. الفتاة التي في الوسط كانت تحمل في يدها سلة ممتلئة بالحلوى والفاكهة.

ارتبك ووضع مسدسه في جيبه، وغطاه بقميصه ليخفيه، وفتح الباب قليلاً وقال وابتسامته تحمل كل ما يشعر به من حيرة:

"صباح الخير."

الفتاة التي تقف جهة اليمين ابتسمت، والتي تقف جهة اليسار قهقهت بخجل. أما التي تقف في الوسط فهي التي قامت بمهمة الكلام:

"صباح الخير. أنا اسمي داليا نور. وهؤلاء صديقاتي دينا وميرفت، ونحن نسكن في الشقة التي تعلو شقتك. سمعنا أنك انتقلت إلى هنا حديثاً."

لم يجد طارق كلاماً يقوله. إلا أنه تمالك نفسه بعد قليل وقال:

"أنا سعيد برؤيتك يا داليا. وسعيد برؤيتكما أيضاً. أية خدمة؟"

قالت داليا بصوت واثق:

"نحن فقط نريد أن نرحب بك في العمارة. ونقدم إليك هدية بسيطة نيابة عن اللجنة الاجتماعية."

وقدمت إليه سلة الفاكهة، فمد طارق يده وتقبلها شاكراً. وبينما هو يفعل ذلك أحسّ بنفسه مسحوراً بداليا. لها وجه من أجمل الوجوه وأرقها. وعينان واسعتان فاتنتان لونهما بني تومضان وتتلألآن حين تبتسم. وكانت في تلك اللحظة تبتسم. كانت ملابسها أوروبية غالية. سترتها من الكشمير الوردي، وسروالها أسود، أما حذاؤها فيبدو أنه مصنوع في إنجلترا أو فرنسا. لا شيء مما تلبسه صناعة محلية. ومع أن صديقتاها كانتا تتحليان بخواتم وعقود وأساور، لكن داليا لم تكن تتحلى إلا بحلق ذهبي دقيق في وسطه ماسة صغيرة، وساعة ذهبية بمعصمها تبدو أنها كارتييه.

قال طارق وعيناه متعلقتان بداليا:

"هذا لطيف. شكراً لحفاوتكن وكرمكن."

ردت عليه داليا وفي عينيها نظرة إعجاب:

"هذا من دواعي سرورنا."

ترى، هل انجذبت نحوه كما انجذب هو نحوها؟ أم هي الحمى التي بجسده

تخدعه؟ أحس أنهن يزمعن الانصراف وتذكر فجأة منظره المزري وشكله الفظيع، فقال محاولاً الاحتفاظ بهن بضع دقائق وتبادل الحديث الحلو معهن:

"كنت أود لو أستطيع أن أدعوكن إلى الدخول لتناول الشاي والمشاركة في هذه الهدية الجميلة، إلا أن المكان سيّئ وقبيح وليس أفضل من شكلي الذي ترونه أمامكن."

كان رد فعل كلامه ضحكة من داليا ودينا وقهقهة من ميرفت، وعادت داليا تقول:

"لا يهم. أخشى أننا لا نستطيع البقاء، لكننا نحب أن ندعوك الليلة إلى حفل صغير على السطح. الحفل يبدأ في التاسعة وليس عليك أن تحضر شيئاً معك. تعال كما أنت لكن بقميص نظيف."

أراد طارق أن يقبل الدعوة بلا تردد. هناك شيء في هذه الفتاة خلب لبه. لكنه في الوقت نفسه يريد أن يبقى مختفياً لا يلفت الأنظار إليه. لكن كيف يستطيع أن يرفض الدعوة ولا يستجيب لرغبتهن؟ لو رفض الذهاب سوف يؤدي ذلك إلى أن يكون مثار تساؤلات وحديث عن ذلك الغريب الفظ عديم اللياقة الذي رفض دعوتهن. وتمتلئ العمارة بالثرثرة. نظر إليهن وابتسم قائلاً:

"يشرفني ذلك ويسعدني. وفي سبيل ذلك سأضحي وأبحث عن قميص نظيف.

الفصل الثالث والعشرون

لم يصل المفتش جودار إلى شيء. حين وصل بيروت لم يجد في شركة عقاد وشركاه أحداً ذا أهمية يحصل منه على معلومات تساعد في حل طلاسم القضية. كل كبار العاملين في الشركة تركوها قبل وصوله بيوم واحد. موظفة الاستقبال الوحيدة التي سألها – إن كان مروان عقاد موجوداً – قالت: لا. لا تعرف أين هو. وحين سألها عن رامي اعتذرت وقالت: آسفة، رامي في بغداد ولا تدري متى يعود. فلم يصلها منه خبر بعد. وباقي المسؤولين في الشركة يجولون في منطقة الشرق الأوسط لمهام مختلفة. ترك جودار لها رقم تليفونه لتتصل به في حال وجود معلومات وذهب إلى فندقه ليبلغ لومييه بذلك.

اتصل به في فندق هيلتون الرباط وعرف منه أن لديه معلومات قليلة أفضل. وجدوا صور جاك كارديل على أجهزة فيديو مطار الدار البيضاء لحظة وصوله على طائرة شركة الطيران المغربية الملكية، ثم وهو يستأجر سيارة. وأن شرطة الدار البيضاء يقومون بالبحث عنها إلا أنهم لم يجدوها بعد. وقد أعلنت أجهزة المخابرات المغربية أن مروان عقاد جاء إلى المغرب مرتان قبل ذلك في صحبة رئيس الوزراء اللبناني في زيارتين رسميتين، إلا أنه ليست لديهم أية معلومات عن أشخاص كانت له اتصالات بهم في المغرب. كما أنه لا يوجد لديهم أية بيانات أو ملفات عن جاك كارديل. وليست هناك جهة ما تحتفظ بسجل لشخص بهذا الاسم ولا بما يثبت أنه كان له تواجد في المغرب. هذا كل ما استطاع لومييه أن يصل إليه في بحثه عن مروان عقاد. وقال لجودار عبر التليفون في حيرة وكأنه يفكر بصوت عال:

"مروان توجه إلى المغرب لسبب. هو يعرف جيداً أننا في أثره ويعرف أنه لن يستطيع أن يستخدم اسم جاك كارديل المستعار طويلاً. ونعرف جيداً أنه لم

يكن في حوزته ما يكفيه من مال، فلا بد أنه قد قابل شخصاً ما هنا.

تمهل جودار قليلاً قبل أن يعلق متسائلاً:

"ألم يخبر الضابط في مرسيليا أنه سوف يقيم مع صديقته؟"

"قال ذلك ليبرر دخوله الدار البيضاء."

"هذا معقول ومقبول طبعاً، لكن ماذا لو كان ما قاله صحيحاً؟"

واعترض لوميه قائلاً:

"قلت لك إن المعلومات التي لدينا تذكر أنه لم يأتِ إلى هنا من سنوات وهذا يجعل احتمال وجود صديقة له ضعيفاً."

"من الممكن أن يكون قد التقى بها في مكان آخر قبل ذلك وأنها انتقلت إلى الدار البيضاء مؤخراً."

وجد لوميه أن جودار يقول شيئاً معقولاً وكلامه منطقي فقال بعد صمت:

"أكمل. أكمل كلامك."

"وجدوا في حقيبته خاتم خطبة. أليس كذلك؟"

أجاب لوميه:

"نعم. هو كذلك."

واستمر جودار يقول:

"أليس في هذا تبريراً محكماً وغطاء جيداً لما قاله عن وجود صديقة له هناك؟"

لم يسلم لوميه لمنطق جودار بسهولة وبادره بالسؤال:

"وأين التقى بها؟ في بيروت مثلاً؟"

جاءته الإجابة سريعة:

"مثلاً. ممكن جداً. لكن لا يجب أن ننسى أن مروان عقاد قد قضى معظم

الشهور الستة الأخيرة يعمل في فرع شركته بباريس. كان يقوم بخدمات لبعض عملائه في الاتحاد الأوروبي."

"فهل تظن أنه التقى بتلك الصديقة هناك؟"

"هذا ممكن طبعاً."

وبلهجة آمرة قال لوميه:

"اسأل أخاه."

أوضح جودار له أن ذلك ليس ممكنا في الوقت الحالي، فقال له:

"هل تعني أن رامي عقاد سافر إلى بغداد في يوم وصولك نفسه؟"

"قد يبدو هذا غريباً، لكن موظفة الاستقبال أخبرتني أنه عادة ما يقضي ثلاثة أسابيع كل شهر خارج بيروت."

"ومتى خطط للقيام برحلته الأخيرة؟"

"قالت إن سفره كان مفاجئاً."

بادره لوميه بقرار آخر وتكليف جديد قائلاً:

"أراهن أن هذا له علاقة بما نحن فيه. اذهب إلى موظفة الاستقبال ثانية وحاول أن تعرف منها كل ما لديها عن مغامرات مروان عقاد العاطفية. ثم أخطرني بما تصل إليه في أسرع وقت ممكن."

الفصل الرابع والعشرون

حاول طارق جميل جاهداً أن يتذكر آخر مرة حضر فيها حفلة. في الآونة الأخيرة كانت كل حياته مركزة على عمله، وكان أغلب ما يقوم به من أعمال محفوفاً بالمخاطر حتى العطلات وأوقات الراحة والأجازات، كان محروما منها. لم يكن لديه وقت للأنشطة الاجتماعية والاختلاط بالناس. إلا أنه شعر بالحاجة فعلاً وبتشوق إلى الاشتراك في حفل الليلة.

أخذ دش ماء ساخن، وهذا لم يكن شيئاً هيناً، فالجرح الذي في كتفه لم يلتئم بعد. لا زال ملتهباً يؤلمه على الرغم من أن المضادات الحيوية التي كان يواظب على تعاطيها ساعدته على أن يشعر ببعض التحسن. كذلك عادت له شهيته للطعام حتى أنه أكل كل ثمرات البرتقال الكبيرة التي أحضرتها داليا مع الفاكهة الأخرى.

داليا نور...

تذكر وجهها وهو يقف أمام المرآة يحلق ذقنه. من تكون؟ وما هي قصتها؟ لم ير في إصبعها خاتم خطبة أو زواج. كيف ذلك؟ فتاة على هذه الدرجة من الجاذبية والجمال، غير مرتبطة بأحد، وتعيش بلا رجل في حياتها؟!

انتقى مروان بعض الملابس الأنيقة التي أرسلها رامي فكانت مناسبة للحفل، واستقل المصعد إلى السطح حيث وجد ما يقارب عشرين شاباً وشابة كلهم ما دون الثلاثين يحتفلون ضاحكين وهم يرقصون ويتحدثون ويصخبون في مرح. وصوت وموسيقى عمرو دياب تعلو من وحدة تسجيل حديثة وسط المكان الذي تتناثر فيه إضاءة هادئة ملونة تتموّج وتنعكس على وجود الشباب المرح الذي جاء يلهو في ذلك الوقت من الليل. كانت موائد الطعام ممدودة حافلة

بالمشهيات من أطعمة وحلوى شرقية وغربية. وفي جانب من المكان بار عليه كل أنواع المشروبات الكحولية، ويقف خلف البار ساق في حلة سوداء ومطرزة بالقصب الذهبي. جوّ المكان وما به من طعام، وشراب، وموسيقى، وملابس الشباب، وضحكاتهم، وأحاديثهم جعله يدرك أنهم من أعلى طبقات المجتمع القاهري الأثرياء المتحررين من كل تزمّت ديني وتخلف اجتماعي. بالعكس أحس بأن كل من حوله جاءوا بغرض قضاء وقت ممتع بلا قيود. بعد ما حدث له في الأسبوع الماضي، والصدمة التي تلقاها من رانيا، يريد أن يبتعد ويهرب من أي تفكير في الممنوعات والمحرمات والمحظورات الدينية. حتى الله نفسه يريد أن ينساه، لا يريد أي شيء يذكّره بوجوده. لا يحتاج أن يعرف أو يسمع عنه، ولا أن يكون له وجود في حياته من قريب أو بعيد. ماذا أخذ منه غير الإحباط والفشل؟! لم ينصفه أو يساعده أو يحميه. يستطيع من دونه أن يواجه حياته بكل ما فيها من مشاكل.

اقترب من البار، وتناول زجاجة بيرة دفع ثمنها للساقي، وصبّها في كاس كبيرة. كان يريد أن يطرد متاعب الأيام الماضية وأحزانها. لعل الوقت قد جاء لكي يغرقها فيما يشرب حتى ينساها ويبعدها بكل طريقة.

رفع الكأس إلى شفتيه، وأغمض عينيه، وأحسّ بمن يربّت برقة على كتفه، وسمع صوتاً رقيقاً خلفه يقول:

"قميص نظيف أنيق!"

تحوّل فرأى داليا تبتسم له وتقول وهي تتطلع إلى ملابسه:

"أجدت تنظيف نفسك واستعادة حسن منظرك."

بدا أنها تجامله. إلا أنه أحس أن ذلك أكثر من المجاملة. تبدو أنها تغازله. أخذت نفساً من سيجارتها السميكة وقدّمت له سيجارة مماثلة. تحرّك نظره من شفتيها إلى يدها ثم إلى الدخان المتصاعد من سيجارتها وأدرك ما بها. أخذ يتصوّر أمه... وماذا كانت تقول له لو رأته وهو يمد يده ليتناول تلك

السيجارة. لكنه طرد ذلك الخاطر سريعاً. الليلة هو لا يريد أن يشعر بأي ذنب أو حزن لما يفعل. قرّر من هذه الليلة أن ينسى الماضي كله ويبدأ من جديد. مدّ يده وأخذ السيجارة المعروضة عليه وهو يعرف أنها محشوة بمخدر الماريجوانا وأشعلها ثم سألها:

"ما هي المناسبة لذلك كله؟"

"اليوم يوم الخميس."

"وماذا في ذلك؟"

"يوم الاسترخاء والراحة. غداً إجازة."

"وهل تفعلون ذلك كل خميس؟"

"بعض الناس يفعلون ذلك."

"وأنت منهم؟"

"أحياناً أفضّل الذهاب إلى الرقص أو إلى حضور فيلم."

"والليلة؟"

"الليلة كنت متشوقة لأن أعرف إن كنت ستحضر وتقبل دعوتي أم لا."

"هل كنت تتوقعين أنني سآتي؟"

"بصراحة لا."

نظر إليها طارق مبتسماً وسألها:

"ولماذا لا؟"

"لا أعلم. لكنني تصورتك ممن يفضلون العزلة. انعزالي. تفضل الوحدة والانفراد بنفسك كما تبدو."

ارتفعت ضحكة طارق وأحنى رأسه متهكماً وهو يقول:

"مذنب سيدي القاضي. أنا مذنب."

تعالت ضحكات داليا ووضعت يدها على صدره ومالت نحوه تقول:

"مذنب في ذلك فقط؟ أم هناك ذنوباً أخرى؟"

اخترق السؤال صدره وقلبه وهو يسمعه ويحول معناه إلى ما فعله حتى الآن ولا يزال يفعله ويخفيه، لكنه قال مازحاً:

"ذنوبي كثيرة. أنا مجرم خطير."

مدت يدها الرقيقة وأمسكت بيده وجذبته خلفها قائلة:

"تعال. أريد أن أريك شيئاً."

قادته وسط الزحام إلى ركن بعيد هادئ على السطح به كثير من الأشجار والزهور جعلته حديقة صغيرة خاصة. نظر من أعلى إلى أضواء حي مصر الجديدة المتلألئة والطائرات تقلع من المطار القريب وتهبط إليه، وقف مأخوذاً من جمال المشهد وقال بإعجاب شديد:

"جميل جداً... رائع!"

"أليس كذلك؟"

كانا يقفان متجاورين متشابكي الأيدي وهما يستمتعان بالتأمل في المنظر صامتين بعد وقت لم يعرفا مقداره أفاق على صوت داليا وهي تقول بدلال:

"قل لي أيها الولد الشقي: ما اسمك؟"

"طارق."

"طارق ماذا؟"

"طارق جميل."

وما هي حكايتك؟ من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟"

ماذا يقول لها؟ كيف يرد على سؤالها؟ هل يخبرها الحقيقة؟ ماذا سيكون رد فعلها على ذلك؟ استمر ينظر في عينيها الجميلتين وهو لا يكاد يتخيل ما

يمكن أن تعكسه هاتين العينين لو أجاب سؤالها بصدق. ارتشف جرعة من كأسه وقال:

"استشاري."

سألته في إصرار:

"استشاري في ماذا؟"

"في الكمبيوتر."

"يبدو عملاً مملاً."

"هو كذلك فعلاً."

"ومن أين أنت؟ من أين أتيت؟"

"من كل مكان. عشت في أوروبا السنوات الخمس الأخيرة."

أبرقت عيناها وهي تسأل:

"حقاً؟ في أي مكان في أوروبا؟"

"مدريد. باريس. برلين. أي مكان يخطر على بالك. إلا أن مقر شركتي هو بروكسيل."

"آه. أنا أحب باريس، خصوصاً في الربيع."

قالت ذلك متجاهلة أي حديث عن العمل ما أسعده ذلك. ثم أضافت:

"الجو منعش وجميل. الزهور متفتحة والشوارع غاصة بالمحبين أزواجاً أزواجاً."

قال طارق ما بين رشفات البيرة وأنفاس السيجارة:

"هل نشأتِ هناك؟"

أجابته وهي تنفث الدخان الأزرق:

"لا. في الأردن. لكنني مضيفة في شركة الطيران البريطانية، لذلك فأنا

أتردد كثيراً على باريس."

"يبدو أن عملك مسلٍّ."

قالت بكآبة:

"يمكن أن يكون كذلك."

"لكن؟ ..."

"لكن من الصعب أن تكون لك حياتك الخاصة وأنت تقوم بعمل كهذا."

"ماذا تقصدين؟"

"أقصد أنهم عندما يعرضون عليك الوظيفة يعدونك وعوداً مغرية تبهر بصرك وتدير رأسك، كل شركات الطيران وليست الشركة البريطانية فقط. سفريات مجانية... تشاهد العالم، تذهب إلى أي مكان تتمنى أن تزوره، وكل هذه المغريات... لكن الحقيقة هي أنك تعمل طوال الوقت وفي ساعات وأوقات غريبة وشاذة. تعيش طوال الوقت في حقيبة سفر. حين تستيقظ في الصباح لا تعرف أين أنت وتحتار من أي مكان تتصل ببيتك وأهلك ووطنك. ومن الصعب أن تجد لك أصدقاء إلا زملاء العمل. وإذا وقعت في حب أحد الطيارين تجدهم كلهم متزوجين، وإن أحببت أحد المضيفين تكتشف أنهم جميعاً تافهين، أغلبهم هكذا. أترى؟ مشاكل كثيرة من هذا النوع. لكن في النهاية دخل هذا النوع من الأعمال يوفر لك ما تقدر أن تسدد به ديونك بسهولة."

قالت ذلك وهزت رأسها وسحبت نفساً آخر من سيجارتها. نظر إليها طارق باهتمام ثم سألها:

"وماذا عن دينا وميرفت؟ أنتن صديقات. أليس كذلك؟"

"ليس تماماً."

"ماذا تعنين؟"

"لا تسئ فهمي. هما فتاتان رائعتان. وأنا مستعدة أن أفعل أي شيء لهما

في سبيل علاقتنا معاً. وهما أيضاً يصنعان أي شيء لي. لكننا تعرفنا إلى بعض من مدة وجيزة. نحن نتشارك في السكن في شقة واحدة هنا لأنه ولا واحدة منا تستطيع أن تتحمل دفع الإيجار بمفردها... ثم هما تعملان في شركة إيرفرانس ما يجعلنا لا نرى بعضنا كثيراً، فكل منا لها أوقات عمل مختلفة. وقد تم نقلهما إلى نيويورك ما لن يتيح لي أن أراهما بعد ذلك."

"هذا شيء سيئ."

"هكذا الحياة... لا راحة للأشقياء."

قالت ذلك وهي تبتسم بمرارة، فبادرها طارق بالسؤال:

"فلماذا لا تبحثين عن عمل آخر؟"

"أي عمل؟ في الكمبيوتر مثلك؟"

"لم لا. هذا أيضاً يوفر إمكانية سد الديون."

"هل تحب عملك هذا؟"

"لا بأس به. هذا العمل يناسبني ويتفق مع طبيعتي الانعزالية كما اكتشفتِ فيّ. بالنسبة إلى واحدة مثلك، لا أعرف... تحتاجين إلى ما هو أكثر."

"ماذا تقصد بكلامك هذا؟"

"أقصد أنك جميلة ورائعة... فيكِ جرأة وحيوية، لذلك تحتاجين إلى شيء أفضل."

حوّلت بصرها عن المدينة، ونظرت في عينيه، ومالت برأسها نحوه بمرح وخفة ودلال وهي تسأله بصوت هامس حالم ساخن:

"هل تراني جميلة؟"

"فما الذي أتى بي إلى هذا الحفل إذا لم تكوني كذلك؟"

قال طارق ذلك وألهب مشاعره الجو المحيط من حولهما وما تناوله من شراب واستنشقه من دخان... مال نحوها وقبّلها فجأة! تجاوبت معه وردت

قبلته بسرعة لم يكن يتوقعها. زأرت فوقهما طائرة كبيرة من طراز بوينج ٧٤٧ وأحدثت صوتاً عالياً وهي تقترب من مطار القاهرة الدولي. ولم تتوانَ داليا بل بادرت وعرضت عليه عرضاً لا يُرفض. قالت له وفمها على أذنه:

"ستغادر دينا وميرفت الحفل مباشرة إلى المطار وستكون الشقة لي وحدي. سأشعر بالوحدة وهذا قاتل بالنسبة إليَّ. أكره الوحدة ولا أطيقها."

أحس طارق بدرجة حرارته ترتفع بشكل مفاجئ. ما يسمعه لا يمكن أن يحدث هكذا بسرعة. تاهت الكلمات منه ولم ينبس بكلمة للحظة فعاودت كلامها بهمس يحمل إغراء لم يواجه مثله من قبل:

"هل تقبل أن تلحق بي؟ هل تأتي؟ هل تحب أن تأتي إلى شقتي؟"

طبعاً يحب. لا يحب شيئاً أفضل من صحبتها، لكن قفز في ذهنه مانعان جعلاه يتردد. صورة رانيا والجرح الذي في كتفه. بسرعة طرد المانعان معاً. رانيا انتهت. أنهت كل علاقتها به وأوضحت ذلك له بجلاء في آخر لقاء له معها. من حقه الآن أن يمتّع نفسه كما يشاء. المانع الثاني أقوى وأعنف ويحتاج إلى عذر يبرر به إصابته بذلك الجرح. حادثة من أي نوع أصابته. لن يعجز عن العثور على تبرير يبعد عنه أي ظنون. لا شيء يجب أن يعوقه عن أن يقضي وقتاً مع فتاة فاتنة ترغب في صحبته، فأجاب قائلاً:

" أحب؟ أحب وأرغب وأتمنى طبعاً!"

أحسّ بمفتاح صغير ينزلق إلى راحة يده. ضم أصابعه عليه. جاءه صوتها هامساً:

"مفتاح غرفتي بشقة رقم ٩٠١. ابقَ قليلاً هنا واختلط بالموجودين وحدك، ثم اتبعني خلال عشر دقائق. غرفتي في الخلف. ثالث غرفة جهة اليسار. سأترك الباب الأمامي غير مغلق."

الفصل الخامس والعشرون

كان مقر شركة عقاد وشركاهم في مبنى إداري صغير بالقرب من الجامعة الأمريكية في بيروت. شكل المكان وطريقة تأثيثه يكشفان عن شخصية مؤسسه وصاحبه والعمل الذي يقوم به. ما إن تدخله حتى تحس بغموض. هدوء وسكون يغطي أسراراً ومفاجآت خفية. كل ما فيه يوحي بالسرية، والترقّب، والتحفّز، وعدم الوضوح تماماً مثل مروان عقاد. كانت هذه هي الزيارة الثانية لجودار، وأحسّ بالإحساس نفسه في المرة الأولى وهو يدخل المكتب. على الباب لوحة تحمل اسم الشركة فقط من دون رسم لشعار، أو علامة، أو رمز، ولا رقم لموقع إلكتروني على الانترنت، ولا تحديد لطبيعة عمل الشركة. الاسم مجرداً. الأثاث في قاعة الانتظار اختير بذوق راق وغال. ليس على المناضد الأنيقة المصنوعة من الخشب الثمين والطراز التقليدي القديم بألوانه ونقوشه، ليس عليها أية نشرات عن نوع الأعمال التي يقوم بها المكتب ولا تفاصيلها. لا صور على الجدران أو لوحات وعلامات تظهر ما الذي يجعل أصحاب الأموال والأعمال يغدقون الملايين على هذا المكتب وصاحبه، لا شيء يوحي بطبيعة ما يتم هنا من أنشطة غامضة على درجة كبيرة من السرية. كل ما يظهر خطورة عمل الشركة هو كثافة وقوة النوافذ الجانبية التي لا يؤثر فيها طلقات الرصاص، وكذلك الكاميرات المعلقة والمتناثرة في طرقات المكتب وغرفه ما يوحي بأهمية الأعمال التي يقوم بها أصحاب الشركة والعاملين في مكاتبها.

على الرغم من كل هذه الاحتياطات والتحفظات الدقيقة لحماية وصيانة خصوصيات أسرار أعمال مروان ورامي عقاد، فإن نقطة الضعف في ذلك كله كان "ياسمين زيتون".

اقترب جودار من مكتب ياسمين زيتون موظفة الاستقبال وقال لها مبتسماً في صداقة:

"صباح الخير يا آنسة ياسمين. يسعدني أن أراك مرة ثانية."

فتحت ياسمين عينيها على اتساعهما وابتسمت ابتسامة كبيرة كشفت عن صفين من أسنان لؤلؤية بيضاء مرحبة وكأن هذا الرجل الذي يميل إلى مكتبها أهم عميل في الشركة. وبالغت الفتاة الصغيرة الجميلة – حديثة التخرّج من الجامعة – في الترحيب به كما لو كان أحد نجوم المجتمع الراقي الذي تنجذب إليه الفتيات الصغيرات.

"أهلاً بك يا مسيو جودار. أي خدمة. أنا تحت أمرك."

قال جودار بلطف ونعومة يجيدها عند التعامل مع النساء:

"أنا في طريقي للرجوع إلى بلدي، لكنني أردت أن أمر عليك مرة أخرى قبل سفري وأسألك عما إذا كان مروان عقاد أو أحد شركائه قد جاء اليوم إلى الشركة."

قالت باعتذار وهي تبتسم:

"آسفة جداً. لا أحد. المكتب أمامك هادئ جداً. لا عمل."

"حسناً. أرجو ألا يكون مجيئي مرة أخرى قد ضايقك."

"لا. أبداً. تسرني رؤيتك."

"لا يزال رقم التليفون الخاص بي معك. أليس كذلك؟"

"نعم."

وأشارت إلى بطاقته الموضوعة على مكتبها وقالت بابتسام:

"وسوف أطلب من أول الحاضرين من المسؤولين الاتصال بك فوراً."

تظاهر بأنه قرر الخروج ثم قال كأنه تذكر شيئاً جديداً:

"شكراً لك. الحقيقة أنك لطيفة جداً. آه، نعم. هناك شيء آخر."

"ما هو؟"

"صديقة مروان التي في باريس. أريد أن أقابلها وأتحدث معها قليلاً. مجرد إجراء روتيني بسيط. هل لديك رقم تليفونها لأتصل بها؟"

قالت ببساطة وبراءة:

"رانيا؟ لا بد أنك تقصد رانيا فواز. هي ليست صديقته. كانت جارته. لذلك كان لطيفاً معها فقط. صداقة عادية لا أكثر."

وكمفتش مباحث محنك أحس بالسمكة الصغيرة تقترب من الطعم. نظر إليها بتمعّن وقال ببطء:

"كان؟!"

وابتلعت الطعم. ثم قالت في تأكيد وهي تهمس كأنها تكشف عن سر خطير. ومع أنه لم يكن أحد هناك بالمكتب غيرهما تلفتت بحذر حولها ثم همست:

"نعم. هناك إشاعات تقول أنه عرض عليها الزواج الصيف الماضي ولكنها رفضته ثم ابتعدت عنه واختفت."

جاراها جودار في همسها واهتمامها:

"اختفت؟"

"هذا ما سمعت."

وبدا الحزن على وجهها وهي تضيف:

"لا بد من أن ذلك قد حطم قلب مسيو مروان. وأنا حزينة جداً لذلك. فهو

رجل لطيف جداً."

عشر دقائق فقط وكان جودار في سيارته مسرعاً إلى المطار لا يكاد يصبر حتى يتصل بالشبح مارسيل لوميه ويبلغه بما وصل إليه من معلومات ذات قيمة كبيرة.

قال جودار وهو يتحدث مع لوميه تليفونياً لاهثاً بحماس:

"اسمها رانيا فواز في الرابعة والعشرين من عمرها. تعمل ممرضة. نشأت هنا ثم انتقلت مع أسرتها إلى باريس منذ عشر سنوات، إلا أنها انتقلت إلى الدار البيضاء في مايو الماضي."

جاءه صوت لوميه عبر الهاتف:

"هل هذا صحيح أم أنك تمزح؟"

"صحيح تماماً."

"وهل هي في الرباط؟"

قال جودار:

"طلبت من دوڤال أن تبحث في ذلك حالاً."

وقال لوميه بلهجة تبدو فيها رنة الفرحة لأول مرة منذ أيام عديدة:

"أنت رجل عظيم يا جودار. مفتش ذكي محنّك."

الفصل السادس والعشرون

"وهل كانت إصابة السائق الآخر شديدة مثل إصابتك هذه؟"

لم يجب طارق على سؤال داليا، وتظاهر بأنه مستغرق في النوم. أعادت السؤال لكنها لم تتلقّ جواباً لبضعة دقائق، ثم فتح عينيه على أشعة شمس الصباح الذهبية وهي تنفذ من خلال الستائر. استمر الصمت وطارق يفكّر في الإجابة. إنه متعوّد أن يكذب. لا يضايقه ذلك بل بالعكس؛ كثيراً ما ينقذه الكذب من المواقف المحرجة. لكنه لسبب ما، وجد نفسه متردّداً هذه المرة. في ذلك اليوم، ومع هذه الفتاة، لم تكن لديه الرغبة في الكذب. شعر بخجل أن يكذب عليها. لا يعرف سبب ذلك. لم يتصوّر سبباً ما، يمنعه من ذلك والاستمرار في خداعها. أخيراً، أجاب بصوت طبيعي لا انفعال فيه:

"نعم، تقرير الشرطة يؤكد أنه كان مخموراً. شرب الكثير من الخمر في حفلة كان يحضرها. خرج وقاد سيارته بسرعة من دون أن ينتبه. هوووپ... صدمني. لم أستطع أن أراه أو أتفادى الصدمة."

كانت داليا تسمع وهي مرتعبة ثم علقت قائلة:

"كان يمكن أن تُقتل في الحادث. تموت!"

تردّد طارق أكثر وهو يتمادى في كذبه ثم قال مدعياً الألم والأسى:

"لا أحب أن أفكر في ذلك."

وقف وبدأ يرتدي ملابسه وهي تسأله:

"لا تحب أن تفكر في الحادثة، أم في الموت؟!"

"في الاثنين!"

هزّت رأسها في إدراك وقالت:

"هذا سبب الكابوس إذاً!"

"كابوس؟! أي كابوس؟!"

هزّت رأسها وسألته باهتمام:

"ألا تتذكّر؟"

"لا أتذكّر شيئاً." استمرّ يكذب. لم يتوقّف... كل كذبة تتبعها كذبة. قال ببطء وقد ثارت في داخله هواجس! كابوس؟! كان يحلم بصوت عال؟! ماذا قال في نومه؟! وهل ما قاله يفضح حقيقته؟!

فتحت داليا عينيها وهي تقول مفكّرة ومذكّرة إياه بما حدث:

"كنت تصرّ على أسنانك، وتضغط على أضراسك بشدة، وتتلوّى وأنت نائم، وتتحرّك وتتقلّب على السرير، وتغمغم بكلام غير مفهوم."

سألها باهتمام وقلق:

"كلام؟ أي كلام؟"

"كلام كثير لم أفهم منه إلا القليل مثل: لا. أبداً. انتظر. أنا لم أخطئ. لا شأن لي بذلك، لم أسمع كل شيء، فقد كنت نصف نائمة."

"وماذا حدث بعد ذلك مني؟"

"لم يحدث شيء. توقّفت عن الكلام ثم استدرتَ وغبتَ في النوم. ألا تذكر شيئاً من ذلك؟"

يذكر طبعاً. يذكر ما رآه في الحلم لكنه لن يحدّثها بشيء منه. فرصته للنجاة الآن هو أن يحيا حياة مزدوجة. لا مجال أمامه لأي خطأ قد يجر عليه متاعب جديدة. مال نحوها معتذراً ثم قبّلها مبتسماً وقال:

"آسف جداً. لا أتذكر شيئاً. والآن. اسمعي. أريد أن أسألك..."

حوّلت كل وجهها نحوه وهي تقول برقّة:

"نعم."

"متى ستعودين إلى عملك. ما موعد رحلتك القادمة؟"

"الاثنين القادم."

"معنى هذا أنك غير مرتبطة بشيء اليومين القادمين؟"

"كنت أنوي الذهاب إلى الإسكندرية لزيارة هناك."

"زيارة صديق أو صديقة؟"

ابتسمت وهي تقول:

"صديقة."

قال بسرعة وحزم:

"إلغي هذه الزيارة."

"لماذا؟"

"تعالي نقضي إجازة نهاية هذا الأسبوع معاً."

"نقضي الإجازة معاً؟ أين؟ وماذا نعمل؟"

قال بحماس وسعادة:

"لا أعرف. تعالي نتناول إفطارنا في الشيراتون، أو في أي فندق قريب من هنا، ونفكّر في شيء معاً. أنا على استعداد أن أعمل أي شيء ترغبين فيه."

وجّهت بصرها نحوه بنظرات شك وهي تضغط على الكلمات:

"أي شيء؟"

"أي شيء." قالها مؤكداً.

قال طارق ذلك وهو يتمنى في داخله أن تقبل قضاء عطلة نهاية الأسبوع معه. كان يعرف مخاطر بدء علاقة جديدة في ذلك الوقت بالذات، لكنه في

الوقت نفسه كان واثقاً من قدراته على مواجهة أية مشاكل تنجم عن ذلك. كما أنه كان لا يريد أن يرجع إلى شقته الحقيرة الكئيبة ويقضي الوقت وسط التراب والقذارة والظلام وحده. داليا جميلة! جميلة جداً! كلها حيوية ونشاط وممتلئة بالحياة والشباب! حديثها شيّق ومصاحبتها ممتعة! وطوال الوقت الذي قضاه معها لم ترد إلى ذهنه صور رانيا ولا جودار ولا لومييه، كانوا مُستبعَدين تماماً عن ذاكرته. قالت له فجأة وبمرح:

"وهو كذلك يا طارق جميل. نحن معاً. تعال نعمل كما يعمل السائحون."

على الرغم من أن داليا قضت في القاهرة ما يقرب من عام كامل، إلا أنها لم تجد الوقت لترى المدينة، وكذلك طارق جاء مرات عديدة إلى القاهرة بصحبة رئيس الوزراء اللبناني، لكنه أيضاً لم يتعرّف على المدينة. بعد أن تناولا إفطاراً جيداً في الشيراتون، أخذا سيارة أجرة إلى خان الخليلي ليقضيا الصباح كله يتجوّلان فيه كعروسين حديثي الزواج يقضيان شهر العسل. تمشيا في أزقة الخان الضيقة المعرجة، وقد تصاعدت من كل ركن الروائح العطرية المختلفة. أخذا يستعرضان المحلات الممتلئة بالمجوهرات والتحف الشرقية التي تخلب البصر وتشبع النظر. تناولا الشاي الأخضر والقهوة التركية في مقهى نجيب محفوظ الذي في وسط السوق.

انتقلا إلى كشك صغير مغطّى بقماش عليه رسوم شرقية ملونة تجعله يبدو مثل خيمة من خيام البدو ما أضفى عليهما جواً رومانسياً. جلسا متقاربين متلاصقين وهما يرتشفان القهوة والمرطبات. دفنت داليا رأسها في صدره وهي تسأله:

"هل قرأت روايات نجيب محفوظ؟"

قال وهو يأكل قطعة من البقلاوة بتلذّذ:

"واحدة فقط. أظن اسمها يوم موت الزعيم أو يوم قتل الزعيم."

"هذه رواية حزينة جداً."

"أليست كل روايات نجيب محفوظ حزينة؟"

"أبداً. رواياته متنوعة متعددة. تُصوِّر الجو المصري الصميم في الأحياء العريقة للقاهرة. مثل قصر الشوق، وزقاق المدن، وخان الخليلي، وبداية ونهاية، والحرافيش، وغير ذلك. أجمل ما كُتب عن القاهرة."

"هو كاتب كبير عالمي. حصل على جائزة نوبل."

قالت بحماس وانبهار:

"كتب في كل المواضيع. أنا أحب ما كتبه عن الحب. أذكر بعض كلماته في ذلك. لا النص نفسه، لكن المعنى نفسه. كتب يقول: جذبت حبيبتي صنارتها وأخرجتها من الماء. كانت خالية لكن خطافها طار حول رأسينا وسقط على إصبعي ومزّق إبهامي تاركاً عليه علامة لا تُمحى ما زالت ظاهرة عليه حتى اليوم. على ضفاف النيل أمام بيتنا قلت لها إنها ليست ماهرة في صيد السمك، لكنها بارعة في اصطياد الرجال. اصطادتني وخطافها أدمى قلبي! هل ترى بلاغة وجمال التخيّل؟"

كان يستمع إليها بشغف ثم قال:

"مدهش."

قالت له داليا في صوت حالم:

"جعلني أبي أتعلّق بنجيب محفوظ. ربطني بخطافه. أُعذر التورية. وأنا بعد صغيرة، كان يقرأ عليّ قصصه كل ليلة قبل أن آوي إلى فراشي. فصلاً كل مساء على الأقل. وأحياناً أكثر إذا رآني منسجمة معه. ولكن بعد أن كبرت كنت أقرأ رواياته وحدي."

"كل رواياته؟"

"لم أقرأ كل ما كتب، لكنني قرأت كل قصصه القصيرة ورواياته. لم أقرأ كل المسرحيات. هو مثل الساحر الذي يخطفك من عالمك إلى عالم رائع آخر. كان تأثيره فيَّ كبيراً حتى أنني فكرت حين أكبر أن أكون كاتبة مثله."

كان طارق يتابع كلامها باهتمام وإعجاب. ثم أضافت قائلة:

"حتى جاء يوم الاعتداء عليه من ذلك المخبول المسعور الذي هاجمه بمطواته. أتذكر ذلك اليوم وأين كنت حين سمعت بذلك الخبر المشؤوم؟"

هزّ طارق رأسه وقال:

"أتتذكرين ذلك حقاً؟ هذا كان من وقت طويل عام ١٩٩٥ أو ٩٦، أليس كذلك؟"

قالت داليا بسرعة:

"١٤ أكتوبر ١٩٩٤."

"ياه! أنتِ فعلاً تذكرين التاريخ تماماً!"

قال ذلك وهو يعتدل في جلسته. مدّت داليا يدها، وتناولت فنجان القهوة، وأخذت تنظر إليه وهي تقول وقد عاودتها الذكريات الأليمة:

"كان ذلك يوم عيد ميلادي الثالث عشر. ما إن دخلت البيت بعد عودتي من المدرسة حتى أخبرتني أمي بما حدث. لم أصدّق الخبر لأول وهلة، فاتصلت بوالدي تليفونياً أسأله، وأكّد لي الفاجعة. جريت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي، وبدأت أبكي ولم أتوقف عن البكاء، ولم أخرج من الغرفة إلا في اليوم التالي. في ذلك الوقت لم أكن قد واجهت تجربة موت أحد ممن كنت أحبهم قبلاً. كنت كأنني قد فقدت جدي أو والدي. لا أعرف لماذا حزنت عليه إلى هذه الدرجة. إلا أنني بعد ذلك عرفت أنه نجا من الموت، وأسعدني ذلك جداً، وأراحني كما لو كان حملاً ثقيلاً قد رُفع عن قلبي ثم عدت إلى البكاء بعد ذلك. هذه المرة بكيت فرحةً وتمنيت وصليت أن يستطيع معاودة الكتابة مرة أخرى. وعاد يكتب والحمد لله. هل مررتَ بشعور مثل هذا يا طارق؟ هل فقدت أحداً قريباً جداً منك هكذا؟ هل حدث لك شيء من هذا القبيل يا طارق؟"

نظر إليها طارق ملياً بكل عينيه، وكاد أن يندفع بغريزته ليكذب مرة أخرى عليها. كان يريد أن تبقى بعيدة عنه. لم يكن يحب أن يسمح لها أن تقترب منه أكثر، وتكسر قلبه، وتؤذي مشاعره كما حدث له من رانيا. لم يرغب في أن

تنمو علاقته بها وتشتدّ حتى يكشف لها عن مكنون قلبه وحقيقة نفسه. على الرغم من ذلك، إذا بقلبه يدفعه لأن يقول عكس ذلك تماماً.

هما بالكاد يعرفان بعضهما بعضاً. ما زالا في أول الطريق ولم يلتقيا إلا منذ أقل من أربع وعشرين ساعة، لكنه وجد نفسه يقول لها بصدق ويكشف لها عن بعض حقيقته:

"والديّ، أبي وأمي، ماتا وأنا في الرابعة عشرة من عمري. قُتلا من قنبلة في سيارة مفخخة. ماتا أمام عينيّ أنا وأخي الصغير. كنا في طريقنا في إلى اللحاق بهما، لو كنا وصلنا إليهما قبل ثوان معدودة، وبضعة أمتار قليلة، لكنا قُتلنا معهما."

شهقت داليا مصدومة مما سمعت ثم قالت مرتبكة متألمة:

"آسفة! لم أقصد... لم أعرف..."

"لا بأس. لا شيء. هذا حدث من وقت بعيد."

"أنا آسفة. آسفة جداً!"

خيّم على المكان الهادئ صمت رهيب ثم قالت داليا:

"مرّت بك أوقات صعبة. رأيت الموت كثيراً يا طارق. أليس كذلك؟"

لم يقل كلمة ولم يومئ برأسه أو يعلق بشيء. لم يستطع أن يصنع شيئاً. مدت داليا يدها ولمست يده. أحسّ برغبة في الخروج والابتعاد. لا يحب أن يشفق عليه أحد. طوال حياته يكره نظرات الرثاء. لكنه في الوقت نفسه لم يكن يريد أن يجرح مشاعر هذه الفتاة الرقيقة. كان ملمس يدها ناعماً ودافئاً ينبض بتعاطف وحنان صادق وجميل؛ لا يتذكر أنه قد سبق أن وجد من يهتم بعواطفه، ويتجاوب مع أحاسيسه، ويظهر عطفاً نحوه بهذا الشكل. قال بعد قليل:

"لعله من الأفضل أن نذهب إلى مكان آخر."

"نعم. تعال نفعل شيئاً آخر."

وقاما وتركا المكان.

الفصل السابع والعشرون

بعد ساعة، كانا يسيران جنباً إلى جنب، وقد تشابكت أيديهما في ممرات المتحف المصري. أمامهما حضارة أربعة آلاف سنة يريدان أن يستوعبانها في ثلاث أو أربع ساعات فقط بمساعدة كتيِّب توضيحي في يد داليا، اشترته من كشك هدايا بجوار المتحف. كانت تقرأ نبذات منه بصوت عال.

بينما هما يتطلعان باهتمام وإعجاب إلى المعروضات ويتحركان بين تماثيل الفراعنة والآلهة القدماء المنتشرة في جنبات المتحف، وهما يمرّان وسط كنوز أمنحوتب الثالث، والملكة تيرا، ونفرت، والأمير راحوتب، قالت داليا:

"كم تتصوّر ما يوجد في المتحف من منحوتات وآثار صنعها الفنان المصري القديم ببراعة واقتدار؟"

أجابها طارق متحيراً:

"ليست لديّ أدنى فكرة."

لم يكن من الذين يهتمون بارتياد المتاحف أو جمع المعلومات عنها، لكنه جاء ليكون مع داليا التي أظهرت شوقها لزيارة ذلك المتحف الكبير.

"خمّن يا أخي."

"مليون؟"

"لا تمزح. فكّر كم تتخيّل عدد المعروضات هنا؟"

"نصف مليون؟"

"هنا ١٢٠,٠٠٠ قطعة معروضة، وهناك ١٥٠,٠٠٠ قطعة أخرى في المخزن تحت الأرض."

نظر إليها بعينين مازحتين وهو يضحك ساخراً:

"فقط؟ وتقولين إنه متحف؟ يا للسخرية!"

ضربته على ظهره ودفعت ضلوعه بيدها وهي تقول ضاحكة:

"أنت مهرج. كان لا بد أن تكون ممثلاً هزلياً."

ابتعد عن متناول يدها وهو يتراجع قائلاً وهو يضحك:

"عندك حق. التمثيل الهزلي أفضل بكثير من العمل بالكمبيوتر. فعلاً كان يجب أن أكون ممثلاً هزلياً مثل شارلي شابلن أو عادل إمام."

جذبته من يده خلفها وهي تتقدم وتقول:

"تعال. تعال نشاهد كنوز الملك توت عنخ آمون."

صعدا إلى الدور الثاني مستخدمين السلم ودخلا معرض الملك توت عنخ آمون.

بدآ بمشاهدة التمثالين الكبيرين بالحجم الطبيعي للملك توت باللونين الأسود والذهبي، اللذين كانا يحرسان مقبرته في وادي الملوك بالأقصر. ثم دلفا إلى قاعات العرض الزجاجية التي تحتوي على صناديق الدفن الرقيقة، والمنقوشة بالذهب الخالص، والتي اكتشفها عالم الآثار البريطاني هاورد كارتر عام ١٩٢٠، والتي لا تزال تحتفظ بألوانها ونقوشها سليمة جميلة لم تفقد روعتها.

أمسكت داليا يده وهي تقول:

"أنظر. مدهش! داخل هذا الصندوق الكبير يوجد صندوق أصغر، وداخل ذلك الصندوق يوجد آخر أصغر منه وهكذا."

ثم دخلا القاعة الثالثة، قاعة خاصة... الضوء فيها خافت ومكيّفة بدرجة حرارة معينة معدة لجولة قصيرة. جذبته قائلة وهي تهمس:

"أنظر داخل كل تلك الصناديق. يوجد التابوت الذهبي الذي يحتوي على تابوت مصنوع من الخشب والذهب، وفي داخله آخر أصغر منه، وآخر أصغر

حتى التابوت الذي كان الملك توت عنخ آمون يرقد فيه خلف القناع الذهبي. كل شيء من الذهب الخالص."

وتوقفا أمام صندوق زجاجي مضاء من الداخل محاط بعدد من حراس المتحف المتيقظين المسلحين، به أروع ما شاهده طارق من تحف أبدعتها يد فنان عبقري. جحظت عيناه وهمس يسأل:

"أهذا حقيقي؟ أكاد لا أصدق عينيّ."

أجابته داليا بفخر:

"حقيقي تماماًً. أنظر إلى الألوان. تأمل الصناعة. شيء يفوق العقل."

كانت على حق. هو شيء فوق العقل. القناع المصنوع من الذهب الخالص النقي بالحجم الطبيعي... الذهب مصقول يلمع ويخطف البصر مطعّم وملوّن بألوان زرقاء، وصفراء، وحمراء، رائعة ومذهلة. لوحة الملك الفتي الذي حكم نهر النيل وكل من عاش على ضفتيه وحوله. في جوار ذلك كانت هناك صناديق أخرى زجاجية حول القناع تحتوي على أشياء نفيسة وُجدت مدفونة مع الملك توت عنخ آمون."

جالت داليا بنظرها في تلك الكنوز وسألت طارق:

"هل يمكنك أن تتصوّر أن تدفن معك ثروة بهذا الحجم على اعتبار أنك سوف تستخدمها في حياتك الأخرى بعد الموت؟"

قال طارق وهو مأخوذ بما يرى:

"عندك كل الحق. شيء غريب."

ثم أكملت بعد صمت:

"لكن الملوك الفراعنة والمصريين القدماء آمنوا بالحياة الأخرى بعد الموت. خذ مثلاً المعابد والأهرامات. لقد بنوا الأهرامات لتُحفظ أجسادهم وثرواتهم للحياة الأخرى، للسماء.. ثروات هائلة يتمتعون بها بعد عودة الروح إلى الجسد،

وقيامهم من الموت ليحيوا من جديد ومن حولهم كل ما كانوا يتمتعون به في الحياة الأولى."

اقترب أحد الحراس، وطلب منهما الهدوء في ذلك المكان، حيث يجب الخشوع فيه والصمت احتراماً له. قررا الخروج من القاعة رقم ثلاثة والتقدم لاستكمال زيارة المتحف، لكنهما وجدا نفسيهما ينتقلان من قاعة إلى أخرى تحتوي على المزيد من الكنوز التي أصرّ الملك توت على دفنها معه. الرماح والسهام التي تُستخدم في الحرب، وما كان يلعب به من أدوات التسلية، والمراوح الذهبية التي كان يستخدمها ليخفف عن نفسه حدة الحرّ الخانق في الصيف، وكرسي العرش الذي كان يجلس عليه ليحكم إمبراطوريته العظيمة.

بعد ما يقرب من نصف الساعة، دفعا رسماً آخر لدخول حجرة المومياء. أول مومياء شاهداها كانت للملك رمسيس الثاني. ما إن شاهدها طارق حتى تذكر رفيق رمزي الذي كانت زوجته تطلق عليه لقب فرعون. ما لا شك فيه أن جثته لا تزال محفوظة في إحدى الثلاجات في مونت كارلو. اقتربا من زجاج الصندوق الذي يضم المومياء، وتأملا الوجه الأسود الذي في لون طمي نيل مصر، والأصابع النحيلة بعظامها البارزة، والقماش الكتاني الداكن الذي يلف جسد ذلك الفرعون المصري العظيم.

تلفّت طارق ليرى إن كان هناك من يستطيع أن يسمعهما، ثم همس منادياً:

"داليا."

"ماذا؟"

"هل تؤمنين بالسماء؟"

فوجئت بسؤاله وتحوّلت نحوه وعلى وجهها تعبير ساخر:

"طبعاً. وأنت؟ أتؤمن بها؟"

"أظن ذلك."

نظرت إليه باستخفاف وتعجّب وقالت في إنكار:

"تظن؟"

ارتبك من لهجتها ونظراتها وقال:

"لا... أؤمن... أنا فقط... لا أعرف... لا يهم."

اعتدلت فجأة ولاحظت ارتباكه وتغيّرت لهجتها وهمست في أذنه:

"آسفة. ما كان يجب أن آتي بك إلى هنا. هنا مهرجان للموت. كل ما من حولنا موت. آسفة."

"أبداً. أبداً. الموضوع ليس هكذا. أنا بخير. أنا لم أقصد شيئاً... فقط..."

"ماذا؟ فقط ماذا؟"

"لا شيء."

"لا. لا. قل لي ماذا هناك؟"

"هل يمكن أن نذهب من هنا؟"

"قل لي."

"لا شيء. صدقيني لا شيء هناك."

نظرت إليه بعينين مملوءتين بالرقة، والعطف، والشفقة، وقالت بإخلاص:

"أنت تفكّر في حادثة السيارة التي صدمتك. تفكر في كم كنت قريباً من الموت."

تشاغل بالنظر بعيداً وهو يقول:

"شيء من هذا القبيل."

كان يتمنّى لو استطاع أن يخبرها بكل شيء.

اقتربت منه، وأمسكت يده بكل يدها، واحتضنتها داخل كفها الساخن، واقتربت بأنفاسها من وجهه وهي تهمس في أذنه:

"دعني أقول لك شيئاً يا طارق جميل. أنت رجل طيب. رجل صالح. والله يقبل الناس الطيبين الصالحين في السماء. هذا ما تحتاج أن تعرفه الآن."

كان يدرك طريقة تفكير داليا، ويعرف أنها كانت تريد أن تكون لطيفة معه، لكنها لم تكن تتصوّر مقدار الخوف الذي ملأ قلبه بسبب كلماتها تلك. فإن كان ما قالته صحيحاً، وأن الله يقبل الناس الصالحين فقط في السماء، فهو يعرف جيداً أن مصيره ليس هناك أبداً. مصيره في جهنم وبئس المصير.

هو ليس رجلاً صالحاً. هذه حقيقة بسيطة ومخيفة في الوقت نفسه. هو مذنب، ومتهم أمام جودار ولوميه، وليس لديه ما يمكن أن يبرّئ نفسه أمام أية محكمة، هذا إن اضطر للمثول أمام كرسي العدالة. ثم ماذا عن عدالة السماء؟ ألن تقضي بأنه خاطئ مذنب؟ كاذب يتعاطى المخدرات؟ وزانٍ أيضاً؟ هو مجرم يدنّس بأعماله ذكرى والديه؟ خصوصاً أمه التي كانت تتمنى وتترجى أن يعيش حياة أفضل وأصلح وأطهر؟ كلما فكّر في ذلك، كلما زادت قائمة خطاياه، وذنوبه، وآثامه، وازداد اكتئاباً وحزناً.

الفصل الثامن والعشرون

علا صوت جرس التليفون الهوائي، وأجابه المفتش جودار بعد أول رنة له. كان يقف ضمن صف المسافرين في مطار بيروت لشراء تذكرة طائرة تحمله إلى المغرب قبل نهاية اليوم. سأل المتحدث:

"كوليت. هل وصلتِ إلى خيط يقودنا إلى رانيا فواز؟ أي خيط؟ رقم تليفون، أو عنوان، أو أي شيء نمسك به ونتوجّه منه إليها؟"

جاءه صوت دوڤال واضحاً:

"وجدت الاثنين. رقم التليفون والعنوان."

ارتفع صوت جودار حتى كاد يلفت نظر الواقفين من حوله:

"صحيح؟ هي في الرباط؟"

"لا. في الدار البيضاء."

"حقاً؟ أين؟"

وأخرج جودار مذكرته من جيبه ليدون العنوان، ثم قال:

"وصورتها. هل حصلت على صورة لها؟"

"نعم. عندي صورتها."

أرسليها إليّ حالاً على هذا التليفون."

"سأفعل."

"عظيم. عظيم جداً يا كوليت. منتهى الكفاءة والذكاء. طبعاً لم تبلغي ذلك إلى شرطة المغرب بعد؟ أليس كذلك؟"

"لا تصوّرت أنك تفضل أن تصلك المعلومات أولاً."

"ممتازة. بارعة ورائعة. كيف وصلت إليها؟"

أجابته دوڤال وهي تتباهى بما قامت به:

"عن طريق شركة التليفونات. المشكلة كانت في الوصول إلى المدير الجريء المتعاون الذي يصدر الأمر بالبحث في السجلات. كان عليّ أن أخبرهم من أنا وأؤكد لهم هويتي وأقنعهم بأهمية المعلومات التي أسعى إليها. بعد ذلك كل شيء تم بسهولة."

مرة أخرى أخذ جودار يثني عليها ويظهر امتنانه لها وهو لا يكاد يصدق ما يسمعه من أخبار سارة مفاجئة وتوفيق جيد:

"عمل رائع. سأتصل بالشبح. في الوقت نفسه أريدك أن تبذلي كل ما تستطيعين من جهد لتجمعي أقصى ما يمكن من معلومات عن هذه الفتاة رانيا فواز. تابعي كل الاتصالات التليفونية التي أجرتها خلال الأيام الأخيرة. أين تعمل؟ ومن هم جيرانها؟ من يسكن معها؟ نوع السيارة التي تركبها؟ كل شيء. كل شيء. واحتفظي بتلك المعلومات بعيداً عن الشرطة المغربية على قدر الإمكان لبعض الوقت. أريد أن أتفادى أية تعقيدات ومصادمات مع السلطات القضائية والأمنية في المغرب.

****

بعد عشر دقائق كان لوميه قد استقبل الأخبار من جودار. ما إن أنهى المكالمة التليفونية وراجع النص الذي استلمه على شاشة تليفونه الهوائي حتى أخذ يفكر ويقول لنفسه: ها هو جان كلود جودار ومساعدته الشقراء قد وصلا إلى شيء له قيمة. عظيم!

ثم عاد يفكر فيما حصل عليه من معلومات. بدأت الأمور تتضح وتتكامل. مروان عقاد إما هو مختبئ الآن في شقة رانيا فواز وهذا احتمال كبير أو هي تعرف أين هو وتستطيع أن تقودنا إليه. على أي حال، عليه أن

يكون أول من يصل إليها. اندفع خارجاً من فندق هيلتون – الرباط وقفز في سيارته وأسرع عائداً إلى الدار البيضاء.

وصل لوميبه خارج البناية عند حلول الليل. وجد الحارس نائماً فصعد السلم إلى الدور السابع حتى لا يؤدي فتح باب المصعد وإغلاقه إلى إيقاظ أحد. كان كل شيء هادئاً في الدور السابع ولم يجد أحداً به حين وصل إليه وهو يلهث. سحب مسدسه ووضع عليه كاتماً للصوت وأخفاه في ملابسه بقرب يده. وجد رقم ٧٠١ على باب طرقه مرتين وجاءه صوت امرأة من الداخل:

"من هناك؟"

أخذ يفكر هل هذه رانيا فواز؟ وهل مروان عقاد بجوارها؟ كان يعرف أن مروان لم يسمع صوته من قبل، لكنه فكر أنه لا بد أن يكون في الداخل وقد شهر سلاحه على استعداد لأن يَقتل مرة أخرى بدلاً من أن يُقبض عليه. كان رجاله قد أبلغوه بعض المعلومات خلال الساعة الماضية لم يكن جودار قد وصل إليها بعد. رفع صوته قائلاً:

"لقد طلبتم تركيب طبق لقمر صناعي للتلفزيون. أليس كذلك؟"

جاءه صوت السيدة من الداخل:

"نعم. نعم. دقيقة واحدة."

سمع صوت مزلاج يُفتح، وسلسلة قفل ترفع، ورأى أمامه عبر الباب المفتوح وجه رانيا فواز. كان يعرف ملامحها جيداً من الصورة التي بعثها إليه جودار على شاشة تليفونه.

دفع لوميبه الباب وفتحه وأمسك بذراع رانيا وأدار جسدها بعنف ثم لفّ ذراعه حول عنقها ووضع مسدسه على جبهتها وهو يطلب منها بصوت عال بلهجة أمر وتهديد:

"أين مروان عقاد؟ قولي لي حالاً."

صرخت من الألم وهي تقول:

"أي... أنت تؤلمني وتكاد تكسر ذراعي."

لم يهتم لوميه بصراخها ولا ببكائها، وصاح بصوت عال ليملأ صوته المكان:

"لقد أمسكتُ بها يا مروان. أمسكتها. إن أردت أن تراها حية مرة أخرى ألقِ بسلاحك وتعال إلى هنا ببطء رافعاً ذراعيك."

قالت رانيا ووجهها يعكس ما تعانيه من ألم:

"هو ليس هنا. مروان ليس هنا."

"كاذبة. أنا لا أصدقك أبداً. كاذبة. تكذبين لتنقذي عشيقك."

"هو ليس عشيقي. لم يكن أبداً كذلك. وهو ليس هنا."

كان صوتها صادقاً ومقنعاً، لكن لوميه لم يكن مستعداً للمجازفة. وضع مسدسه على وجنتها وضغط بشدة وهو يجذبها معه ويتحرك داخل الشقة ويفتشها حجرة حجرة. في كل خزانة... تحت الأسرّة، وخلف الستائر، وفي كل ركن وزاوية خفية تخيلها تخفيه. ولما تأكد أن مروان ليس في الشقة ولا يتربص له ليقتله رفع مسدسه عن وجه رانيا.

بعد أن أنهى التفتيش الدقيق وأغلق الباب الأمامي وأقفله جيداً قالت له رانيا:

"قلت لك إنه ليس هنا."

اقترب منها لوميه بشراسة ولطم وجهها بشدة بمقبض مسدسه فسقطت على الأرض تبكي تحت قدميه والدم ينزف من شفتها وصرخ فيها:

"اخرسي. هو ليس هنا. لكنه كان هنا. أليس كذلك؟

كانت رانيا ترتجف من الخوف. رفعت إليه وجهها وقالت:

"من أنت؟ وماذا جئت تفعل هنا؟"

دار من حولها وخطا فوق جسدها وهو يصوّب مسدسه إلى رأسها ويقول في قسوة وتهديد:

"أنا الذي أوجّه الأسئلة لا أنت. ليس من حقك أن تسألي أي سؤال، وها أنا أكرر عليك السؤال مرة أخرى. هل كان مروان عقاد مقيماً معك هنا؟ وهل جاء إلى هذه الشقة؟"

أجابته بعد جهد وهي تسترد بعض قوتها:

"نعم. كان هنا."

"ماذا كان يريد منك؟"

"أراد أن يبقى هنا لكنني رفضت."

"ولماذا أراد أن يبقى هنا؟ لماذا لم يقم في فندق؟"

"كان مصاباً بجرح كبير وكان يحتاج إلى المساعدة."

"وأنت ساعدتيه؟ قدّمتِ له ما كان يحتاج إليه من مساعدة؟"

"أنا ممرضة."

"وهو يحبك. بينكما علاقة حب؟!"

لم تجب رانيا بكلمة. بقيت صامتة وقد أحنت رأسها. فاستمر يقول لها:

"لقد عرض عليك الزواج. ألم يعرض عليك الزواج في شهر مايو الماضي؟ ألم يفعل ذلك؟"

"نعم. فعل ذلك."

"فهو يحبك إذاً؟ مغرم بك؟!"

"أظن ذلك."

"وأنت ألست مغرمة به؟ ألم تحبيه؟"

"أنا رفضته. رفضت عرضه للزواج مني."

"هذا لا يعني أنك لم تحبيه. جاء إليك من دون غيرك. من بين كل الناس... لجأ إليك. أليس كذلك؟"

"نعم."

"لا بد من أنه كان يفكر أنك ما زلت تهتمين به وتحبينه. أليس كذلك؟"

"يمكن."

"في وقت الاحتياج والشدة جاء إليك. كان مصاباً بطلق ناري؟ أليس كذلك؟"

"نعم. هذا ما رأيته حين جاء."

"لكنك تخليت عنه وطردتيه خارج بيتك في البرد."

"لم أرد أن أدخل حياته."

"حياة قاتل."

شهقت رانيا قائلة:

"لم أقل ذلك."

"لا نحتاج منك لأن تقولي شيئاً."

"هو ليس قاتلاً. مروان رجل طيب."

"رجل طيب! لكن ليس مناسباً لأن تتزوجيه. أليس كذلك؟"

"نحن أصدقاء منذ طفولتنا وكنت مستعدة أن أعمل أي شيء لأجله."

"فلماذا لم تفعلي؟"

"أنا. أنا. أنا ساعدته. ساعدته على قدر ما استطعت."

"لكنك لم تقبلي أن يبقى هنا؟ لماذا؟"

"لا. لأني..."

"هل أعطيته مالاً؟"

"لا."

"هل ساعدتيه ليحصل على تذكرة طيران؟"

"لا."

"هل أوصلتيه إلى محطة القطار؟"

"لا."

"لكنك تعرفين أين هو. أليس كذلك؟"

كانت رانيا ترقد مكوّمة منكمشة حول نفسها على الأرض ترتجف خوفاً. لم تكن قادرة على أن تتمالك نفسها. الدموع كانت تملأ عينيها وصوتها يرتجف وكلماتها تتعثر. قالت بجهد:

"لا. لا أعرف."

"أنت كاذبة. تكذبين."

"لا أعرف شيئاً أكثر مما قلت لك."

حرك لوميه زناد المسدس وأحدث فرقعة لإرهابها. نظرت إليه رانيا خائفة وقالت بصوت واهن:

"أرجو منك أن تصدقني. أنا لا أعلم إلى أين ذهب؟"

هزّ لوميه مسدسه وصوّبه نحوها وهو يقول مهدداً:

"سأعد حتى ثلاثة. فإن لم أسمع منك ما أريد أن أسمعه سأقتلك."

قالت برجاء وإصرار:

"لكنني لا أعرف. أقسم لك. لو كنت أعرف لكنت قلت لك."

اقترب بوجهه من وجهها وقال بكلمات تحمل كل معاني الاحتقار:

"قد لا تعرفين. لكنك تحبينه. ولعلك تتصورين أنه يجب عليك أن تضحي بحياتك لأجله حتى يستطيع أن يهرب بعيداً."

"لا. لا. أنا أحبه لكنني أقول الصدق. أنا لا أكذب."

"واحد."

"أرجو منك يا سيدي أن تصدقني. لا بد من أن تصدقني."

"اثنان."

"وهو كذلك. سأقول لك ما أعرفه. أنا لا أعرف الكثير. لكن أرجو منك ألاّ تقتلني. لا تؤذيني."

صمت لوميه طويلاً حتى يستنزف منها كل مقاومة:

"حسناً. قولي. أنا في انتظار ما سوف تقولين."

انتهزت الفرصة وقالت بسرعة:

"ما قاله مروان لم يكن مؤكداً. لم يعرف ما سوف يفعل. لم يكن واثقاً. قال ذلك وأنا صدقته."

"ماذا كانت كلماته بالضبط؟" ماذا قال كلمة كلمة؟"

"قال... قال شيئاً مثل... قال قد يذهب إلى مصر أو الخليج. أي مكان بعيد عن هنا. هذا كل ما قاله. هذا ما أعرفه. صدقني. هذا كل ما أعرفه."

"هل أنت متأكدة؟ هل هذا كل ما تعرفينه؟"

قالت بصدق وإصرار:

"نعم. هذا كل ما أعرفه. هذا كل ما قاله."

"هل عرف أحد آخر أنه كان هنا؟"

"لا. لا أحد غيري."

"والديكِ لم يعرفا؟"

"لا."

"وصديقك؟ لم يعرف؟"

"لا."

"ولا رفيقة سكن؟ ولا الجيران؟"

واضطرت رانيا أن تكذب لتحمي ليلى من هذا الرجل المرعب. قالت:

"لا. أنا فقط الذي عرفت. ولم أقل لأحد. أرجو منك أن تصدقني."

صمت لوميه قليلاً ليفكر في إمكانية صدقها، ثم قال:

"حسناً. يبدو أن ليس لديك شيء آخر. وأظن أنه كذلك بالنسبة إليَّ."

شعرت رانيا براحة وتنهدت.

إلا أن الباب الأمامي أخذ يهتزّ تحت ضغط يد من الخارج ومقبضه يلف بفعل مفتاح يتحرك في فتحته، وفجأة دخلت ليلى الشقة وهي تحمل بين يديها أكياس بقالة. فوجئت ليلى بالمشهد وأخذت تحدق في لوميه والمسدس الذي في يده ووجهها يعكس كل علامات الرعب. صاحت:

"رانيا. ما هذا؟ كل هذا بسبب مروان؟"

بهذه الكلمات حددت ليلى مصيرها ونهاية حياتها.

أطلق لوميه رصاصتين عليها من مسدسه الصامت فسقطت على الأرض بلا حراك. ثم تحوّل إلى رانيا وأطلق عليها رصاصتين أخريين أيضاً لتلحق بصديقتها.

القسم الثالث

الفصل التاسع والعشرون

وأخيراً استطاع المفتش جودار أن يصل إلى البناية التي تقيم فيها رانيا فواز. وما إن نزل من سيارة الأجرة حتى قابله لومييه على الباب ونظر إليه بشموخ وقال له بازدراء:

"ما الذي أخّرك هكذا؟"

أجابه محاولاً أن يتفادى التشاحن معه:

"من بيروت إلى هنا مسافة طويلة تحتاج إلى وقت."

ثم التفت إليه مستفسراً:

"هل وجدت مروان عقاد؟"

"لا. كل شيء يبدو هادئاً."

"وماذا عن الفتاة؟"

"قلت لك كل شيء هادئ."

فنظر إليه جودار بدهشة واهتمام وأضاف:

"لكنك متأكد وتعرف جيداً أنهم هنا."

قال لومييه بلهجة عجيبة:

"لست متأكداً من أي شيء حتى هذه اللحظة. علينا أن لا نضيع الوقت أكثر من ذلك. يجب أن ندخل حالاً وأرجو أن نتمكن من أن نفاجئ مروان عقاد."

دخلا من الباب إلى المدخل الأمامي ووجدا الحارس هذه المرة مستيقظاً.

أراه لومييه شارة الشرطة التي تحدد شخصيته ثم قال:

"نريد أن نرى الآنسة رانيا فواز. قيل لنا أنها تقيم هنا. أليس كذلك؟"

جرى أمامهما الحارس وهو يقول:

"الآنسة فواز؟ طبعاً. سيدة رائعة. ليس هناك من هو أفضل منها. تسكن هي وصديقتها ليلى في الدور السابع، شقة ٧٠١. هل أصعد معكما وأقودكما إليها؟"

أجابه لومييه:

"لا داعي لذلك."

ثم تحوّل إلى جودار وقال له:

"استخدم السلم وتأكد من أن الطريق آمن. سأقابلك هناك."

ثم توجّه نحو المصعد وقد شهر مسدسه الذي يستخدمه رسمياً في عمله. أخرج جودار أيضاً مسدسه وأوصى الحارس أن يبقى هادئاً ولا يقول شيئاً لمن يدخل أو يخرج من البناية، ثم تحوّل إلى السلم وبدأ يصعد إلى الدور السابع وهو يصلي أن تنتهي هذه القضية البغيضة بسلام. لا يزال يجاهد ليصدق أن مروان عقاد قاتل. تحليل لومييه للقضية واستنتاجاته شاذة غير مقنعة أو مترابطة. لكن يجب أن يكون حذراً، فمروان عقاد رجل تدرب على القتل.

التقى بلومييه أمام الشقة ٧٠١ ومن بدون كلمات أعدا خطة للهجوم باستخدام إشارات اليدين. وبعد العد ثلاثة بصمت دفع جودار الباب بقدمه بكل عنف واندفع الرجلان داخل الغرفة شاهرين سلاحيهما. وهناك فوجئ جودار وتراجع خطوة وهو يرى جثتي رانيا وصديقتها على الأرض غارقتين في الدماء. أما لومييه فادّعى المفاجأة وقال:

"مروان عقاد. قتلهما المجرم. وصلنا متأخرين."

رد جودار على اتهامه وهو لا يزال مذهولاً من المفاجأة:

"لكن لماذا؟ لماذا يقتلهما؟"

أصرّ لوميه على نظريته قائلاً:

"هذا لا يهم الآن. المهم أن نلحق بمروان ونقبض عليه قبل أن يقترف جريمة قتل أخرى. يجب رفع البصمات والبحث عن أدلة للجريمة. أول كل شيء يجب أن نسلم صورة مروان عقاد لكل مركز شرطة. ونعلقها في كل محطات القطارات، والأتوبيسات، وكل المطارات، والموانئ، وتُسلَّم لمحطات التلفزيون في المغرب كله، وتُنشر في الجرائد والمجلات. من المتوقع أنه لا يزال هنا. لن ندعه يهرب. لن يهرب مني أبداً.

أبو الـهول

الفصل الثلاثون

صباح السبت التالي سمع طارق صوت رنين التليفون الهوائي لكنه لم يحفل به، فقد كان يتناول الفطور مع داليا. بعد ساعة عاد صوت الرنين مرة أخرى ولم يسمعه طارق حيث أنه كان يأخذ دش الصباح. ولثالث مرة وبعد ساعة أخرى ارتفع رنين التليفون وأيضاً لم يرد طارق على المتكلم لأنه كان قد ترك التليفون في الشقة وخرج لقضاء يومٍ آخر مع داليا. وهكذا ضاعت كل محاولات رامي للاتصال به.

مع أن الشتاء كان قد حل، إلا أن علاقة طارق وداليا، والعواطف المشبوبة التي اختلجت داخل قلبيهما جعلت الجو يبدو لهما كأنه الربيع يغطي دلتا النيل الخالد بنسماته الرقيقة. بعد أن تناولا إفطارهما صباح الاثنين خرجا معاً ولسعة برد خفيفة تلاحقهما وهما في طريقهما إلى برج القاهرة الذي يرتفع ١٨٥ متراً وسط المدينة. وقفا أعلى البرج متشابكي الأيدي ينظران إلى المدينة الممتدة تحتهما والمزدحمة بالمباني والسكان. أخذا يتنافسان في التعرف على معالم المدينة. اكتشفا بسرعة مبنى المتحف المصري والقلعة وجامع محمد علي ومسجد ابن طولون، ثم أخذت السماء تختفي خلف سحابة رمادية تظهر من خلالها أشباح مبانٍ عالية متجاورة للفنادق والمكاتب ودور اللهو والمساكن، وقد تغطت بغلالة ضبابية ملوثة بالتراب وعادم السيارات. مالت إليه داليا تسأله:

"هل ذهبت إلى الأهرامات؟"

قال وفي لهجته اعتذار وإحراج:

"يخجلني أن أقول لك أنني لم أزر الأهرام حتى اليوم."

صاحت مرحة وهي تقول:

"ولا أنا. تعال نذهب إلى هناك لنراها عن قرب ونركب الجمال ونتسابق على الرمال."

سألها طارق في دهشة:

"نركب جمال ونسير بها في الصحراء؟"

"لا نسير بل نجري ونتسابق."

كانت عيناها تبرقان بحماس وانفعال وهي تقول ذلك.

كان طارق مأخوذاً بحيويتها ورغبتها في الحياة. شعر وهو ينظر إليها بانتعاش ونشاط، فالحيوية معدية، وقد دخلت إلى عروقه.

هزّ كتفيه وقال بحماس:

"تعالي نبدأ السباق."

استقلا سيارة أجرة إلى الجيزة ووصلا إلى منطقة الأهرامات. دخلا إلى الهرم الأكبر من الباب الصغير، وعبرا بحرص السلم الخشبي الضيق حتى وصلا إلى صالة الدفن الكبيرة الواسعة الفارغة. تلفّتا من حولهما وتخيلا كم من كنوز كانت محفوظة في تلك الغرفة. استأجرا مرشداً سياحياً أحضر لهما جملين وأخذهما بعيداً إلى عمق الصحراء المترامية من حول الأهرامات والمعابد وأبو الهول وكل ذلك التاريخ البعيد الخالد. شعر طارق بسحر المكان يلفه ويملأ قلبه ويخلب عقله. نظر نحو داليا وهي تمتطي ناقة (أنثى الجمل) جميلة نظيفة، عيناها كبيرتان واسعتان وأذناها مرفوعتان، وسيقانها رفيعتان تشبهان لون الصحراء. كانت تجلس معتدلة مستقيمة الظهر وكأنها وُلدت في خيمة بدوي، وعاشت حياتها في واحة وسط الرمال. اختفى من ذاكرته وهو يتأملها كل ما تبادلاه من حديث عن نجيب محفوظ وتجربته مع الموت، وعن مصرع والديه أمام عينيه، وعن حادث السيارة المزعوم الذي ادعاه ليعلّل سبب الجرح في كتفه. طرد من ذهنه المفتش جودار، والمفتش لوميه، ورفيق رمزي، ومونت كارلو، والدار البيضاء. نسي أنه مطارد من الشرطة ومن كلوديت

وعصابتها، وأنه يهرب من الذين يريدون الإمساك به أو قتله، وأن عليه أن يأخذ حذره ويحمي ظهره. ليس أمامه إلا داليا وهي معه يتجولان ويتصرفان كعروسين عاشقين في شهر العسل. كانت داليا بالنسبة إليه ينبوعاً من الماء الرطب يروي عطش قلبه ويرطب روحه ويجعل حياته ممتعة.

أفاقه صوتها من خواطره وهي تقول في مرح:

"طارق. أستطيع أن أسبقك وأتغلب عليك. ساحة السباق تبدأ من هنا وتنتهي بين ذراعي أبو الهول. راهن على ثمن العشاء. المغلوب يدفع."

ما إن قالت ذلك حتى لكزت الناقة بقدميها وضربت ظهرها بعصاها وجرت مبتعدة منطلقة تقفز فوق تلال الرمال وتخترق أخاديد الصحراء. حين رآها تسرع بعيداً تصاعدت من داخله مشاعر التحدي وغرائز التنافس فانطلق في أثرها جاذباً وراءه الحبل الذي كان يقبض عليه المرشد السياحي، فانزعج وأخذ يصيح وراءهما وهو يسب ويلعن بكل اللغات التي تعلمها للتعامل مع السائحين. كانت داليا تجري وتتسابق ببراعة المحترفين. انطلق طارق خلفها وهي تسبقه بأربعين أو خمسين متراً. غمر قلبه شعور بالتحدي وقرر عدم الاستسلام بسهولة، فمال إلى رقبة الجمل الذي يركبه ورفس بطنه بشدة فزاد من سرعته وطار ليلحق بها.

عبرا تلة من الرمال الناعمة واتجها إلى مسطح كبير واسع قادهما إلى تلة أخرى ثم أخرى وفي منعطف اختفت داليا عن نظره لبعض الوقت فجرى ليلحق بها ورآها أمامه تشير إليه، تسخر منه وتتحداه محركة رأسها لتغيظه ما جعله يزداد عزماً وإصراراً. أخذ يصرخ في أذن الجمل ويضربه على ظهره بشدة ويستحث كل ما به من قوة ونشاط. كان يعرف أن الجمل الذي يمتطيه صغيراً لا يتعدى عمره ثلاث سنوات، وسريعاً دخل بعض السباقات كما قال له صاحبه، ويستطيع بسهولة أن يلحق بناقة داليا ويسبقها. على الرغم من ذلك لم يستطع، فقد وصلت داليا إلى المصطبة الحجرية التي يربض عليها أبو الهول، والتي كان يلتف من حولها سياح كثيرون مع مرشديهم. أفزعهم سرعة السباق

فتناثروا مبتعدين عن الطريق. سبقته داليا وانتصرت عليه. سحب طارق الحبل بشدة وهدّأ من سرعة الجمل حتى توقّف واقترب منها وأخذا يلتقطان أنفاسهما. كانت داليا تضحك بشدة وبصوت عال وقد انفرجت كل ملامحها وامتلأت عيناها بالدموع. هو أيضاً كان يضحك كما لم يضحك من قبل. ترجلا وقفزا إلى الأرض ثم اقترب منها وقلبه يخفق بشدة ويكاد يقفز من صدره. حركت عواطفه بشكل لم يكن يتخيله أبداً. عواطفه تتأجج داخله وترتفع بشكل لم يألفه من زمن بعيد. اندفعت بين ذراعيه تحتضنه وتقول وهي تقبله:

"اشترِ لي شيئاً."

"أشتري لك شيئاً؟ أي شيء؟"

ضحكت والتصقت به وقبّلت عنقه وأذنيه وقالت:

"لا أعرف. اشترِ لي شيئاً خاصاً. شيئاً مختلفاً. شيئاً متميّزاً. أريد شيئاً يذكرني بك حين تختفي بعيداً عني فجأة في الظلام ولا أعود أراك."

نظر إليها في عتاب قائلاً:

"ماذا تقولين؟ لماذا تقولين ذلك؟"

"أليس هذا ما يفعله كل الرجال؟ يأخذون ما يريدون ثم يبتعدون ويتركونك في وقت لا تتوقعه؟"

نظراتها كانت تعكس هزلاً ومرحاً وشقاوة، لكن كلماتها على الرغم من براءتها وضحكها كان فيها معنى قصدت أن يصل إليه. في تلك اللحظة أشعرته هذه السخرية أنه يلعب بالنار، وأن أحداً قد جرح مشاعر هذه الفتاة بقسوة وضراوة من وقت قريب. فلا يزال الجرح طرياً يؤلم. وها هو ينبش الجرح ويقلب النار التي لا تزال مشتعلة داخلها. هي هنا معه لأنه طلب منها أن تأتي، لكنها لا تريد أن ترتبط وتتقيّد به، لا تريد أن تستسلم له كأمر واقع. قفزت داخل قلبه فكرة لم يكن الوقت مناسباً لإثارتها. ولم يكن يريد أن يواجهها.

مهما كانت مشاعره نحوها، فهو لم يكن في استطاعته البقاء معها لمدة

طويلة. هل يمكن؟ هل يقدر؟ بعد بضعة أيام أو بضعة أسابيع، أو بعد شهر أو اثنين، لا بد من أن يتصل به رامي ليؤكد له ويبلغه أنهم في طريقهم إليه، وأن عليه أن يختفي. فعلاً كلام داليا حقيقي، سوف يبتعد عنها ويتركها وفي وقت لا تتوقعه.

كان من السهل أن لا تتعدى علاقته بها يوماً أو ليلة أو عطلة نهاية الأسبوع. لكن لدهشته وجد أن مشاعرها ونظرتها وحكمها على الرجال يعني الكثير بالنسبة إليه. قابل ذلك باهتمام وجدية. هناك شيء غريب في هذه الفتاة. لا يريد أبداً ولا ينوي أن يؤذيها أو يسبب لها ألماً. جذبها نحوه وقال:

"بعض الرجال هكذا. أنا لست من هؤلاء."

الفصل الحادي والثلاثون

حتى يبتعدا عن التفكير في الموضوع سارا معاً وقد أمسك طارق بذراع داليا يجوبان أحد الشوارع المزدحمة بالسياح والحوانيت التي تبيع الهدايا. دخلا مكاناً متخصصاً في ورق البردي.

همس في أذنها وهما يخطوان داخل المحل:

"وهو كذلك. اسمعي. سأشتري لك أي شيء ترغبين فيه من هذا المكان."

برقت عينا داليا وهي تقول:

"أي شيء؟" قال:

"أي شيء. أطلبي ما تشائين."

ضغطت على ذراعه سعيدة وتلفتت من حولها داخل المحل الكبير الذي تغطت جدرانه بأجمل الصور المرسومة بأحلى الألوان على أوراق ولفائف البردي. تقدم نحوهما بائع وقال بابتسامة كبيرة:

"هل أساعدكما؟ أستطيع اليوم أن أعرض عليكما أسعاراً جيدة."

قال له طارق وأيدته داليا بحركة من رأسها:

"عظيم. أولاً دعنا نرى أفضل ما لديك هنا."

فرك الشاب الصغير – الذي لا يتعدى العشرين من العمر – يديه وقال سعيداً:

"بكل سرور يا سيدي."

أخذهما إلى قاعة في الجزء الخلفي من المحل وأخذ يعرض عليهما كيف

تُقطع سيقان وأعواد شجر البردي إلى شرائح طويلة ودقيقة وتُنقع في الماء لاستخلاص ما هو باق فيها من سكر طبيعي. بعد ذلك ترصّ معاً بشكل متقاطع ومتشابك ثم تجفف أيام عديدة حتى تصبح رقائق ولوحات صلبة تصلح لأن يرسم الفنانون المتخصصون عليها صورهم الرائعة. وأغلب تلك الرسوم والصور من أساطير وتاريخ مصر القديمة. بعد أن أنهى شرحه اقتربت داليا من لوحة جميلة من البردي داخل إطار خشبي دقيق الصنع ملونة بألوان زرقاء، وحمراء، وذهبية لأشخاص وحيوانات وحروف هيروغليفية. نظرت إليه وقالت:

"ما هذه اللوحة؟"

أظهر البائع سعادته باختيارها وسؤالها قائلاً:

"آه. نعم. هذه هي لوحة المحاكمة الأخيرة. لوحة مشهورة جداً. نسخ هذه اللوحة كانت تُعلّق في بيوت ومقابر ومعابد المصريين في جميع أنحاء مصر القديمة."

سأله طارق:

"لماذا؟ ماذا تعني؟"

اعتدل الشاب وأخذ يفسر لهما معنى اللوحة:

"كان المصريون القدماء يؤمنون بأن الإنسان حين يموت سوف يواجه دينونة ومحاكمة أخيرة بعد الموت أمام الآلهة ليقدم حساباً عما فعله في حياته. أنظرا. هل تريا هذا الرجل الذي يقف هناك في أعلى اللوحة جهة اليسار وهو يسجد أمام تلك النماذج الإلهية؟"

"نعم."

"هذا هو الإنسان بعد الموت. يقف بعد انتهاء حياته على الأرض أمام أربعة عشر قاضياً ينكر ويحلف أنه ليس خاطئاً ولا مذنباً ويقدم الذبائح ويتوسل أن يسمحوا له بدخول الفردوس أو الجنة."

تأمل طارق في اللوحة وسأل:

"وماذا عن هذا الرجل الآخر من أسفل اللوحة؟ هل هو الرجل نفسه؟"

سأله البائع مستفسراً:

"هذا الذي في الجزء السفلي؟"

"نعم."

"هو الشخص نفسه. قادوه إلى قصر العدالة حيث يتقرر إن كان رجلاً صالحاً باراً أم شريراً. وهل هو مذنب أم بريء. هل ترون هذا الميزان الضخم الذي أمامه؟"

"نعم."

"يُنزع قلب الميت ويوضع في الكفة اليسرى من الميزان. وعلى الكفة اليمنى المقابلة منه توضع ريشة العدالة. مثل ريشة طائر. فإن كان قلبه أثقل من الريشة فهذا يعني أن القلب ممتلئ بالخطايا والشرور ولا يصلح أن يدخل السماء أو الجنة فيُلقى به في جهنم. الجحيم! أما إذا ظهر أن قلبه أخف من الريشة فهذا يعني أنه رجل بار وصالح ومن حقه أن يدخل الجنة أو الفردوس. الرجل الذي في هذه اللوحة رجل صالح وهو ذاهب إلى قاعة العرش في الجنة. أترون في يده مفتاح الحياة؟ حياة الخلود. أتريانه؟ هل أعجبتكما اللوحة؟"

بدا على وجه داليا عدم الارتياح وهي تقول:

"لا. لم تعجبني. لا أحب هذه اللوحة. أرنا غيرها. أعرض علينا لوحة أخرى."

ثم تحوّلت إلى لوحة أخرى. صورة حمامتين تقفان على فرع شجرة كبيرة. أما طارق فاستمرّ واقفاً أمام لوحة المحاكمة الأخيرة مركّزاً نظره عليها يفحصها بكل اهتمام وتدقيق. ثم سأل البائع:

"وكيف تتأكد وتعرف؟"

سأله الشاب:

"أتأكد وأعرف ماذا؟"

"كيف تتأكد وتعرف إن كان قلبك طاهراً وأنك ستذهب إلى الجنة؟"

عكست نظرات البائع عدم الفهم. بدا أنه لا يعرف جواباً لسؤال طارق. تلفّت طارق ناحية داليا فلم يجد ما يدل على معرفتها الجواب. لا أحد يعرف. لا أحد. غمرت قلب طارق موجة من الخوف. امتلأ بالقلق والتوتر. دوى صوت سؤاله داخل نفسه. تردد صداه بشكل عال وأخذ يعلو ويعلو حتى الصراخ. ارتجف وارتعب. سال عرقه وغطى جبهته وهو يفكر. لا بد من أن يجد إجابة للسؤال. لا بد قبل أن يموت ويتحدد مصيره من أن يعرف.

اشترى اللوحة التي اختارتها داليا. لوحة أخرى رائعة وغالية تظهر عاشقين على ظهر قارب يسير على صفحة مياه النيل. إلا أن انفعال طارق بلوحة المحاكمة الأخيرة لم يضعف أو يختفي. بقي يصخب داخله. كاد يسمع صوت أمه وهي تبكي حزناً على ما عمله في حياته من حماقات واختيارات خاطئة ثم تطلب وترجو منه أن يعيد حساباته ويغير أسلوب حياته ويبدأ من جديد ما دامت هناك فرصة لذلك. واستمر في خواطره يتساءل، لكن من أين يبدأ؟ إلى من يلجأ؟ هو مستعد ويريد أن يتغيّر. المهم كيف؟ وهل يستطيع ذلك؟ صعب! هذا صعب جداً عليه! من السهل أن يفكر وأن يقرر، لكن من الصعب أن يفعل! التغيير سهل، لكن يصعب تنفيذه!

رجعا إلى شقة داليا. وبعد أن أخذا حماماً وأبدلا ثيابهما ذهبا إلى فندق موڤمبيك في جوار المطار لتناول العشاء على ضوء الشموع قبل أن تطير داليا إلى لندن على الطائرة التي تقلع في المساء. تبدو داليا سعيدة جداً، أما هو فكان يحاول أن يخفي ما يشعر به من تعاسة. نظرت إليه داليا ولا تزال السعادة تطل من عينيها:

"أرسلت دينا وميرفت رسالة إلكترونية. نسيت أن أخبرك عنها."

أجابها من دون أن يرفع رأسه عن طبق الطعام الذي لم يتناول منه إلا قليلاً، فلم تكن شهيته تسمح بالكثير. قال:

"حقاً؟"

"لا يزالا في نيويورك. وجدا شقة لإقامتهما. دينا قالت إنها سترجع إلى هنا في نهاية الأسبوع القادم لجمع حاجياتهما وشحنها إلى هناك."

سكتت قليلاً ثم قالت:

"لا أصدق أنهما قد تركتاني. لا بد من أن أبحث عمن يسكن معي ويشترك في دفع قيمة الإيجار، فلن أستطيع تحمله وحدي."

قال وهو لا يزال يتناول الطعام:

"حسناً."

نظرت إليه باهتمام لتسأله:

"طارق. ماذا هناك؟ هل أنت على ما يرام؟"

"طبعاً. طبعاً. أنا على ما يرام."

"تبدو مشتت التفكير، مشغولاً بشيء. أنت بعيد جداً عني. لست كما كنت هذا الصباح ولا طوال اليومين الماضيين."

"لا. لا. أنا فقط..."

قال ذلك وصوته يتباعد ويخفت. أصرّت أن تعرف السبب وسألته:

"أنت فقط ماذا؟"

لم يكن يريد أن يكذب عليها مرة أخرى. لم يرد أن يحمّل قلبه أثقالاً أكثر مما به. ومرة أخرى هاجمه الخاطر الذي كان يفكر فيه من قبل. ذلك ما كان يضايقه ويقلقه. ليس أنه كاذب وأن حياته كلها كذب في كذب.

"أنا فقط.. أنا سوف أفتقدك. سأفتقدك جداً. لقد استمتعت معك طوال الأيام الماضية."

"وأنا أيضاً." ومدت يديها وأمسكت بيديه.

"أنت فتاة رائعة. لكِ عندي مكانة خاصة."

كانت داليا لا تزال تبتسم، لكن ابتسامتها اختفت فجأة وعكس وجهها مظاهر الشك والإنكار، قالت:

"مكانة خاصة تسمح لأن تقول قضينا وقتاً طيباً معاً ولن تريني مرة أخرى؟"

قال متأثراً ومؤكداً ومصراً على كل كلمة يقولها، وقد أخذ كلتا يديها بين يديه:

"مكانة خاصة تسمح بأن أقول أنني أريد أن أقضي أطول وقت معك. أقضي وقتاً طويلاً جداً. متى ترجعين؟ غداً؟"

"سأكون هنا وقت الغداء."

"عظيم. سأنتظرك."

ضغطت على يديه وابتسمت ونظرت في عينيه وهي تقول:

"وعد؟ تعدني؟"

أعدك."

الفصل الثاني والثلاثون

قضى طارق ليلته وحيداً في شقة داليا. الإصلاحات في شقته كانت على قدم وساق والعمال يقضون ساعات طويلة كل يوم لإتمامها. حال الشقة كان سيئاً لدرجة أنه من الصعب تصوّر متى يمكن الإقامة فيها. في الوقت نفسه، فإن شقة داليا على الرغم من أنها أصغر من شقته، فهي أدفأ بسبب أجهزة التدفئة. هذا غير الأثاث الجيد والديكورات الجميلة الأنيقة. الستائر معلقة على النوافذ، والزهور الملونة تملأ آنية الزهور على المنضدة في المطبخ. على السرير ملاءات نظيفة وأغطية ثقيلة ناعمة، ووسائد ممتلئة طرية، والعرائس والتحف الجميلة التي جمعتها أثناء سفرياتها متناثرة في كل مكان. وأفضل شيء هو أن أطباق الطعام مغسولة والثلاجة عامرة بالطعام، وفرن المطبخ وكل ما فيه من أجهزة يعمل، ما جعله يقرر أن يستعملها لإقامته في الوقت الحالي.

أعد طارق فنجان قهوة وفتح خزانةً فيها بعض الكعك والبسكويت. أخذ يأكل منه وهو يرتشف قهوة الصباح في لذة. بعد ذلك أخذ يفحص الأشياء التي في شقة داليا ويتأملها لعله يعرف شيئاً أكثر عنها. وجد ركناً فيه أجهزة راديو، وتلفزيون، وعدداً كبيراً من الأسطوانات والشرائط الممغنطة للموسيقى والأغاني والأفلام المصرية والأوروبية والأمريكية مرصوصة بعناية ونظام ومرتبة حسب الحروف الأبجدية. وجد خزانات ملابس حافلة بالملابس الجديدة والأحذية الملونة، ثم صناديق مخملية تحتوي على مجوهرات متنوعة. وجد كومة من مجلات المرأة بكل اللغات والأشكال. كما وجد أجهزة غطس وتنفس تحت الماء ورفاً عليه خرائط وكتب إرشاد للمسافرين إلى أماكن السياحة على البحر الأبيض المتوسط والكاريبي في جوار مجلدات أعمال نجيب محفوظ وقصصه. ثم عثر على

مكـان تحـتفظ فيـه بمخـدر الماريجوانـا وسـجائر تحتـوي عليـه. تنـاول واحـدة وأشعلها.

أدهشه أنه لم يجد في بيتها أي مذكرات مكتوبة أو يوميات مما تهتم به الفتيات في سنها. كما أنه لم يعثر على أي صور لعائلتها يمكن أن تساعده على اكتشافها. من هي داليا نور؟ من أين جاءت؟ وإلى أين هي ذاهبة؟ لقد انجذب إليها مع أنه لا يعرف إلا النذر اليسير عنها. قليلاً جداً ما يعرفه عن داليا.

عرف أنها نشأت في الأردن، لكنه لم يعرف أين في الأردن. عرف أنها تركت بيتها وهي في الثامنة عشرة، لكنه لم يعرف لماذا تركت البيت. عرف أنها تخرجت من جامعة صغيرة في فرنسا، لكنه لم يعرف أية جامعة ولا فيما تخصصت. عرف أنها التحقت بالعمل في شركة الطيران البريطانية لترى العالم وتسافر مجاناً. عرف أيضاً أنها زارت ثلاثة وعشرين دولة وتزمع أن تذهب إلى أستراليا في إجازتها القادمة لأن رياضة الغطس تحت الماء هناك رائعة. إلى جانب ذلك لا يعرف شيئاً آخر. هي بالنسبة إليه سر غامض كما أنه بالنسبة إليها سر غامض أيضاً.

في محاولته البحث عن إجابات لأسئلته عنها، فتح درجاً في طاولة صغيرة إلى جوار سريرها ووجد به بعض المطبوعات عن أماكن سياحية بمدينة شرم الشيخ. هذه الفتاة تحب السفر والسياحة فعلاً. هو لا يذكر متى سافر في إجازة أو رحلة سياحية، لكن داليا مدمنة سفر لرؤية العالم والتمتع به حتى الثمالة. ويبدو أنها لا تستطيع أن تبقى في مكان واحد أكثر من بضعة أيام. ما إن يكون لديها وقت ولو أيام قليلة حتى تنطلق لتزور مكاناً جديداً. لماذا؟ كأنها تهرب من شيء. أي شيء؟ فحص طارق مجموعة المطبوعات، أحدها عن فندق هيلتون. وآخر عن ريتز كارلتون. ثم الفصول الأربعة والماريوت وموڤمبيك جولي ڤيل وغير ذلك. في قاع الدرج وجد نوتة صغيرة عليها شعار شركة الطيران البريطانية، فتحها ووجد فيها كتابات بخط يد داليا. أسعار

وتكاليف الإقامة لثلاثة أفراد في بعض الفنادق والمنتجعات السياحية والمواعيد والأسعار والمقارنة بين كل منها.

وبينما هو يجمع تلك المطبوعات ليعيدها مكانها ليستكمل جولته في محاولة معرفة أشياء أكثر عن تلك الفتاة اللغز، لاحظ أن الأوقات التي اختارتها داليا ورسمت دوائر حولها على اعتبار أنها أنسب وقت لإجازتها الذي قد اقترب، بين عيد الميلاد ورأس السنة. أدرك طارق فجأة أن داليا لن تنفّذ الآن تلك الإجازة بسبب نقل دينا وميرفت خارج مصر ما يجعلها عاجزة عن دفع إيجار الشقة وحدها وبالتالي لن تستطيع تحمّل تكلفة إجازة تقضيها في شرم الشيخ. هذا جعل طارق يفكر... ماذا لو؟!

عندما رجعت داليا إلى البيت في اليوم التالي كانت الخطة قد اكتملت. التذاكر تم شراؤها. حقائب السفر أُعدّت وكل شيء بما فيه أجهزة الغطس التي وُضعت في سيارة أجرة تنتظر أمام الباب وإلى جوارها طارق يقف وفي يده باقة من الزهور. ما إن نزلت داليا أمام بيتها حتى رأت ذلك كله. لم تصدق ما رأت عيناها. سوف يذهبان إلى شرم الشيخ معاً. أهذا صحيح؟ الآن حالاً؟ كل التكاليف سددت؟ كيف عرف أنها تريد الذهاب؟ كيف تمم كل تلك الإجراءات بسرعة؟

أجاب طارق كل أسئلتها وهما في طريقهما للحاق بالطائرة الذاهبة إلى شرم الشيخ والتي تستغرق رحلتها ساعة واحدة. وسَرَّه جداً ردّ الفعل الذي رآه على وجه داليا من سعادة وفرحة ودهشة.

لم تكن من طباع طارق التصرف السريع هكذا من قبل، لكن ذلك أسعده جداً واعتبر ذلك بداية جديدة له.

كان الخروج من القاهرة فكرة صائبة لأسباب كثيرة. فهو في أشد الاحتياج إلى الشمس والرمل والشاطئ ليبتعد عن التفكير في مشاكله. كما أنه يريد أن يقضي أطول وقت مع داليا. أخيراً قالت له:

"هذا كرم كبير منك. لا أعرف حتى هذه اللحظة لماذا فعلت ذلك كله؟"

قال لها والطائرة تقترب من نهاية رحلتها:

"افتقدتك واشتقت إليك."

ضغطت ذراعه وأخذت تقترب منه وهي تنظر إلى وجهه بهيام:

"حقاً؟"

"حقاً."

قال لها ثم أضاف:

"بيتك صغير رائع، لكنه ليس شيئاً من دونك. شعرت فيه بوحدة قاتلة، ثم عثرت على جدول رحلاتك واكتشفت أنك حرة وبلا عمل خلال اليومين القادمين. لم أستطع أن أقاوم، فقمت بكل هذه الترتيبات. أرجو ألا أكون قد تجرّأت وخططت ونفّذت كل شيء بسرعة؟"

"شكراً لكل ما فعلت."

الفصل الثالث والثلاثون

سجّلا اسميهما في فندق ريتز كارلتون على أنهما عروسان حديثا الزواج. في الصباح التالي تناولا الإفطار في الغرفة لتأخرهما في النوم. استلقيا إلى جوار حوض السباحة مستمتعين بالشمس. بعد الظهر قضيا الوقت في الغوص يشاهدان الأسماك العجيبة الأشكال والألوان، تسبح بين الشُّعَب المرجانية في البحر الأحمر بالقرب من جزيرة تيران والتي لا تبعد كثيراً عن شواطئ المملكة العربية السعودية. بعد ذلك تناولا طعام العشاء في أحد المطاعم الأنيقة وعادا إلى الفندق.

الجو في ذلك الوقت من السنة كان لطيفاً والحرارة تقارب ٣٠ درجة مئوية، مع نسمات ريح رقيقة قادمة من الشمال. في المساء انخفضت الحرارة ولم تظهر أية سحب في السماء الزرقاء. الجو صاف جميل ولا شيء يعكره. لا اتصالات تليفونية، ولا رسائل إلكترونية. إنه هدوء تام. كل شيء كان رائعاً وجميلاً ومريحاً، الفندق، والبحر، والطعام، والسكون، والمرح، هذا أقرب ما يكون للكمال. كل ما تمناه طارق هو ألا تنتهي تلك الأيام الجميلة.

قام مبكراً صباح اليوم الثالث وخرج يجري على الشاطئ ورطوبة جو الصباح تلفح وجهه وشعره. جرحه بدأ يلتئم، وجسده استعاد قوته، وعادت إليه صحته كاملة بعد الإصابات التي مر بها في مونت كارلو. بعودة صحته وعافيته عادت إليه حيويته، ونشاطه، ومرحه، وضحكاته. كان يغني وهو تحت ماء الدش في الحمام، ويقفز وهو ينتقل من مكان إلى آخر، ويرقص وهو يتريّض حول الفندق. إنه الحب الذي يعيشه هذه الأيام.

لم يشعر طارق بما يشعر به الآن نحو أي فتاة من قبل حتى رانيا. لا يزال

يحتفظ بمشاعره تجاهها، وكان يدرك أن تلك المشاعر نحوها لن تخمد وستبقى دائماً داخل قلبه. لكنها أبداً لم تتجاوب معه وتبادله عواطفه. ليس كمشاعر داليا، طبعاً! داليا تريده وتشتاق إليه. وهو معها يشعر بمقدار رغبتها فيه وتمسّكها به، وله مكانة خاصة في قلبها. هو ينزلق في حبها ويندفع نحو ذلك بسرعة.

بعد أربعة أميال قطعها جرياً على الشاطئ، عاد إلى الفندق وتسلل إلى الغرفة بهدوء. كانت داليا لا تزال نائمة. بدت أمام عينيه مثل ملاك، هادئة ساكنة رقيقة، كأنها في حلم جميل.

دخل الحمام، وشعر بانتعاش والماء يتساقط على رأسه وجسده، ثم خرج وارتدى ملابسه استعداداً ليوم جديد يقضيانه في شرم الشيخ. قد يخرجان لمشاهدة معالم المدينة القابعة في حضن البحر، وعلى صدر الصحراء، أو يقومان بجولة شراء، أو يستأجران دراجتين يطوفان بهما الشوارع، أو يذهبان في رحلة بحرية. لا يهمه ماذا يفعلان، سيفعل أي شيء تريده. المهم أنهما معاً.

ما إن خرج من باب الحمام حتى بادرته داليا قائلة:

"صباح الخير."

ذهب إليها وقبّلها برقة وقال:

"صباح الخير. كيف حالك؟"

"عظيمة." أجابته بابتسامة وأضافت:

"جائعة."

"وأنا كذلك. ما رأيك؟ خذي حمامك بسرعة ثم تعالي نتناول الفطور ونعد خطة لليوم."

"هذا جميل."

ثم قفزت ودخلت الحمام وأغلقت الباب خلفها.

بينما هي تستحم، أخذ طارق يرتب الغرفة، ويجمع الأشياء المبعثرة فيها. جمع ملابسها المبتلة المعلقة في الشرفة ثم طواها بعناية، وضعها في حقيبتها. وجد مفاتيحها وتليفونها تحت السرير، فالتقطهما وبينما هو يضعهما في حقيبة يدها سقطت منها كومة من الخطابات كانت موضوعة فيها. وحين قام بذلك، اكتشف أن بعضها مجموعة من الفواتير لم تفتح بعد وبالتالي لم تُدفع، وفي آخر الكومة لفت نظره ظرف مختلف جذب انتباهه. كان في داخله خطاب مرسل من الأردن كما يظهر من طوابع البريد الملصقة عليه وبتاريخ قريب في الأسبوع الماضي. لم يستطع أن يقاوم نفسه من أن يقرأه. ولم يكن يتوقع ما وجده مكتوباً في ذلك الخطاب:

"العزيزة جداً داليا،

شكراً من أجل خطابك الأخير. لا أستطيع أن أشرح لك مدى فرحتي أنا ووالدتك عندما عرفنا أنك توقفت عن لقاء كليم والخروج معه. تعلمين أننا لم نكن مستريحين لطريقته في الحياة. تعاطيه المخدرات، وإدمانه الخمر، وارتياده الحفلات الليلية. لم يكن هو الشاب المناسب الذي يستحق أن تكوني زوجة له. ليس مسيحياً، ولا حتى من النوع الجاد من الرجال. نحن فخورون بك وسعداء أنك قطعت علاقتك به وتحررت منه وعدت إلى حياتك من دونه.

هل أنت مستعدة لأن نبحث لك عن رجل طيب صالح يحبك ويعتني بك ويرعاك كل أيام حياتك؟ ماذا عن يوسف؟ هل سمعت أنني قد قبلت أن يعمل معي كمساعد ابتداء من الشهر الماضي؟ وهو يقوم بعمله في الكنيسة بشكل رائع خصوصاً في مجال خدمة الأطفال، وفصول درس الكتاب المقدس، والتعليم في مدارس الأحد، وقيادة اجتماع الشباب. أعتقد أنه لا يزال يهتم بك جداً. هل يمكن أن ترسلي له رقم تليفونك وتسمحي له

أن يتصل بك؟ هذا سوف يسعدنا أنا ووالدتك جداً!

متى ستعودين إلى الوطن؟ نحن نتمنّى أن نراك. يمكنك أن تقابليه إذا جئت إلى هنا. كل أقاربك هنا يشتاقون إلى رؤيتك وكذلك أنا. أرجو منك أن تكتبي لنا مرة أخرى. مع محبتي.

والدك."

كان الخطاب مكتوباً بعناية بالآلة الكاتبة على ورق يحمل اسم "كنيسة البتراء الكتابية" مع عنوان صندوق بريد في المدينة الصغيرة في جنوب الأردن.

أحسّ طارق بصدمة شديدة بعد قراءته الخطاب. ما هذا؟ داليا مسيحية؟ وأبوها قس في كنيسة؟ كيف يمكن أن يكون ذلك؟ غير معقول! داليا تشرب الخمر، وتتعاطى المخدرات، وترتاد الحفلات الصاخبة. كيف تكون ابنة رجل دين مسيحي؟

لم تذكر ذلك أمامه أبداً. لم يرَ شيئاً يجعله يتصوّر أنها مسيحية. لا تلبس صليباً وليس في بيتها كتاب مقدس. كل ما رآه فيها أنها فتاة متحررة تعيش الحياة بكل مباهجها ولا مكان للدين في حياتها. مثله لا أهمية للدين عنده. ترى، هل هناك المزيد تخفيه عنه؟ مثلما يخفيه هو عنها؟ كم من الأكاذيب قالها لها عن نفسه؟ هل كذبت عليه أيضاً؟ هل في حياتها أسرار خفية مثل حياته المملوءة بالأسرار الخفية؟

الفصل الرابع والثلاثون

كان طارق لا يزال مستغرقاً في قراءة الخطاب حين ارتفع صوت رنين جرس تليفونه الهوائي. حملق في شاشته وقرأ الرقم الذي يتصل به وعرف أن المكالمة من أخيه رامي. أجاب:

"هالو. رامي؟"

سمع صراخ أخيه على الطرف الآخر وهو يصيح:

"مروان. أين أنت؟ أين كنت طوال الوقت؟ اتصلت بك مرات عديدة خلال الأيام الماضية. أفزعتني. حسبتك مت..."

أجاب طارق أو مروان بعدم مبالاة:

"لا. لا. أنا على ما يرام. لكنني كنت... آه... كنت مشغولاً. لماذا؟ ماذا هناك؟"

"مشغول؟" كاد صوته يثقب أذن أخيه.

"وما الذي يشغلك هكذا؟ مشغول في ماذا؟"

"لا شأن لك بما يشغلني."

كان صوت رامي غاضباً جداً وهو يقول:

"هل جننت؟ لا بدّ من أنك جننت يا مروان. أنا أخاطر بحياتي لمساعدتك وضمان بقائك حياً بعيداً عن السجن وتختفي هكذا يومين كاملين، وعندما أسألك عما يشغلك تقول: لا شأن لك بما يشغلني! كيف يطاوعك قلبك لتقول لي ذلك؟ لا شأن لي بما يشغلك. أنت فعلاً مجنون!"

أدرك صحة مخاوف رامي، وعرف أنه على حق، فلم يشأ أن يجادله أو

يقف موقف الدفاع عن نفسه. قال بصوت هادئ:

"عندك كل الحق يا رامي. أنا آسف!"

جاء إليه صوت أخيه الغاضب وهو يحاول أن يكبح جماح انفعاله يقول:

"أرجو منك أن تكون آسفاً فعلاً. إسمع: هناك أشياء كثيرة حدثت منذ اختفيت عن وجه الأرض. سأغادر بغداد على أول طائرة عائداً إلى بيروت. صدر قرار من النائب العام في مونت كارلو باستدعائي للمثول أمام المفتش جودار."

حلّ عليهما صمت، وأحسّ طارق أن هناك شيئاً خطيراً آخر لم يخبره به شقيقه بعد. بعد قليل جاءه صوت رامي يسأل:

"لماذا لم تخبرني أن رانيا انتقلت إلى الدار البيضاء؟"

ذُهل طارق وصدمه سؤال رامي. كيف عرف بموضوع انتقال رانيا من باريس إلى المغرب؟ من أخبره بذلك؟ حاول تفادي الموقف قائلاً:

"أنا متأكد أنك... لا بدّ من أنك..."

قاطعه بحدّة وقال:

"اسمع يا مروان. لا فائدة من الإنكار أو التبرير وتقديم الأعذار. أنا أعلم أنك كنت عندها في الدار البيضاء. كل ما أريده هو أن أعرف السبب. لماذا؟ ألم نتفق على أن تتصرّف بحرص وحذر، وأن لا تتصل بأحد من الأصدقاء، ولا تعمل شيئاً يلفت النظر، وتبتعد عن كل ما يثير الشبهات والشكوك؟ لقد وعدتني بذلك."

"نعم وعدتك، لكني لم أعرف إلى من أذهب غيرها. كنت أحتاج لمساعدتها."

"لماذا؟"

وبصوت يحمل الندم والألم في الوقت نفسه قال:

"لأنني كنت مجروحاً. كنت مصاباً بطلق ناري يا رامي. هل استرحت؟ أصابني واحد من القتلة السفاحين الذين كانوا يسعون إلى اغتيالي في مونت كارلو. لم أستطع الذهاب إلى المستشفى هناك أو في فرنسا. لم أكن أعرف من الذي يطاردني، ولم يكن هناك من أضع فيه ثقتي. الشخص الوحيد الذي فكرت فيه كان رانيا. لهذا لجأت إليها فساعدتني واعتنت بجرحي، ثم صرفتني، لم تقبل أن أبقى عندها. طردتني من بيتها فجئت إلى هنا."

بعد قليل أتاه الرد عبر التليفون:

"أخطأت في ذلك. اقترفت خطأً كبيراً."

"قد أكون قد أخطأت، لكني نجوت ومرّ الأمر بسلام."

"لا. لم يمرّ الأمر بسلام."

"ماذا تقصد؟"

"رانيا قُتلت!"

نزل الخبر عليه كصاعقة صدمته، وزلزلته، وعصفت بكل كيانه. اندفع يقول بلا وعي:

"ماذا؟.. ماذا تقول؟.. كيف؟.."

توقّف عقله عن التفكير. شعر باختناق وكادت أنفاسه تتوقّف. كيف حدث هذا؟ كيف تُقتل رانيا هكذا؟ كيف؟ استمرّ رامي يشرح:

"عثرت الشرطة على جثتها هي وزميلتها في مسكنهما في الدار البيضاء، مقتولتين بطلقات نارية."

"لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً. لقد كان عندها منذ وقت قليل. رآها ورأته. تحدّث معها وتحدّثت معه. احتضنته وعالجت جرحه واعتنت به. لا يمكن ذلك.

استمرّ رامي يخبره بما حدث وكلماته مشبّعة بمرارة وحزن:

"ترك المفتّش جودار رسالة على جهاز التسجيل الصوتي في المكتب. هكذا عرفت ما حدث. قال إنهم قد وجدوا بصمات أصابعك على كل شيء في مسرح الجريمة، كما أنهم وجدوا آثاراً من شعر رأسك على وسادة على أريكة هناك. وقد تعرّف على صورتك أحد أصحاب المحال بقرب المبنى، وقال أنه شاهدك تسير في الجوار. كما وجدوا سيارتك تقف قريبة من هناك على بعد أميال. المفتش لوميه يؤكد أنك القاتل، وقد أصدر أمراً بالقبض عليك. أما المفتش جودار فيقول أنه لو لديك أي تفسير أو معلومات عما حدث فعليك أن تسلم نفسك حالاً إلى الشرطة، وإلا فلا سبيل أبداً لمساعدتك على الخروج من هذه الورطة."

لم يعد طارق قادراً أن يستمرّ في الاستماع لما يُقال. شعر بالغثيان، الدم في عروقه يغلي من الغضب، وعقله يرفض وينكر كل شيء، كاد أن يلقي بالتليفون الذي حمل إليه تلك الأخبار بكل قوته عبر الغرفة. كان قريباً من الانهيار والجنون. وسمع رامي يضيف:

"ليس هذا فقط. هناك ما هو أسوأ من ذلك."

تجمّدت كل أطرافه وهو لا يصدّق أن هناك ما هو أسوأ، وسأل:

"ماذا؟"

"لوميه وجودار يعرفان أنك في مصر."

"كيف؟"

"لا تسألني كيف عرفا ذلك. لم يقل جودار كيف عرفا، لكنهما هناك الآن. عندك! في مصر! كل مراكز الشرطة في الجمهورية لديها صورتك مع تعليمات صريحة بإطلاق النار عليك بمجرّد رؤيتك إذا لم تستسلم من دون مقاومة."

"لكنني لم أقتل رانيا."

قال رامي بعطف شديد وكلماته تنزف:

"أعرف. أعرف ذلك يا مروان."

وأضاف مروان في نبرة يأس وشعور بالهزيمة:

"ولم أقتل زميلتها في السكن. لا بدّ من أن القتلة هم شركاء كلوديت رمزي."

قال رامي محاولاً أن يشجع أخاه:

"أوافقك تماماً على ذلك. وقد أرسلت فريقاً آخر إلى البرازيل. لكنني لا أظن أن كلوديت لا تزال في ساو پاولو. أتصوّر أنها هربت إلى الجبال لتختبئ في مكان بعيد. مهما حاولت الاختباء، سنعثر عليها هي وكل من يعمل معها. أعدك بذلك يا مروان. لكن هذا يحتاج إلى وقت. الوقت ليس في صالحنا الآن. علينا أول كل شيء أن نجد مخرجاً."

طار الحلم الذي عاشه طارق خلال الأيام الماضية، وضاعت كل آماله بقضاء وقت مريح بعيداً عن المخاطر والمشاكل. عاد إليه الكابوس الذي كان قد بدأ يختفي وينساه. عليه أن يستمر في الهرب ومحاولة النجاة من جديد.

رامي على حق تماماً على الرغم من أنه لا يقبل الاعتراف بذلك. إذا كانت كلوديت وعصابتها قد تمكنت من العثور على رانيا في المغرب فهم لا بد من أنهم سيصلون إليه في مصر. جعلوه مسؤولاً عن جرائم لم يقترفها. أطلقوا كل رجال الشرطة في أوروبا وشمال أفريقيا ومصر خلفه. لا يستطيع الآن أن يعود إلى القاهرة أبداً ليختبئ فيها. لكنه أيضاً لا يستطيع أن يترك داليا. كان يعرف جيداً أنه ما كان يجب أن يقع في حبها، لكن سبق السيف العزل وانتهى الأمر. لا فائدة من لوم نفسه الآن. لا سبيل أمامه إلى التراجع. لكنه لن يستطيع أن يواجه احتمال أن يمس داليا أي ضرر بسببه. لن يغفر ذلك لنفسه إن حدث.

الفصل الخامس والثلاثون

خرجت داليا من الحمّام وقد ارتدت ثوباً خفيفاً لونه أزرق بلون السماء الصافية أو ماء البحر الهادئ، مع حذاء ينسجم مع الثوب. بدت مبهرة رائعة كالعادة، لكن ذهن طارق لم يكن مستعداً لأي مشاعر رومانسية. كان ذهنه مشتتاً يدور بسرعة بين ما قرأه في خطاب والد داليا، وبين الأخبار التي حملتها إليه مكالمة رامي. ماذا عليه أن يفعل؟ إلى أين يجب أن يهرب؟

في جزء من الثانية شعر بالرغبة في أن يخبر داليا بكل شيء. يعترف لها بمن هو، وما هي حقيقة عمله، ولماذا يهرب، ومن يطاردونه، ولماذا. هذا أكرم وأشرف شيء عليه أن يفعله. لكن هل هذا مناسب الآن؟ كلما قلت المعلومات التي تعرفها، كلما قلّ تعرّضها للخطر ونجت من المصير الذي لحق برانيا. هذه حقيقة يجب ألا ينكرها، وقرار يجب أن يتخذه إذا كان يحبّها فعلاً. لماذا يروّعها الحديث عن قنّاصة يوجّهون بنادقهم إلى رأسه، ويضعون قنابل متفجّرة في سيارته؟ أو احتمال وجود سفّاح يتربّص به في الظلام موجّها بندقية تلسكوبية نحوه؟ قد تكون هذه هي الحقيقة، لكن هل من الحكمة والإنصاف أن يعرّضها إلى القلق والخطر بكشف الأمور لها؟

نظر إلى ساعته، عليه الآن أن يبحث بسرعة عن خطة لمواجهة الموقف. وبينما هو يفكر في ذلك، وقبل أن يقول لها شيئاً، لمحت داليا الخطاب في يده... سألته:

"ما هذا؟ أين عثرت عليه؟"

ما إن بدأ يتكلم ليجيب حتى قاطعته بغضب:

"هل هذا خطاب والدي لي؟ هل أخذته من حقيبة يدي؟ كيف تجرّأت أن

تفعل هذا؟"

صدمته حدّة كلماتها والغضب الذي بها، فحاول أن يبرّر ما فعله وهو يقول:

"كنت أرتّب الأشياء في الغرفة فوجدته. لم أكن أعرف ما هو. لم أعرف."

اندفعت نحوه وجذبت الخطاب من يده بقوة. بدت عنيفة منفعلة متنمرة غاضبة. احمرّ وجهها، وبرقت عيناها، وظهرت عروق رقبتها، وارتعشت يداها وهي تصيح:

"هل قرأته؟ أجبني. هل قرأته؟"

أجابها وقد امتلأ دهشة وهو لا يصدّق أسلوبها الهجومي:

"قلت لك لم أكن أعرف ما هو. لا أنكر أنني قرأته. لم أقاوم. وما قرأته عجيب وغريب. أقصد... هل أنتِ فعلاً مسيحية؟ وهل أبوك قس؟ رجل دين مسيحي؟"

صرخت في وجهه وقد تزايد انفعالها، فكوّرت الخطاب بين أصابعها، واندفعت داخلة دورة المياه، وأغلقت الباب بعنف وهي تصرخ:

"هذا ليس من شأنك. ليس لك شأن بذلك أبداً."

صعقته الأحداث، وصدمه الموقف، وتراكمت عليه المفاجآت المؤسفة الواحدة بعد الأخرى، فسألها بصوت يحمل كل انفعاله:

"ما الذي حدث؟ ماذا؟ هل هي جريمة؟ ماذا إذا كنت قد قرأت خطاب والدك؟ هل في ذلك جريمة؟"

جاءه صوتها من خلف الباب وهي تبكي، وقالت وسط شهقاتها:

"ليس لك الحق في أن تقرأه. ليس هذا من حقك. ليس لك أن تتلصّص وتتجسّس عليّ، ولا أن تفتّش في حاجياتي وخصوصياتي. طارق جميل. ليس من حقّك أن تتدخّل في حياتي الخاصة وتصدر أحكامك على تصرفاتي الحرة. هل تسمعني؟ ليس هذا حقّك."

اتّجه نحو باب الحمام ودفعه، لكنه كان مغلقاً من الداخل، ثم قال:

"أنا لم أتلصّص أو أتجسّس. لم أفتّش في شيء خاص بك. لم أفكّر أبداً أن أقيّمك أو أصدر أحكامي عليك. كل ما في الأمر أنني عثرت على الخطاب عن طريق المصادفة. ثم حب الاستطلاع ورغبتي في معرفتك دفعني لأن أقرأه. داليا. كفى. تعالي أو دعيني أدخل."

صرخت من خلف الباب:

"لا. ابتعد عني. اذهب."

صمت قليلاً ثم قال بصوت حاول أن يجعله هادئاً وحازماً معاً:

"لا يا داليا. لن أذهب. أنا أحبّك. أحبك وأريد أن أعرف كل شيء عنك. أريد أن أعرف أهلك وأسرتك ومن هم والديك. أريد أن أعرف ديانتك ومن تتبعين، وبمن تؤمنين وأي عقيدة تعتنقين. أريد أن أعرف من هذا الرجل الذي كنت تلتقين به ولماذا قطعت علاقتك معه. أريد أن أعرف كل شيء."

سمعها من خلف الباب وهي تحاول أن تتوقّف عن البكاء. دفع الباب مرة أخرى لكنه كان لا يزال مغلقاً. تراجع إلى الخلف وجلس على الأرض وهو مرتبك ومتحيّر في فهم تلك الفتاة التي خلبت لبّه واستولت على مشاعره بهذا الشكل.

جلس على أرض الغرفة خلف باب الحمام وهو يفكر بعمق ويتأمل في تلك العلاقة التي نشأت بينهما بسرعة وازدادت قوة بشكل غير عادي. قال وهو يشعر بأسف ويتكلم في ضعف:

"داليا! أرجو منك أن تسامحيني. اغفري لي. أنا آسف. أنا حقاً آسف. عثوري على الخطاب كان عن طريق المصادفة. أقسم لك. لم أقصد أن أفتّش أو أبحث في حقيبتك وخصوصياتك. لكن عندك كل الحق. ما كان يجب أن أقرأ الخطاب. لكن صدقيني. إنني لم أقصد شيئاً. تصرّفت بحسن نية. لم أفكّر أبداً في عمل شيء يسبب لك أي حزن أو ألم أو أذى. لم يرد إلى ذهني

أبداً أن هذا سوف يضايقك أو يزعجك. لا تجعلي هذا الخطأ يفسد الوقت الرائع السحري الذي نقضيه معاً."

كانت لهجة كلامه تحمل توسّلاً ورجاء لم يعتد عليه من قبل. إلا أن ذلك كان له تأثير غيّر الموقف؛ فسرعان ما بدأت أعصاب داليا تسترخي تدريجياً. كان لا يزال يسمع صوت شهقاتها بعد أن توقّف بكاؤها وهدأت أنفاسها وانتظمت. تابع طارق محاولته، فقال برقّة وبلطف:

"هل يمكن أن آتي إليك؟ قولي نعم. ودعيني أدخل."

بعد دقائق انفتح الباب بانفراجة صغيرة. وسمعها تقول من بين شهقاتها:

"لا تنظر إليّ. اغلق عينيك. منظري بشع."

"هذا مستحيل!"

لكنه أغلق عينيه فعلاً حسب رغبتها. سمع الباب ينفتح أكثر وهي تقول بعد صمت:

"هل تعني ما قلت منذ لحظات؟"

"كل كلمة قلتها صحيحة تماماً وأعنيها بصدق."

"هل تحبني فعلاً؟"

"نعم. قطعاً أنا وقعت في حبك من قمة رأسي حتى أخمص قدميّ. إن لم أكن كذلك فلماذا جئت بك إلى هذه الجنة؟ أنا أحبّك يا داليا. أحبّك."

كان طارق لا يكاد يصدق الكلمات وهي تخرج من فمه. هو بالكاد يعرفها وهي بالكاد تعرفه. لم يكن من الحكمة أن يفكر في الارتباط والاستقرار في الظروف التي يمرّ بها، لكن لم يكن في مقدوره أن يتردّد. في داليا شيء لا يمكن مقاومته... شيء يدفعه لأن يتمسّك بها بشدة ويحافظ عليها بكل قوته ولا يسمح أبداً أن تفلت من يده.

قالت في حيرة:

"لا أعرف. أحاول أن أفهم ماذا يحدث."

سألها في إصرار:

"فهل تغفرين لي؟"

قالت بتردّد:

"وهذا أيضاً أحاول أن أفهمه."

خرجت وجلست إلى جواره على أرض الغرفة والتصقت به، ثم أخذت يده بين يديها، وقبّلت عينيه المغمّضتين، وسمحت له أن يفتحهما وينظر إليها. كانت عيناها محمرّتين والخطوط تحت عينيها ورموشها ملطخة، لكنها بدت له جميلة، أجمل من أي وقت. نظر إليها مأخوذاً وأفكاره تتصارع في داخله. كيف حدث ذلك كله له وهو يعيش حياة غير مستقرّة محفوفة بكل أنواع المخاطر؟ كيف وصلت علاقته بها إلى هذا الحد في زحام أحداث عاصفة يمرّ بها؟ هذه المشاعر تحتاج إلى جوّ هادئ، وبيئة مستقرّة، وحياة هادئة منتظمة. لكن مع ذلك، هل هذا يهمّ؟ إذا كان عليه أن يتحرّك فليتحرّك بسرعة. الوقت يجري، وكلما مرّ قلّت فرص النجاة، وتناقصت الاحتمالات أمامه. لا بدّ من أن يخرج من شرم الشيخ حالاً قبل أن يصل إليه لوميبه وجودار وقوات الشرطة المصرية ويسدون عليه أبواب الهرب والنجاة. لكن كيف؟ كيف يخرج من هنا؟ كيف؟

الفصل السادس والثلاثون

أشعلت داليا سيجارة محشوة بمخدّر الماريجوانا وقدّمت أخرى مثلها إلى طارق. كانت الأفكار تتدافع داخل عقله باحثة عن أسلوب معقول للنجاة، فقال:

"هل هذه هي طريقة الخروج من المأزق؟"

هزّت رأسها واستنشقت دخان السيجارة بقوة، وجاراها في تصرفها إزاء الموقف وأخذ يستنشق الدخان مثلها. جلسا متجاورين في صمت لبضع دقائق وقد امتلأ جو الغرفة بالدخان المتصاعد من سيجارتيهما. سبحت نظراته في الدخان ثم قال:

"هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟"

"طبعاً. إسأل."

"لماذا انفلتت أعصابك هكذا وانفجر كل غضبك في وجهي بهذا العنف؟"

هزّت كتفها في حيرة وحوّلت وجهها بعيداً وهي تقول:

"لا أعرف."

"لا بدّ من سبب لذلك."

أخذت نفساً جديداً من سيجارتها وقالت ببطء:

"أظن أنني أحسست بالحرج."

"ممّ؟ من أي شيء؟"

"من تصوّرك أنني مسيحية. لأنني لست كذلك. عائلتي مسيحية أما أنا فلم أقبل أبداً أن أكون مثلهم. كنت أتبعهم وأقلّدهم وأنا طفلة، ثم وأنا بنت صغيرة. لكنني أبداً لم أؤمن بما يؤمن به أبي وأمي. هذا أحد الأسباب التي جعلتني أترك البيت."

"ومنذ متى تركت البيت؟"

قالت وهي تتنهّد:

"منذ مدة طويلة. منذ أن أنهيت دراستي الثانوية وخرجت لألتحق بالجامعة."

"ولم ترجعي إلى البيت منذ ذلك الوقت؟"

"لا."

"هل تشتاقين إلى والديك، وأصدقائك، وبيتك، وبلدك؟"

صمتت داليا وأخذت تفكر لبعض الوقت، ثم أجابت:

"في الحقيقة نعم. أحسّ بالشوق لذلك كله. نعم."

نظر إليها طارق باهتمام وقال:

"فلماذا لا تعودين؟"

تنهّدت بعمق وقالت في أسى:

"لأن أبي رجل مستبدّ ومتحكّم. طاغية."

"طاغية؟"

"نعم، هو يطبّق كل التعليمات، والقوانين، والشرائع الدينية على الجميع. هذه طريقته وأسلوبه وحياته. قررت ألا أخضع لذلك وألا أسلك في ما يحدده لي ويرسمه. خرجت وهربت وابتعدت ولن أرجع أبداً."

"أية قوانين؟ أي نوع من التعليمات؟"

سألته داليا:

"وهل هذا يهم؟ هل يهمك أن تعرف؟"

ثم قامت فجأة بحركة فيها كثير من الرفض والتحدّي والثورة، ودخلت غرفة النوم وارتمت على السرير بعنف وهي تقول باحتجاج:

"قوانين. تعليمات ومحظورات وممنوعات. ممنوع الخروج مع الشبان. ممنوع شرب الخمر. ممنوع تعاطي المخدرات. هذا ممنوع وذاك ممنوع. إعملي هذا

ولا تعملي ذلك. لا. لا. لا. كله لا."

لحق بها طارق في السرير واستلقى على ظهره وقال وهو ينظر إلى سقف الحجرة:

"ماذا تتوقّعين منه أن يفعل غير ذلك؟ ويقول غير ذلك؟ هو والد... أب... وهذا واجبه وواجب كل الآباء أن يفعلوا ذلك؛ يحمون أولادهم... يحمون بناتهم... هذا واجب كل أب وأم. منذ أن خُلق الإنسان وحتى اليوم. واجب أبوي."

قالت في احتجاج:

"هيه. في أي جانب أنت؟"

"إسمعي. حين تكونين أماً ولك ابنة يوماً ما، هل تتصوّرين أنك ستدعينها تدخّن وتسكر وتخرج مع أولاد مثلي؟"

بهدوء حوّلت داليا وجهها نحوه وابتسمت وقالت مازحة:

"قد لا أسمح لها بأن تخرج مع أولاد مثلك. لا."

ابتسم لها طارق ثم أخذ يتقدّم إلى الأمام وقد بدأت خطة تتكوّن في ذهنه؛ نظر إليها باهتمام وهو يسأل:

"هل حقاً أبوك كاهن؟"

أجابته وهي تفكّر:

"قس. راعي. آه، نعم نوع من الكهنة طبعاً. أظن ذلك."

"وما الفرق؟"

"ليس كبيراً.

سأل مستفسراً:

"هل يعني أنه يرئس كنيسة؟ وعنده جمهور يحضر ويعظهم عن المسيح؟ ويهتم بالفقراء ويقوم بخدمة الشعب؟ أشياء كهذه؟"

هزّت رأسها بالإيجاب وهي تقول:

"نعم. أشياء كهذه."

"فما هي كنيسة البتراء الكتابية هذه؟"

"هي الكنيسة التي نشأت فيها. والدي قس هذه الكنيسة ويرعاها من قبل أن أولد."

"وهل هي كنيسة كبيرة؟"

هزّت رأسها وكتفيها في عدم مبالاة وهي تقول:

"الكنيسة تكبر وتنمو عاماً بعد عام. حين كنت صغيرة كان عدد الأعضاء الذين يحضرون ما يقارب الثلاثين أو الأربعين وكلهم كبار... لم يكن بها أحد في مثل سني. لكنها الآن كبرت كما سمعت. هناك مئة وخمسون عضواً أغلبهم من الشباب والعائلات. وأيضاً هناك كثير من الأولاد والبنات."

"وهل تعرفت على كليم هناك؟ في الكنيسة؟"

"أبداً."

سألها باهتمام:

"فأين التقيت به؟"

"في الكلية. في السنة الثانية من الدراسة. ذهبت أنا وبعض صديقاتي إلى باريس في رحلة والتقيت به في مقهى هناك."

"ثم؟"

نظرت إليه في دهشة وهي تجيب سؤاله:

"ثم ماذا؟ أُعجب بي وأُعجبت به، ثم بدأنا نلتقي معاً. لم تنجح علاقتنا. هذا كل ما حدث."

"وهل انقطعت علاقتكما بسبب والدك؟ يبدو لي أن والدك كان له يد في ذلك."

"نعم. أبي كان يكرهه."

توقّفت قليلاً ثم فكرت وصححت كلامها:

"لم يكرهه بمعنى الكراهية. لا أظن أبي يكره أحداً. لكنه قطعاً لم يوافق عليه."

"لماذا؟"

"لأنه لم يكن مسيحياً. الحقيقة أنه لم يكن أي شيء. لم يكن يهتم بشيء. وطبعاً لم يهتم بالدين. هذا لم يُعجب أبي أبداً. منذ طفولتي وأبي يصرّ أنني يجب أن أتزوّج شاباً مسيحياً. هذا رأيه النهائي الذي لا يقبل أي مناقشة فيه."

"ما دمت تعرفين ذلك، لماذا كنت تتقابلين مع كليم وتخرجين معه؟"

"أنا لا يهمني رأي أبي في موضوع زواجي. ليقل ما يقول ويظن ما يظن." ثم أضافت في تحدّ واضح وتصميم قوي:

"سأتزوج مَن أريد أن أتزوّجه سواء أعجب أبي أو لم يعجبه. إنها حياتي أنا وليست حياته. زواجي شيء خاص بي. يخصّني أنا. لا يخصّه هو. وحتى بعد زواجي، لن أسمح له بأن يتحكّم في تصرّفاتي وسلوكي وحياتي، بما يضعه من تعليمات وقوانين... هه... إسمع... دعنا نتحدّث في موضوع آخر غير موضوع أبي، وغير موضوع صديقي القديم. هذا الحديث لا يرضيني ولا أحب الكلام فيه."

"طبعاً. طبعاً."

قال ذلك وهو يفكّر في خطته التي انبثقت في ذهنه وهل يمكن أن ينفّذها أم لا. سألها:

"هل أنت جائعة؟"

"جداً. أكاد أموت جوعاً."

"وأنا كذلك. تعالي ننزل ونتناول فطورنا. ثم هناك هدية أريد أن أقدّمها لك."

لمعت عينا داليا وهي تسأل في حماس:

"حقاً؟ ما هي؟"

"ستعرفين حالاً. ستعرفين كل شيء في وقته."

الفصل السابع والثلاثون

أنهى لوميه وجودار الإجراءات التي كان عليهما القيام بها في المغرب ثم غادراها إلى مصر. ما إن هبطا في مطار القاهرة الدولي حتى اتجها إلى مدير الأمن. قضوا ساعات وهم يراجعون تسجيلات كاميرات المراقبة وأجهزة الكمبيوتر وما عليها من بيانات جوازات سفر القادمين. كانوا يفتشون بكل تدقيق عن دليل يؤكد لهم وصول مروان عقاد إلى القاهرة. من تجاربهما السابقة في مطاردته اتفقا على أنه لن يستخدم اسم جاك كارديل مرة أخرى في رحلته هذه. أخذا يحللان الموقف. أي اسم استخدمه هذه المرة؟ ولو كان قد استخدم ذلك الاسم، هل لا يزال يقيم في مصر؟

أرسل لوميه فريق بحث إلى الإسكندرية بعد أن كان قد أرسل آخرين إلى الكويت وأبو ظبي في محاولة للعثور عليه بسرعة. لكنه في الوقت نفسه يشعر كما قال لجودار أنه لا بد من أن يكون في القاهرة الكبرى وهذا يستدعي بذل جهود كبيرة للتوصل إليه.

دقّ جرس تليفون جودار، ولما نظر إلى الشاشة عرف أن المتحدّث هو مساعدته دوقال. أمسك السماعة وقال:

"قولي لي يا كوليت إنك قد وجدت شيئاً جديداً."

بدأت تتكلم بحماس وقالت:

"نعم. عندي أخبار تبدو مهمة ومثيرة."

"عرفت مكان مروان عقاد؟"

"لا يا سيدي. لا."

بادرها في لهفة:

"فماذا لديك؟"

"هل تذكر شريط الفيديو الذي صُوِّر داخل شقة رفيق رمزي في مونت كارلو؟"

"أذكره."

"وهل تذكر أن مروان عقاد أخرج شيئاً من ظرف أصفر أراه لرفيق رمزي؟"

"طبعاً أذكر ذلك جيداً. كانت هناك صورة ما."

"تماماً يا سيدي."

"ماذا عن تلك الصورة يا كوليت؟"

"الفنيون في المعمل استطاعوا أخيراً استخدام الكمبيوتر للتدقيق في الصورة وتحليلها. ولن تصدّق ما وصلوا إليه. خمّن!"

لم يكن لدى جودار الوقت أو الصبر. كان عليه أن يعود إلى بيروت ليحقق مع رامي عقّاد. كان متوتّراً مشدوداً فصاح فيها:

"ماذا؟"

"هي صورة كلوديت رمزي. التقطتها إحدى كاميرات المراقبة في أحد البنوك في ساو پاولو في البرازيل."

فوجئ جودار بما سمع ما جعله لا يستطيع الكلام. كان يستمع إلى المكالمة وهو في غرفة يجلس فيها لوميه وآخرون من رجال الأمن المصريين والمباحث الجنائية. اعتذر لهم وخرج. فهذا شأن يخصه وحده ولا يريد إقحام لوميه فيه. دلف إلى بهو خارجي ليتمكن من الحديث بحرية مع مساعدته:

"تقولين كلوديت رمزي؟ هل أنت متأكدة من ذلك يا كوليت؟"

"هي بعينها. الصورة مطابقة تماماً لصورها التي عندنا. والأهم أن في أسفل الصورة تاريخ التقاطها وزمنها بالساعة والدقيقة والثانية. كما يوجد أيضاً على

حائط خلف كتفها الأيسر بالصورة اسم البنك وشعاره واضحين. أرسلت لك رسالة إلكترونية بالتفاصيل."

وجد جودار صعوبة في تصديق ما يسمعه من أخبار. هذا تحوّل كبير في اتجاه التحقيق. ماذا يعني هذا؟ لا يجد تفسيراً لذلك بسهولة. لم يسعفه ذهنه بالسبب، ولم يهده تفكيره إلى شيء. وجّه سؤاله إلى دوڤال، فهي قادرة على الاستنتاج والتحليل. لكنها قالت متردّدة:

"لا أعرف. أنا مصدومة ومتحيّرة مثلك."

ضغط عليها جودار في إصرار:

"ماذا تظنين في ذلك؟ فكّري معي. حدّثيني بما تتصوّرينه."

قالت ببطء وتمعّن:

"حسناً يا سيدي. هذا يعني أن مروان عقاد كان يعرف أين توجد كلوديت رمزي. يعرف مكانها. ولا بد من أن له يد في عملية خطف كلوديت وابتزاز رفيق رمزي. وإلا لماذا جاء بتلك الصورة؟ وماذا كان يريد من عرضها عليه؟"

حاول جودار أن يفكر في الموقف بعد هذا التغيير الكبير الذي حدث في القضية، وينظر إلى الأمور من زاوية جديدة، ثم قال:

"قد يكون كذلك. لكن هناك شيء غير واقعي وغير مقنع في تفسيرك. مروان له يد في الاختطاف والابتزاز؟ لا."

"لم لا؟"

مرّ جودار من باب أمني في صالة المطار ودلف إلى قاعة السفر وهو يفكّر فيما قالته دوڤال. لم لا؟ نعم. لم لا؟ يحتاج إلى وقت ليفكّر بعيداً بقدر الإمكان عن المفتّش لوميه. هذا التحوّل طريق جديد قد يقود إلى حلّ اللغز، وعليه أن يكتشف ويلمّ بكل أبعاده قبل أن تصل الأخبار إلى الشبح لوميه ويتدخّل في الأمور بأسلوبه الاستفزازي. وقف أمام ركن الصحافة وأخذ يستعرض بنظرة سريعة العناوين الرئيسية في الجرائد المعروضة. صباح الغد

ستحمل كل تلك الجرائد في صفحاتها الأولى صورة مروان عقاد، وسوف تُنشر قصة الجرائم الدموية التي حدثت ما بين موناكو والمغرب. في الساعات الأربع والعشرين القادمة سيعرف كل سكان مصر قصة مروان عقاد ويتعرّفون على صورته، ولن تكون أمامه الفرص للهرب. اشترى جودار فنجان قهوة من مقهى داخل القاعة واستمر في سيره وهو يرتشف القهوة مفكراً.

مرة أخرى تحدّث مع دوڤال وهو يسترجع أحداث القضية محاولاً أن يصل إلى حلّ يرضيه:

"كوليت. لو كان لمروان عقاد يد في عملية اختطاف كلوديت، فلماذا ذهب إلى شقة رفيق رمزي ليقابله وجهاً لوجه؟ لماذا يكشف هكذا عن نفسه، ويعلن له مؤامرته، ويكشف أوراق اللعبة كلها؟ كيف يذهب إلى رجل من أغنى الرجال وأكثرهم نفوذاً وقوة؟ هو ليس على هذه الدرجة من الغباء حتى يفعل ذلك؟ ثم كيف يتمادى في ذلك ويتورّط حتى يتم اغتيال الرجل أمامه وتحت ناظريه وهو في الغرفة نفسها؟ كيف يحدث ذلك؟ أي منطق في هذا؟ هل هذا معقول أو مقبول يا كوليت؟"

بعد صمت طويل بينهما قالت دوڤال:

"لعلّ مروان عقاد أراد بذلك أن يبعد عن نفسه شبهة اغتيال رفيق رمزي. وجوده معه قرينة تؤكد عدم قيامه بقتله. قد يكون ذلك هدفه. أليس هذا ممكناً؟"

واستمر جودار في مناقشته وهو يقول لها:

"ممكن. لكن ماذا عن القنبلة التي انفجرت في السيارة؟ كاد مروان أن يُقتل بتلك القنبلة التي فجّرت سيارة الأجرة. لماذا؟ وما تبرير ذلك؟ ومن الذي حاول قتله في فندق الميريديان في مونت كارلو؟ إذا كان مشتركاً في عملية الخطف والابتزاز والقتل، فكل هذا لا يقبله العقل. لا يقبله العقل!"

قالت دوڤال وقد بدا أنها استوعبت واقتنعت بمنطق رئيسها:

"لا يا سيدي. طبعاً هو غير معقول. لكن، لماذا كانت صورة كلوديت

رمزي معه؟ وماذا عن الفتاتين الممرضتين اللتين قتلهما في الدار البيضاء؟"

قال جودار معترضاً:

"التي نزعم أنه قتلهما. هذا ما يظنه لوميه ويتصوّره ولم تثبت صحته بعد."

واستمرّت تجادله:

"لكن يا سيدي، مع كل احترامي لك ولتحليلك، بصمات أصابع مروان عقاد كانت على كل شيء وفي كل مكان في شقة رانيا فواز. هذا يؤكد أنه كان هناك. عندها. في شقتها. وبصمات الأصابع دليل قاطع أكيد لا جدال فيه. بجوار ذلك لا يوجد دليل على أن أحداً غيره كان هناك. كيف تفسّر ذلك؟ أي استنتاج يمكننا أن نخرج به من ذلك كله غير أنه هو المسؤول عن جريمتي قتل الفتاتين كما يزعم الشبح؟"

الفصل الثامن الثلاثون

جلس مروان عقاد أو طارق جميل إلى مائدة الفطور المعدّة لاثنين في شرفة فندق ريتز كارلتون. أخذ يرسل بصره إلى صفحة مياه البحر الأحمر وهي تتلألأ تحت أشعة شمس الصباح في الوقت الذي يجلس فيه تحت ظلال النخيل الذي يغطي المكان. كان ينتظر داليا لتلحق به بعد أن انتقى إفطاره من الموائد المرصوصة التي تحمل أنواع الطعام الشهي. كان أمامه طبق من البيض، وآخر به فاكهة، وكوب عصير برتقال طازج، وفنجان قهوة. لكن لم تكن لديه أي شهية للطعام.

كان عقله مشغولاً تتزاحم فيه الأفكار وقلبه يخفق بسرعة وقوة، فإن لم تنجح خطته التي وضعها بدقة وحرص فلن يكون أمامه إلا اختيارات قليلة بديلة يقوم بها في وقت قصير وغال. أخيراً مدّ يده إلى شرائح البطيخ أمامه، إلا أنه ردّ يده مرة أخرى فلم يرغب في تناول شيء.

مر به أحد العاملين فناداه قائلاً:

"هل يمكن أن تحضر لي فنجان قهوة خال من الكافيين بدل هذا؟"

"بكل سرور يا سيدي."

تناول فنجان القهوة من أمام طارق وعاد بآخر. وبينما طارق يضع فيه بعض السكر والحليب وصلت داليا وهي تحمل طبقاً من الكعك مغطى بالفراولة والكريمة المخفوقة. وقف يرحب بها وساعدها في وضع ما تحمله على المائدة.

جلست فمال نحوها يطري جمالها وحسن اختيارها للإفطار. كان صادقاً في كل ما قاله. لم يجامل، لكنه كان يهدف لشيء ويسعى لغرض في نفسه. جاء الوقت لينفّذ ما يريد، ومع أنه كان منفعلاً ومتوتراً، لكنه لم يستطع الانتظار

أكثر. بدلاً من أن يعود إلى مقعده، ركع بجوار داليا وأمسك بيدها. نظرت إليه في دهشة وارتباك وقالت:

"طارق. ماذا تفعل؟ تعال عد إلى مقعدك وأكمل تناول إفطارك."

"هذا أهم من أي طعام!"

وبينما كانت تستعد لأن تطلب منه التوقّف عما يفعل وأن يتصرف بتعقّل، وهما في ذلك المكان العام، رأت فجأة في يده علبة صغيرة مخملية. ثم رأته يرفع الغطاء ليكشف عن خاتم ماسي رائع وثمين، لم ترَ مثله من قبل. لم يسبق أن وقعت عيناها على خاتم بهذا الجمال ودقة الصنع، ولا على ماسة بهذا الحجم الكبير والنور ينعكس عليها بهذه الروعة. خطف الخاتم بصرها. عبّرت نظرة عينيها عن الدهشة والفرحة والبهجة. بدأ يقول متلعثماً والكلمات تخرج متعثّرة غير واضحة، لكنه استعاد توازنه وقال:

"داليا. أعرف أن هذا حدث بسرعة، لكنني أحبك كما لم أحب أحداً من قبل. أحبك أكثر مما كنت أتصوّر أن في استطاعتي أن أحبّ بهذا القدر. قد يبدو ذلك سريعاً. نعم هو سريع فعلاً. لكن حين يعرف الإنسان أن ما يفعله هو الصواب. فلماذا الانتظار؟ أريد أن أقضي بقية حياتي معك. داليا أريد أن أجعلك أسعد امرأة في العالم. وأنت أيضاً ستجعلينني أسعد رجل في العالم إن أصبحت زوجة لي. داليا نور. هل تقبلين أن تتزوجينني؟"

أخذت داليا تحملق في الجوهرة الكبيرة التي تومض وتخطف البصر من انعكاس أشعة الشمس عليها وهي تتمتم وتقول في تردّد:

"طارق. أنا. لا أعرف ماذا أقول. هذا كله يجري بسرعة. ماذا أقول؟ كلّمتك بقسوة وخشونة! لم أكن مهذبة معك ونحن في الغرفة وأنت تسألني سؤالاً عادياً لم يكن يستحق ذلك كله. كيف تقبل بعد تصرف سخيف كهذا أن تطلب الزواج مني؟"

في ابتسامة كلها رقة ولطف قال:

"لأنكِ قدري. أنتِ الوحيدة التي أريد أن أعيش معها إلى الأبد."

ثم أضاف ضاحكاً مازحاً:

"ماذا تقولين في ذلك؟!"

حوّلت عينيها عن الجوهرة ونظرت بعمق في عينيه وسالت دموعها. بدأت تبكي! مسحت دموعها بكفها وقالت:

"هذه أحلى كلمات سمعتها في حياتي يا طارق!"

ثم أضافت من بين شهقاتها قائلة في انفعال ظاهر:

"نعم. سأتزوجك يا طارق. يسعدني ويشرفني أن أكون زوجتك."

اندفعت نحوه لتقبّله لكنه صدّها بيده وهو يقول:

"انتظري."

وأمسكها بكلتي يديه يوقفها عن الارتماء في حضنه وأكمل:

"عندي شرط. هناك شرط واحد."

تراجعت في ذهول وارتباك وهي تسأله:

"شرط؟ أي شرط هذا؟"

سكت طارق ولم يردّ لحظة ثم أخذ نفساً عميقاً وهو يقول ببطء وإصرار:

"أن نذهب معاً إلى الأردن ونلتقي بعائلتك ونحاول أن نتصالح معهم."

تصلّبت داليا في مكانها وقالت في حيرة:

"لا أظن ذلك ممكناً. هذه ليست فكرة جيدة."

"يجب علينا أن نفعل ذلك. يجب أن نحاول يا داليا."

تنفّست بعمق واهتزّ صدرها والهواء يدخل رئتيها متقطّعاً ثم هزّت رأسها قائلة:

"قلت لك إن أبي رجل مستبد وقاسٍ. سيصرّ عليّ أن يعرف إن كنت

مسيحياً أم لا. فإن لم تكن كذلك سيلقي بك خارج البيت. وإن ادّعيت أنك كذلك سيعتصرك بالأسئلة ويستجوبك ويشوي لحمك ساعات وساعات ليكتشف حقيقتك. أنت لا تعرفه. لا تعرف والديّ! صدقني يا طارق، أنت لا تعرف ولن تريد أن تعرف."

قال بإصرار وحزم:

"آسف يا داليا! هذا موضوع غير قابل للنقاش."

سألته في دهشة مستنكرة:

"غير قابل للنقاش؟"

"تماماً. إسمعي. أنا لا أريد أن نتزوج في السر كما لو كنا نقترف ذنباً أو جرماً نخجل منه. أنا أريد بركة والدك. أريد كل أفراد عائلتك يباركون زواجنا."

ضحكت داليا بصوت عال في استبعاد وإنكار:

"حظاً سعيداً يا طارق. أتمنى لك حظاً سعيداً. لن يتم ذلك أبداً."

"صدقيني وثقي بي. أنا أستطيع أن أتعامل مع والدك جيداً وأكسبه."

"ولماذا تريد ذلك؟ أي فائدة تعود علينا من ذلك كله؟"

قال وكلماته تخرج صادقة عميقة مشحونة بالعواطف وهو يمسح وجنتها بيده:

"لأن إرضاء العائلة مهم جداً. الارتباطات والعلاقات العائلية أهم ما في حياة الإنسان. أنا مستعد أن أدفع أي شيء حتى عمري، لو أمكنني أن أستعيد والديّ. كم أتمنى لو عادا إلى حياتي مرة أخرى. ذلك مستحيل بالنسبة إليَّ، لكنه ليس مستحيلاً لك."

قالت له محذّرة وقد تأثرت من لهجة كلامه:

"أنت لا تعرف ماذا تطلب. لا تقدّره جيداً. لا تدرك فظاعة ما سوف تقحم نفسك فيه. صدقني أنت لا تفهم."

ربما كانت على صواب. هكذا فكّر طارق للحظة لكنها هي أيضاً لا تعرف

فظاعة ما سوف تقحم نفسها فيه معه. لا بد أن يخبرها بالحقيقة، كل الحقيقة عنه وعن الظروف التي تحيط به. لا بد من ذلك في الوقت المناسب. ليست الآن بالطبع. كل ما يريده الآن هو أن توافق. توافق أولاً على الزواج منه ثم الذهاب إلى البتراء في الأردن. وهناك في تلك البلدة الصغيرة الآمنة بعيداً عن لوميه وجودار وكلوديت رمزي وسفاحيها، هناك يمكن أن يبدأ التفكير في مصارحتها بحقيقته. يستعد ويرتّب الأمر ثم يقول لها الحق كله. كل الحق. ليس قبل ذلك أبداً.

سألته في اهتمام:

"وهل هذا يهمك؟ هل يهمك ذلك يا طارق؟"

نظر في أعماق عينيها وقال:

"جداً. يهمني جداً يا داليا."

قالت في استسلام مشوب بقلق وخوف:

"وهو كذلك. متى تريد أن تذهب؟ لا يزال لديّ بعض الوقت من دون عمل في إجازة رأس السنة الجديدة."

قال بسرعة:

"لا. هذا بعيد. لا يجب أن ننتظر حتى أول السنة. تعالي نذهب الآن. حالاً!"

اندهشت وتعجبت وأجابته:

"ماذا؟ الآن؟ أنت مجنون! لا يمكن أن نذهب حالاً هكذا."

"لم لا؟ دعينا نفاجئهم. ما دمنا اتخذنا القرار فلننفّذه بسرعة. صدقيني. هذه أفضل طريقة. سيفاجأون بك ويفرحون برؤيتك وسوف يشكرونني لأنني أخذتك إليهم فوراً وبلا تأجيل."

"لا أعرف." وقالت وهي تفكر قليلاً في اقتراحه العجيب السريع:

"عليّ أن أسافر في نهاية الأسبوع."

ضحك بسعادة وهو يقول لها:

"قولي لهم إنك سوف تتزوجين. لديك الحق في الحصول على إجازة لذلك. أليس كذلك؟ خذي إجازة. هذا حقك."

سألته في ارتباك وحيرة:

"لا أفهم. ما الداعي لهذه العجلة؟ لي خمس سنوات أو ست لم أرَ فيها والديّ. لماذا لا ننتظر ونؤجل ذلك بضعة أسابيع أيضاً؟ أحتاج لوقت أستعدّ فيه عقلياً وعاطفياً."

قال في إلحاح وإصرار:

"لا. قلت لك بأني أحبك ولا أستطيع أن أعيش من دونك. تعالي نعدّ حقائبنا ونسافر اليوم. تصوّري نظرات والديك إليك وأنت تقفين على باب بيتك وفي إصبعك هذا الخاتم."

ثم أخذ الخاتم بحرص من علبته وألبسه لها برقة. كان رائعاً في يدها وكانت هي أيضاً جميلة رائعة وهي تلبسه. بعد لحظة شعرت كأنها مخدّرة تسير منزلقة على سطح زجاجي. خارت مقاومتها، وذابت معارضتها، واستسلمت لأمره.

الفصل التاسع والثلاثون

ذهب طارق وخطيبته الجديدة إلى مكتب الاستقبال في فندق ريتز، وأعادا المفتاح، وسددا المستحق عليهما، واستقلا سيارة أجرة انطلقت بهما شمالاً إلى مدينة نويبع. تناولا طعام الغذاء، واشتريا هدايا لعائلة داليا، وتذكرتي سفر على العبّارة السريعة لتحملهما إلى ميناء العقبة في جنوب الأردن. انطلقت السفينة النفّاثة دقائق بعد الثالثة، ووصلت العقبة في ساعة واحدة، واستطاعا أن يصلا إلى البتراء في موعد العشاء. وقفا أمام المبنى الذي فيه الشقة التي عاشت فيها داليا طفولتها.

توقّفت داليا أمام المبنى وقالت للمرة المئة وهي مرتبكة ومنفعلة جداً:

"لا أظن يا طارق أن هذه فكرة صائبة."

ثم أخذت تشكو من تقلّصات وآلام في معدتها. ربّت طارق على كتفها ثم جذبها نحوه وهو يقول مهدئاً:

"كل شيء سيكون على ما يرام يا حبيبتي. صدقيني."

مد يده وحمل حقيبتها وهو يتمنى أن يكون ما قاله صحيحاً، وأن كل شيء سيكون على ما يرام فعلاً بلا مشاكل.

دخلا المبنى، وصعدا السلالم إلى الدور الخامس. وقفا أمام باب بيت داليا. كانت يداها ترتعشان بشكل واضح. أخرج طارق منديلاً قطنياً نظيفاً من جيبه ومسح قطرات العرق عن جبينها وشفتها العلوية. ثم همس لها:

"أنا أحبك يا داليا."

نظرت في عينيه تبحث عن شيء فيهما يبعث في قلبها طمأنينة وراحة،

فلما وجدت فيهما بريقاً يشع بالقوة والثقة قالت:

"وأنا أيضاً أحبك يا طارق."

ابتسم لها وأخذ نفساً عميقاً، ثم طرق الباب. سمعا صوت امرأة يأتي من خلف الباب يقول:

"نديم. هناك طرق على الباب. هل تتوقّع أحداً؟"

وجاء جواب رجل:

"لا. لكنني أتكلم في التليفون. هل يمكن أن تفتحي الباب؟"

"طبعاً. دقيقة واحدة. ها أنا قادمة."

همست داليا تقول:

"هذه أمي. اسمها ريما."

"وأبوك اسمه نديم؟"

"نعم. نديم نور."

اشتدّت قبضة داليا على ذراع طارق الذي لاحظ أنها لا تلبس الخاتم في إصبعها. كاد أن يعلّق على ذلك ويناقشها فيه، لكن الوقت لم يسمح بذلك. ثم لعلّ ذلك أفضل، فقد يكون نبأ خطبتهما صدمة لوالديها. الآن عليه أن يواجه معها أول ظهور لها أمام عائلتها بعد سنوات طويلة من الغياب.

فُتح الباب أخيراً، وظهرت الأم ريما. سيدة أنيقة المظهر، في منتصف الخمسينات من العمر، جسدها ممتلئ قليلاً، شعر رأسها أسود تتخلّله خصلات بيضاء حوّلته إلى لون رمادي يجعل ملامحها وقورة راقية مع آثار جمال وجاذبية لا تزال تحتفظ بهما. عيناها واسعتان جميلتان تشبهان عينا داليا تماماً.

وقفت وجها لوجه أمام ابنتها التي لم ترها منذ سنوات، وقد فوجئت برؤيتها هكذا فجأة. تأملت فيها وهي تفتح عينيها على اتساعهما. فقد غابت عنها طويلاً. رفعت يدها إلى فمها لتمنع صرخة كادت أن تفلت منه. ألجمت

المفاجأة لسانها وكأنها ترى شبحاً يقفز من بين طيات الماضي. وَمَضَتْ عيناها ورفّت رموشها وهي تفتحهما وتغلقهما في عدم تصديق، وعاد صوتها إليها وهي تسأل:

"داليا. أهذه أنت حقيقة؟"

"نعم يا ماما. أنا داليا. اشتقت إليك كثيراً."

لم تستطع داليا أن تكتم صيحتها وأمها تفتح لها ذراعيها وتحتضنها.

"يا طفلتي الصغيرة. يا حبيبتي. كم أنا مشتاقة إليك. افتقدتك جداً جداً. الله يباركك يا ابنتي. الله يباركك."

"أحبك يا أمي. أحبك يا ماما."

"وأنا أيضاً أحبك يا طفلتي. أحبك جداً يا ابنتي."

ألقت بنفسها على عنق ابنتها واحتضنتها. ذابتا الواحدة في حضن الأخرى وانفجرتا كلتاهما في البكاء. تراجع طارق ليفسح المكان لهما ليتعانقا. اهتزّ كل كيانه أمام ما يراه من حب ومشاعر تربطهما وتفصح عنها شهقاتهما وقبلاتهما ودموعهما. أيقظ مرآهما ما في داخله من شوق ووحشة إلى والديه خصوصاً أمه!

أخذ قلبه يخفق بشدة داخل صدره وشعر فجأة بأنه متطفّل لا مكان له بينهما. هو غريب لا ينتمي إلى هذا الجو العائلي الدافئ. ماذا لو رأته أم داليا السيدة ريما؟ ماذا تظن؟ ومن تتصوّره؟ ولماذا جاء إلى بيتها مع ابنتها؟ قد تفكر أنه سائق سيارة الأجرة التي أقلّت ابنتها إلى هنا، أو شخصاً استأجرته داليا ليحمل حقيبتها. ماذا ستقول حين يعرّفها بنفسه ويوضّح لها من هو ولماذا جاء، وماذا يريد؟ وأكثر من ذلك، ماذا سيكون موقف القس نديم نور منه حين يراه مع ابنته؟ هل هو كما قالت داليا، طاغية! جبار! مستبدّ! لا يرحم؟ لم يجد طارق إجابات للأسئلة التي تدور داخل عقله. هو بالكاد يعرف داليا ولا يعرف شيئاً عن والديها. لم تكن أمامه أية فرصة للتخيّل والتفكير فيما يمكن

أن يحدث. ما عليه إلا أن ينتظر ويرى ما سوف يحدث.

أخيراً، أخذت داليا تمسح دموعها بالمنديل الذي أعطاها إياه طارق، ثم تجفف دموع أمها التي أغرقت وجهها وقالت:

"ماما."

"نعم يا ابنتي."

"هنا شخص أريدك أن تتعرّفي إليه."

ابتسم طارق بودّ للسيدة ريما نور التي كانت تنظر وتحملق في وجهه وتقول معتذرة:

"ياه! لم ألاحظ. لم أعرف. حسبت أنه..."

"لا بأس يا ماما. لا بأس."

ومدّت يدها وأمسكت بيد طارق وقالت:

"هذا طارق جميل يا ماما. طارق هو الذي شجعني وأقنعني وساعدني أن أعود إلى هنا بعد غيابي كل تلك السنوات. له كل الفضل في عودتي إلى البيت."

نظرت إليه الأم باهتمام واعتراف بالجميل. صافحته بحرارة وهي تقول:

"حقاً؟! شكراً يا طارق جميل. أشكرك. أنت إذاً استجابة لصلاتي. تعال وادخل. تفضّل. سأعدّ الشاي حالاً يا بنيّ."

قال طارق وقد استراح قلبه قليلاً، وعلت وجهه ابتسامة كبيرة:

"شكراً لك يا سيدة نور. أنت لطيفة جداً يا سيدتي. أستطيع أن أفهم الآن من أين جاءت داليا برقتها ولطفها."

دخلا إلى الشقة خلف صاحبة البيت وما إن انتهيا من خلع أحذيتهما حتى دخل والد داليا من الداخل وهو يسأل:

"ريما. ما الذي يحدث؟ ماذا...؟

ما إن وقع نظره على داليا حتى توقّف ولم يكمل جملته. اغرورقت عيناه بالدموع، ثم وبدون كلمة فتح ذراعيه لابنته. اندفعت داليا من دون تردد وارتمت على صدره، واحتضنها وتحشرج صوته وهو يرحّب بابنته التي ارتفع صوت بكائها. قال وسط دموعه:

"ابنتي الصغيرة عادت إلى البيت. داليا حبيبتي رجعت إليّ. أخيراً عادت إلى حضني. أشكرك يا إلهي. شكراً لك يا يسوع. أنت فعلاً تسمع وتستجيب الصلاة. شكراً يا رب. شكراً. المجد لك. المجد لاسمك القدوس."

شعر طارق بغصة تملأ حلقه. لو لم يمسك نفسه وترك العنان لعواطفه لانفجر باكياً مثلهم. لم تمر إلا لحظات قصيرة منذ أن دخل هذا البيت، لكنه وجده بيتاً عامراً بالحب. حب لم يرَ مثله في أي مكان آخر من قبل. لم يتوقف القس نديم نور عن احتضان وتقبيل ابنته. كما أنه لم يتوقّف عن شكر الله وحمده وتمجيد اسم الرب يسوع.

بدا كما لو أن ابنتهما قد عادت إليهما من الموت... قامت من الموت، وخرجت من القبر، وعادت إلى البيت.

لحظات طويلة مرّت قبل أن تقول الأم:

"داليا."

مسحت داليا دموعها حتى تستطيع أن ترى وجه أمها بوضوح، ثم قالت:

"نعم يا ماما."

فهمت داليا إشارة أمها وتحرّكت نحو والدها، وأخذت تمسح دموعه بالمنديل القطني المبتلّ في يدها وهي تقول:

"بابا. أريد أن أقدم لك الرجل الذي كان له الفضل في عودتي إلى هنا. طارق جميل. هو الذي أصرّ على أن أعود إلى البيت، وأن أتمتع بالوجود معكما مرة أخرى. كنت دائماً أريد ذلك. لكن... لكني كنت خائفة! نعم،

كنت أخشى أن لا تقبلانني! أو لم أكن متأكدة ماذا ستفعلان حين تريانني عائدة إلى البيت. كنت أعرف أنكما غاضبان منّي. لم أكن أدرك مقدار غضبكما ورفضكما لي. لكن طارق، طارق قال إنه ليس هناك أهم من العائلة. وعرض عليّ أن يرافقني إلى هنا ليطمئن على سلامة وصولي."

نظر نديم نور في عيني طارق بتمعّن وثبات. ارتبك طارق من نظراته الثاقبة. توقّع أن يرى في عينيه غضباً واتهاماً وإدانة. كان يعد نفسه لذلك الموقف طول اليوم، لكنه وجد في عيني الرجل نظرات شكر وامتنان ومحبة أبوية، وقال:

"لم تتح لي الفرصة بعد لأعرفك أيها الشاب. لكنك جئت لي اليوم بهدية ثمينة. لقد أعدت لي ابنتي بعد غياب طويل. وأنا لذلك شديد الامتنان لك يا بنيّ. الرب يباركك. أرجو منك أن تتعشى معنا الليلة وتبيت في بيتنا. بيتنا بيتك. إبقَ معنا على الرحب والسعة."

امتلأ طارق بالدهشة. دهشة أفقدته القدرة على الكلام أو الرد على دعوته، لما وجده فيه من حرارة، وترحيب، وانفتاح، وكرم، وضيافة، وأخيراً وجد أنه يستطيع أن يتنهد بارتياح. لكنه في الوقت نفسه لم يستطع أن يتخلص من التفكير في الألغام المنثورة في طريقه، ويتذكر من يطاردونه ويقتفون أثره، ما جعل أمعاءه تتلوّى داخله، ومعدته تتقلّص ويعود إليه ما كان يشعر به من آلام.

الفصل الأربعون

جلس المفتش جودار في مكتب صغير وأمامه رامي عقاد في مركز الشرطة الرئيسي وسط بيروت ليستجوبه.

كان في يده سيجارة يدخنها من دون أن يعرض واحدة على رامي. كذلك لم يعرض عليه أن يشرب قهوة كتلك التي يرتشفها من فنجان أمامه. نظراته وتصرفاته فيها عنف وقسوة وهو ينتظر أن ينتهي أحد الفنيين من تركيب جهاز كشف الكذب حتى يتمكن من استخلاص ما يستطيعه من معلومات عن أخيه مروان عقاد في أسرع وقت ممكن. بعد أن أتم الفني مهمته وأخبره بأن الجهاز قد تم إعداده وتشغيله، أخذ جودار أيضاً يشغل جهازاً لتسجيل كل أقوال رامي حتى لا يضيع منها شيء.

بدأ جودار استجوابه فسأله:

"مرة أخرى وحتى تكون الأمور واضحة ومن دون سوء فهم أنت تعلم أنك تحت القسم. هل هذا مفهوم؟"

هزّ رامي رأسه. فبادره جودار قائلاً:

"أريد إجابات مباشرة وصريحة بنعم ولا. وتكلم بوضوح ونطق سليم حتى يكون التسجيل واضحاً ومفهوماً."

"حسناً. نعم... أنا تحت القسم."

استمر جودار يوجّه إليه الأسئلة بشكل هجومي وبتتابع كطلقات رصاص:

"انتبه جيداً وأجب. اسمك هو رامي عقاد."

"أنت تعرف ذلك."

"نعم أم لا؟ أجب بنعم أو لا."

"فلتكن نعم إذاً."

"هل أنت شريك في شركة عقاد وشركاه؟"

"طبعاً."

"قلنا الإجابة تكون بنعم أو لا."

"نعم."

"وهل عمل الشركة هو حراسة رجال الأعمال؟"

"لا. هي شركة للعطور وأدوات التجميل." قال في تحدّ وسخرية، فصرخ جودار بغضب:

"يبدو أنك لا تدرك خطورة الموقف يا رامي عقاد. أستطيع بكلمة واحدة أن ألقي بك في السجن إذا لم تجبني بأدب واحترام. كما أستطيع أن أسجنك لأي كذبة تنطق بها. لو شئت النجاة من السجن، عليك أن تعدّل من موقفك وتتعاون معي وإلا أذقتك العذاب. مفهوم؟"

هزّ رامي كتفيه مرة أخرى.

"والآن. هل تقدم الشركة خدمات لحراسة رجال الأعمال في الشرق الأوسط؟"

"نعم."

"وهل الشريك الآخر هو أخوك؟"

"نعم."

"وهل استأجره رفيق رمزي لكشف سر مقتل ابنته واختطاف زوجته؟"

"نعم."

"وهل نص العقد بين الشركة ورفيق رمزي على الحصول على نصف مليون يورو مع المصاريف مقابل ذلك؟"

صُعق رامي لما يقول وسأله:

"كيف أمكنك أن...؟"

قاطعه جودار وقال بخشونة:

"إجابات بنعم ولا فقط. ولا تنس أنك تحت القسم."

أجابه رامي بحزم وتأكيد:

"نعم."

"هل كان مروان عقاد متورّطاً بأي شكل من الأشكال في قتل ابنة رفيق رمزي واختطاف زوجته؟"

"لا."

"وهل حاول ابتزاز رفيق رمزي؟"

"لا."

"وهل يحاول الآن ابتزاز عائلة رفيق رمزي؟"

"لا."

"حقاً؟!"

قال جودار ذلك في سخرية. ثم وقف وأخذ يدور في الغرفة بخطوات بطيئة قصيرة ثم أضاف:

"إذا كان هذا صحيحاً، فهل كان أخوك يعرف يوم قام بزيارة رفيق رمزي في مونت كارلو أين كانت كلوديت رمزي وقتها؟ في أي بلد كانت؟"

كان الهجوم عنيفاً ومفاجئاً، لكن رامي عقاد أغلق عينيه ولم يجب.

تابع جودار أسئلته الصاروخية وهو يضغط على الكلمات:

"ماذا؟ رد؟ هل كان يعرف أين هي؟"

مرة أخرى لم يجب رامي سؤال جودار فصاح الأخير فيه مهدداً:

"لا تتهرّب ولا تتخابث. اسمع يا رامي. إما أن تجيب عن أسئلتي وتتعاون معي أو تُلقى في السجن. افهمني جيداً. إه. مرة أخرى أسألك: يوم أن قُتل رفيق رمزي، هل كان أخوك يعرف أين كلوديت رمزي وفي أي بلد تختفي؟"

"نعم."

"هل كانت في البرازيل؟"

مرة أخرى صُعق رامي لما لدى جودار من معلومات، وقال بتردّد:

"نعم."

"هل كان مع مروان صورة لكلوديت رمزي وهي في بنك في ساو پاولو؟"

"نعم."

"هل كان مروان يعرف رقم الحساب الذي كانت كلوديت رمزي تستخدمه؟"

"في ذلك الوقت، نعم. لكن... لأنه."

"نعم أو لا. فقط يا رامي."

"فنعم."

"هل يعمل لحساب شركتكم حوالي اثنا عشر رجلاً مرابطين في الجبال المتاخمة لساو پاولو؟"

لم يجب رامي عقاد. لكن جودار فهم أنه قد ضيّق عليه الخناق وأخرج منه ما يريد. توقّعه كان سليماً، ومصادر معلوماته صحيحة، وأن عليه أن ينقضّ عليه ويصرعه تماماً. تابع هجومه قائلاً:

"رامي. قل لي: هل هذا صحيح؟"

"نعم."

"وهل هؤلاء الرجال مسلحون؟"

"نعم."

"وهل اتصلوا بك هذا الصباح ليسألوك ماذا تريدهم أن يفعلوا بكلوديت رمزي؟"

نظر جودار إلى رامي ووجد على وجهه نظرة فزع أسعدته جداً. أجاب رامي متلعثماً:

"أنت لا تفهم. أنت لا... أنا لا."

"هل هذا ما قالوه لك صباح اليوم؟ ماذا تريدنا أن نفعل بكلوديت رمزي؟"

"هل كنت تتنصّت على تليفوناتي؟"

"نعم. نحن نتنصّت على تليفوناتك. هل هذا ما قلته لهم؟"

"نعم."

"هل أجبتهم قائلاً: لا شيء بعد. الأمر معقّد. سأتصل بكم في أقرب وقت؟"

"نعم. هذا كان جوابي."

"رامي عقاد. هل أنت وأخوك مدبرا مؤامرة اختطاف كلوديت رمزي؟"

صاح رامي مؤكداً جوابه:

"لا."

"هل انفردت أنت وحدك بتدبير خطة الاختطاف؟"

"لا."

"حقاً؟ لكنك تعرف أين هي طبعاً."

"نعم."

"ورجالك لن يدعوها تترك البيت الذي تقيم فيه."

"هذا صحيح."

"وتريدني أن أصدق أنك أنت وأخوك بريئان من ذلك كله؟"

"تماماً."

"هذا صعب. اسمع يا رامي عقاد. دعني أسالك سؤالاً آخر: هل كان أخوك مروان في الدار البيضاء في المغرب الأسبوع الماضي؟"

"نعم."

"هل ذهب للقاء امرأة اسمها رانيا فواز. امرأة سبق أن رفضت عرضه للزواج منها؟"

"نعم."

"وهل تعلم أن رانيا وزميلتها في السكن قد قتلتا؟"

"نعم. لكن مروان لا يد له في ذلك. أنت مخطئ في ظنك هذا."

في هياج شديد وبصراخ عال قال جودار وهو لا يريد أن يتزحزح عن موقفه الذي وصل إليه في الاستجواب:

"أسكت. يجب أن تجيب وترضخ لأوامري، وتنفّذ تعليماتي بدقة، وإلا سأجعلك تقضي هذه الليلة في السجن. هل تسمعني؟"

ضم رامي ذراعيه على صدره وانتظر وبادره جودار بسؤاله:

"هل لا يزال أخوك مروان في مصر؟"

استمع إلى السؤال وبقي صامتاً وقد ظهر عليه التحدي وعدم الرغبة في البوح بشيء آخر. بعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد لم يعد يخشى شيئاً أسوأ.

بادره جودار بالسؤال مرة أخرى:

"هل أخوك في القاهرة؟"

ومرة أخرى لم يجب رامي على سؤاله فاندفع جودار يقول:

"هل ترك أخوك مصر وانتقل إلى بلد آخر؟"

أقفل رامي فمه بعناد وصلابة، ورفض بإصرار أن يجيب ما أثار غضب جودار، فصاح في وجهه قائلاً:

"أخوك مروان مطلوب القبض عليه بتهمة القتل، وسوف نعثر عليه في أي مكان يختفي فيه. سوف نجده ونقبض عليه، ولا أستطيع أن أضمن لك أننا لن نطلق الرصاص عليه حين نراه. فإذا كنت تريد أن ترى أخاك حياً مرة أخرى، فلا بد من أن تتعاون معي وتجيب عن كل ما أوجهه لك من أسئلة. إلى أن تفكر في ذلك وتقرر الاستجابة سوف ألقي بك في السجن. هناك فرصة لأن تفكر في هدوء."

الفصل الحادي والأربعون

نديم نور رجل طويل، جسده ضخم، رياضي، عيناه واسعتان، وشعره غزير بني اختلط باللون الأبيض في أغلب رأسه وسوالفه. كان يضحك وهو يتكلم وقد اختفت دموعه وبدأ طارق يشعر بالارتياح في جلسته معه.

أخذت السيدة ريما نور تعدّ طعام العشاء. الشقة التي يسكنون فيها بسيطة متواضعة فيها ثلاث غرف نوم ومطبخ صغير، لكن في القاعة الكثير من المقاعد والأرائك تسع ما بين خمسة عشر وعشرين فرداً من الضيوف. كانت الجدران مغطاة من الأرض حتى السقف بالكتب المرصوصة على الرفوف. عدد كبير من الكتب لم ير مثلها طارق إلا في مكتبة الجامعة. بجوار الكتب كانت هناك صور عائلية وكنسية لمناسبات خاصة على مدى سنوات كثيرة ماضية.

أخرج القس نور ألبوماً لصور داليا وهي طفلة، ثم وهي بنت صغيرة وكبيرة حتى المرحلة الثانوية، ثم صورة التخرّج. وبعد ذلك أخرج صور تخرّج شقيق داليا الياس في نهاية المرحلة الثانوية. ثم وهو يلتحق بكلية الطيران الحربي في الجيش الأردني. الياس طيار مقاتل أتم دراسته في الكلية الملكية البريطانية في إنجلترا. وقد تقدّم حتى أصبح جندياً، ثم طياراً، ثم ضابطاً في القوات المسلحة الملكية الأردنية. أدرك طارق من نظرات داليا أنها تفتقد أخاها. كانت تعتذر بندم طوال الوقت لابتعادها عن العائلة وعدم قيامها بالرد على خطاباتهم ورسائلهم الإلكترونية. إلا أن أباها لم يعر ذلك اهتماماً فكان سعيداً بعودتها وكان يقول:

"هذا موضوع ألقينا به خلف ظهورنا يا حبيبتي."

كان صوته يعكس مشاعره نحو ابنته الوحيدة وقد لفّ ذراعه من حولها

وجذبها نحوه:

"إذا كان يسوع يغفر لنا، كيف لا أغفر لك أنا أيضاً؟ هل تذكرين ماذا يقول الكتاب المقدس عن ذلك في مزامير داود النبي: «**لأَنَّهُ مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الأَرْضِ قَوِيَتْ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ. كَبُعْدِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَبْعَدَ عَنَّا مَعَاصِيَنَا. كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ.**»

أجابته داليا بخجل قائلة:

"شكراً لك يا أبي. أنا أقدّر ذلك جداً. شكراً لك."

تعانق الاثنان بعد ذلك وخرجت السيدة ريما نور من المطبخ وقدّمت لهم القهوة وعدداً من الأواني والأطباق فيها أنواع كثيرة من المكسرات والفاكهة. بعد قليل تحرّك جميعهم إلى قاعة الاستقبال وهم يمررون الطعام ذات الرائحة الجميلة من المطبخ إلى غرفة الطعام.

نظر طارق إلى إناء كبير فيه لحم وأرز وسأل:

"أليس هذا طاجن من لحم الضأن المغربي؟"

قالت السيدة نور بسرعة:

"هو كذلك. ألا تحبّه؟"

"أحبّه جداً. هذا كان..." وتوقف، فقد كان مزمعاً أن يقول أنه كان الطعام المفضل لرانيا. لو كان قد أكمل جملته لوجد نفسه في موقف حرج لا داعي له.

سأله نديم نور بابتسام:

"كان ماذا يا طارق؟"

تدارك الأمر بسرعة وقال متحايلاً هارباً من التعليق الذي كان سيجر عليه المتاعب:

"كان. كان لي عميل قديم بمراكش، وكلما كنت أذهب إلى هناك كان يدعوني إلى بيته حيث تطعمني زوجته من هذا الطعام الوطني الذي يسيل له

اللعاب."

انسابت الكلمات مندفعة من فمه كاندفاع أمواج آثمة تحمل تبريرات خادعة كاذبة. في بيت رجل بار، رجل من رجال الله الأتقياء! ها هو من أول ساعة بدأ يكذب. أدرك أنه مهما كان المكان أو الموقف أو من يخاطبهم من الناس فسوف يكذب. لن يتوقف عن الكذب. حياته كلها حتى الآن كذبة كبيرة.

علقت السيدة ريما نور على كلامه قائلة:

"وهذه يا طارق هي الوجبة المفضلة عند داليا."

ثم بدأت دموعها تنهمر وهي تقول:

"منذ أن تركت داليا البيت لم أقدّم هذه الوجبة لأحد. لكن..."

لم تستطع أن تكمّل بعد أن تغلبت عليها عواطفها فمسحت دموعها واعتذرت، ثم أسرعت خارجة إلى المطبخ. أدرك طارق مما سمعه شيئان: فهم مقدار الألم الذي كانت تشعر به السيدة نور لغياب ابنتها عنها طوال تلك السنوات. الشيء الثاني أنه اكتشف أنه لا يعرف إلا القليل عن داليا؛ ما تحبه وما لا تحبه. لا يعرف الأكلات المفضلة لها، ولا الموسيقى التي تحبها، ولا الأفلام التي ترغب في مشاهدتها، ولا البرامج التلفزيونية والعروض. حتى الأماكن التي ترتادها، وكل ما في حياتها من أمور مهمة يجهلها تماماً. كل ما يعرفه في ذلك أنها تحب أدب نجيب محفوظ وأنها مغرمة بالسفر، ويعلم أيضاً أنها تحبه. هذا كل ما يعرفه عنها.

أدرك أنه يجب أن يبتعد الحديث قدر الإمكان عن علاقتهما معاً مهما كلّفه الأمر. لم يكن الوالدان على استعداد لسماع خبر ارتباطهما وخطبتهما. من السابق لأوانه جداً أن يتحدث عن ذلك. سيحاولان أن يعرفا كيف التقى بها ولن يكون من السهل أن يقول إنه التقى بها في البار في حفلة صاخبة على سطح المنزل حيث شربا مسكراً ودخّنا مخدرات. سوف يحاولان معرفة كم من الوقت مضى عليها منذ تعرّفا على بعضهما وسوف يصعب عليه أن يقول إنه لم

يقض معها إلا ساعات وأياماً قليلة، لا شهور وسنوات. إن خطته لا تتعدّى محاولته الهروب من السجن أو القتل.

الواقع هو أن ليس لديه إجابات مطمئنة عن كل تلك الأسئلة ولا المئات غيرها التي يتمنى أي والدين أن يعرفا الرد عليها. أي شيء سيقوله لن يكون إلا الكذب، وكلما فكر في ذلك كلما شعر بأنه لا يريد أن يكذب على هؤلاء القوم حتى لو كان ذلك حفاظاً على حياته وعلى سلامتهم.

وحتى يبعد الأنظار عن زوجته ودموعها وانفعالاتها بعد أن عادت ابنتها إلى بيتها وأحضانها، سأل نديم نور طارق وقال:

"قل لنا يا طارق ما هو عملك ومن هم عملاؤك الذين يجعلونك تجول العالم هكذا – أوروبا والمغرب ومصر ولبنان؟"

تنفّس طارق في راحة، فهذا موضوع يستطيع أن يتحدّث فيه لساعات. كان قد أعدّ عدّته لذلك جيداً. قال:

"أنا خبير في أجهزة الكمبيوتر وبرامجه وخدماته. أساعد البنوك وشركات التأمين والشركات المتعددة الأنشطة لتضمن سرية وأمان المعلومات والبيانات على أجهزة الكمبيوتر."

ضحك نديم نور بسعادة وصوت عال وهو يقول:

"ليكن الله في عونك يا بنيّ ويباركك. ليس لديّ أدنى فكرة عما تقوله، لكن يبدو مما سمعت أن عملك يوفر لك حياة كريمة."

"هو فعلاً كذلك يا سيدي."

وهكذا كما بدأ الحديث عن عمله بسرعة انتهى أيضاً بسرعة.

استمر القس نور في حديثه وأبدى طارق اهتماماً بما يسمع. قال:

"لهجتك تنم على أنك من أصل لبناني."

تناول رشفة من فنجان القهوة واستند إلى الخلف في مقعده وسأله:

"هل وُلدت في بيروت؟"

جفل طارق داخلياً، فلو أراد أن يكون أميناً وصريحاً في رده فسوف يخطئ خطأ جسيماً. لكنه فكر في أنه لو أعطى معلومات كاذبة عن ماضيه فعليه أن يتذكر جيداً أكاذيبه حتى لا يخطئ إذا ما اضطرّ لاستعادتها ثانية. لم تكن لديه خطة واضحة أعدها عن ماضيه. لم يكن في حاجة إلى خطة يرسمها عن ذلك من قبل، فلم تطلب داليا معلومات كثيرة عن الماضي إلا موضوع وفاة والديه لأنها لم تكن تريد أن تتحدّث عن ماضيها معه.

شعر كأنه في فخّ. سوف يستمر نديم نور يسأل عن ماضيه، وسوف تتدخّل زوجته في محاولة معرفة تاريخ حياته الماضية كلها. ماذا يفعل؟ سيقضي بضعة أيام في ذلك البيت ولا بد من أن يجد موضوعاً يمكنهم أن يتحدثوا فيه معاً من دون خوف من كشف حقيقته التي يريد أن يخفيها. الطريقة الوحيدة ليخرج من المأزق هو أن يبدأ في الهجوم، يبادر بتوجيه أسئلة لا أن يتلقّى الأسئلة. عليه أن يحرّك النقاش بنفسه ويوجّه الحديث حيثما يشاء. لا بد من أن يختار موضوعاً يستطيع أن يتحكم فيه. شيء يشغل هذا الرجل ويحظى باهتمامه ويدفعه إلى التحدث عنه. ماذا؟ أي موضوع ذلك؟ ما هو الموضوع الذي يحتمل النقاش لساعات ويبعدهم عن التنقيب في ماضيه وعن نبش تفاصيل علاقته بداليا؟

بيروت

الفصل الثاني والأربعون

رفع طارق وجهه إلى القس نديم نور وابتسم وهو يجيب عن سؤاله قائلاً:

"نعم يا سيدي. نشأت في بيروت وعشت فيها في السبعينات. كان وقتاً عصيباً لصبي يعيش وسط الحرب الأهلية التي اجتاحت لبنان. الفئات المتقاتلة كانت بين أحزاب وانتماءات مسلمة ومسيحية وجماعات قبلية مختلفة. لك أن تتصوّر صعوبة ذلك. كل من حولي يقاتل ويحارب. المسلم يقتل المسيحي باسم الله، والمسيحي يقتل المسلم باسم الله. ويدّعون أنهم يحاربون في سبيل الله ويدافعون عن الله. اختلط الدين بالحرب والدم والقتل. كنت صغيراً ولا أفهم كثيراً. لكن هذا خلق في قلبي مرارة تجاه الدين والله. ابتعدت عن الله ولأنني من بيت مسيحي كان عليّ أن أذهب إلى الكنيسة وأتعاطف مع المسيحيين الذين يحاربون. لم أقبل ذلك، فقد كانوا مثل غيرهم ينسفون، ويهدمون، ويقتلون من يختلفون عنهم في الدين والإيمان. الكل يفعل ذلك. لا فرق بين مسيحي ومسلم. تعصّب وحقد وكراهية! كل هذا أعمى عيون الناس فكانت اللغة السائدة بين أهل البلد الواحد هي الرصاص. هذا جعلني أبتعد عن الكنيسة وعن المسيحيين. فهم ليسوا أفضل من غيرهم. فوضى..."

استمع إليه نديم نور باهتمام وتعاطف ثم قال:

"لهذا تحوّلت إلى الكمبيوتر والحاسبات التي تعمل بنظام دقيق محدد وأسلوب علمي مدروس يمكن الاعتماد عليه."

أُسعد طارق أنه وصل إلى هذه النتيجة، وليحتفظ بدفة الحديث في يده قال:

"يمكننا أن نقول ذلك يا سيدي."

مال القس نديم نور نحوه وقال هامساً:

"هل تسمح لي بأن أفضي إليك بسر كبير؟"

"طبعاً. تفضّل."

قال الرجل في صوت هادئ صريح ومباشر:

"للأمانة وللتاريخ، أنا لا أدّعي أنني مسيحي."

صدم التصريح طارق ولم يفهم ما سمعه، فسأل:

"لست أفهم ما تقول يا سيدي. لستَ مسيحياً؟! أنت قس؟ رجل دين مسيحي؟!"

"أنا كذلك فعلاً، لكنني لا أسمّي نفسي مسيحياً."

"فماذا تسمّي نفسك؟"

"تابع ليسوع المسيح."

"أليس هو الشيء نفسه؟"

ابتسم القس نور وقال:

"ليته كان كذلك. في منطقتنا كثيرون يسمّون أنفسهم مسيحيين على اعتبار أنهم ليسوا يهوداً أو مسلمين، لكنهم أيضاً ليسوا تابعين للمسيح."

"هم يذهبون إلى الكنائس."

"طبعاً. لكن ذهابهم إلى الكنائس لا يجعلهم مسيحيين. ذهاب أي واحد منهم إلى الكنيسة لا يختلف عن ذهابه إلى مطعم يقدّم إليه وجبة طعام. المسيحية الحقيقية ليست جماعة عنصرية ولا نادياً اجتماعياً أو قبيلة تلتفّ من حول إله تعبده. المسيحية الحقّة ليست لقباً أو صفة أو نعتاً نكتبه على شهادات الميلاد أو في خانة على البطاقة الشخصية. المسيحية ليست كذلك. المسيحية قرار تتخذه. قرار من القلب تتخذه مدفوعاً بإرادتك الحرة الواعية."

"قرار؟ أي نوع من القرارات؟"

"قرار بأن تؤمن وتصدق أن الله يحبك ولديه خطة رائعة مذهلة لك، وعنده غرض وهدف سامٍ لحياتك."

ثم حوّل نظره إلى طارق وسأل باهتمام:

"أنت تؤمن بوجود الله. أليس كذلك؟"

فوجئ طارق بالسؤال لكنه أجاب من دون تردّد:

"طبعاً. الله موجود طبعاً. لا بد من أنه موجود."

"هذا صحيح. لا يمكن إلا أن يكون الله موجوداً، وإلا فمَنْ خلق هذا العالم بكل ما فيه؟ الأرض والسماء والفلك؟ الحيوان والنبات والإنسان؟ ليس غير الله من يستطيع أن يخلق ذلك كله بكل ما فيه من إعجاز، وتعقيد، ودقة، وجمال."

وأضافت السيدة ريما نور متدخّلة في الحديث بينما كانت داليا منشغلة في إعداد المائدة.

"هو خالقنا. كل البشر مدينون له بوجودهم وكيانهم. الدليل على وجود الله كيان الإنسان. الضمير داخلنا والأبدية في قلوبنا. يقول سليمان الحكيم: **صَنَعَ الْكُلَّ حَسَناً فِي وَقْتِهِ وَأَيْضاً جَعَلَ الأَبَدِيَّةَ فِي قَلْبِهِمِ**."

وعاد القس نور يقول لطارق:

"جميل أن تؤمن بوجود الله، فلا يوجد إنسان عاقل ينكر وجوده. يقول داود النبي: **قَالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ:"لَيْسَ إِلَهٌ"**."

"أنا لست جاهلاً يا سيدي. لكن يصعب عليّ أن أصدق أن الله العظيم الكبير يحبني."

"نعم. الله يحبك ويؤكد لك محبته دائماً."

"يؤكد لي محبته؟ كيف؟"

"في طلوع الشمس وغروبها. في الجبل وفي الوادي. في الشجرة وفي الزهرة. في زئير الوحوش وفي زقزقة العصافير. في دقات قلبك وانتظام أنفاسك. في

عنايته بك وتوفير احتياجاتك. في اهتمامه بك وسهره عليك. وفي الكتاب المقدس يعلن محبته بصراحة ووضوح وهو يقول: «**وَمَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُك**»."

"يا خبر!!.."

"نعم. ولديه خطة رائعة مذهلة لك يعلنها المسيح وهو يقول: **أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ**."

"كل هذا لنا؟!"

"كل هذا لنا. لكننا لا نتمتع بذلك الحب ولا بتلك الخطة بسبب الخطية التي تحرمنا منها."

"آه. هنا العلة."

"نعم. الإنسان خاطئ ومنفصل عن الله. بعيد جداً عن محبته وخطته."

"خسارة!.."

"تعلم أن الله خلق آدم طاهراً نقياً على صورته. لكنه عصا الله، وتمرّد عليه، وأكل مع حواء من الشجرة المحرمة، واستحق عقاب الله وحكمه. أجرة الخطية موت. موتاً تموت. الله لم يخلق الموت. الخطية هي التي جاءت بالموت. لا الموت الجسدي فقط بل الموت الروحي أيضاً. الانفصال عن الله. لا يمكن لآدم الخاطئ أن يستمر في رفقة الله البار. طُرد من الجنة، وخرج إلى العالم، والخطية تسكن جسده، وتنتقل إلى كل ذريته... لكن..."

بلهفة سأل طارق:

"وهل هناك بعد ذلك لكن؟"

"نعم. الله كلي العدل هو أيضاً كلي الرحمة. كما أنه لا يتغاضى عن عقاب الخطية وتحقيق العدل، هو محب غفور رحيم. وبرحمته ومحبته أعدّ تدبيراً لاستعادة الإنسان وخلاصه وعودته إلى الصورة التي خلقه عليها واسترجاع الشركة معه."

"لا بدّ من أنه سامحه وغفر له."

"وماذا عن عدله؟ لا بد من تنفيذ الحكم بالموت."

"مشكلة..."

"الله نفسه دبّر حلها. دبر الكفارة. دفع الفدية في المسيح يسوع. **لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ هَكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ.**"

"يعني؟.."

"**لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ.** تؤمن أن يسوع هو المسيح مخلص البشرية، وتعترف أنه مات على الصليب رافعاً عنا كل خطايانا، وقام من الموت ليعطينا الحياة الأبدية. هو الطريق الوحيد إلى الحياة الأبدية في السماء."

فكر طارق ملياً فيما يسمع ثم سأل:

"ولماذا يسوع المسيح بالذات؟"

نظر إليه القس نور باهتمام وإعجاب وهو يقول:

"ها.. سؤال جيد. لماذا يسوع المسيح؟ إسمع. الله هو الذي أصدر الحكم. والله هو الذي يريد أن يرفع الحكم. وليرفع الحكم لا بد من فدية وثمن لذلك. من يدفع الثمن؟ هل تعرف ما هو الثمن يا طارق؟"

"الموت. أجرة الخطية موت."

"فلا بد أن يموت أحد. الإنسان؟ لا. هو المقصود بالرحمة. الله لا يريده أن يموت. فالطرف الآخر في القضية الله. الله لا يموت. هناك احتياج إلى بديل. إنسان بشري فوق البشر. فيه طبيعة البشر وطبيعة الله. طاهر بلا خطية. دمه لا يحمل بذرة آدم. ليس من زرع رجل. من به كل ذلك؟ يسوع المسيح. الله أخذ شكل إنسان في المسيح وجاء إلى العالم ليموت بدل الإنسان، ويدفع الثمن ويقوم محققاً الفداء."

مرت لحظات سكون خيّمت عليهم جميعاً. قطعها القس نور وهو يقول:

"هذا باختصار يا طارق معنى أن تكون تابعاً للمسيح. قرار إيمان بما سمعت. أنا اتخذت هذا القرار منذ اثنين وثلاثين عاماً مضت. وما إن اتخذت ذلك القرار حتى تغيّرت حياتي تماماً."

كانت ملامحه تعكس كل مظاهر الراحة والطمأنينة والفرح ثم أضاف:

"هناك فرق بين أن تكون مسيحياً وأن تكون تابعاً للمسيح. هناك كثيرون يذهبون إلى الكنائس ويدّعون أنهم مسيحيون. يصلّون ويصومون ويتصدّقون أمام الجميع لكنهم لم يتخذوا القرار بالإيمان بما سمعت واتّباع المسيح. يعصون كل وصايا المسيح وينقضون تعاليمه. يقترفون الخطايا التي لا ترضي الله. يكذبون ويسرقون ويزنون ويعيشون حياة اللهو والمجون من شرب خمر، ومخدرات، وممارسة الجنس والنجاسة قبل الزواج وبعده، ولا يعرفون طريق الطهارة."

طوال استماع طارق للحديث حاول أن يختلس النظر إلى داليا ليرى تأثير كلام والدها عليها. لم يجرؤ. كان يتصوّرها منكسة الرأس في غاية الحرج والخجل لأن كل ما قاله ينطبق عليها كما ينطبق عليه.

في الوقت نفسه شعر بالرضا لأن الحديث سار على هذا النحو واكتشف أن القس نور يمكن أن يتكلم عن المسيحية طوال الوقت من دون أن يتطرّق إلى ماضيه وعلاقته بابنته.

فجأة سأل القس نور طارق سؤالاً مفاجئاً:

"طارق. من هو يسوع المسيح في رأيك؟"

لم يكن مستعداً لمثل هذا السؤال لكنه أجاب ببطء:

"مع احترامي يا سيدي أنا لست تابعاً ليسوع المسيح. لكنني أظن أنه كان قائداً دينياً عظيماً."

أومأ القس نديم نور برأسه وقال:

"نعم. يسوع المسيح كان قائداً دينياً عظيماً غيّر مسار التاريخ البشري. لكنه قطعاً كان أكثر من ذلك. الكتاب المقدس يؤكد أنه ابن الله. الله ظهر في الجسد."

نظر إليه طارق في حيرة وهو يقول:

"سيدي. لو سمحت لي. هل أستطيع أن أكون صريحاً معك؟"

"طبعاً يا بني. تفضّل. أنت وسط أصدقاء."

"أظن... أتصوّر... أتساءل: ألا يمكن أن يكون التلاميذ الذين كتبوا الإنجيل هم الذين قالوا عن المسيح أنه هو الله. أمّا المسيح نفسه فلم يقل ذلك. لم يقل أنه هو الله. ألا يمكن أن يكون ذلك؟"

"لا يا طارق. المسيح قال ذلك عن نفسه."

الفصل الثالث والأربعون

بعد أن انتهت من إعداد المائدة دعتهم السيدة ريما نور إلى التقدم لتناول طعام العشاء. كانت المائدة حافلة بما لذّ وطاب حتى أن طارق لم يستطع الصبر وقام من مقعده واتجه بسرعة نحو المائدة. وقع نظره على داليا فوجد في عينيها نظرة هلع.

كانت خائفة وغير مستريحة للحديث الذي دار. قد تكون قد سمعت مثل ذلك الحديث من قبل وهي فتاة صغيرة غريرة، لكنها الآن شابة كبيرة مختبرة. ذاقت من الحياة الكثير من مباهجها التي يراها أبوها خطايا وآثام لا تتفق والحياة المسيحية. وهل هي حسب المقاييس التي ذكرها والدها مسيحية أو كما قال تابعة للمسيح؟ طبعاً لا. لماذا يتبادلون أحاديث مخيفة كهذه؟ لماذا لا يتكلمون في أمور أخرى ألطف وأبسط وأهدأ؟ ما الذي يريده طارق من إثارة مواضيع كهذه؟ اقترب منها وقال: "لماذا لم تخبريني يا داليا أن والدك على هذه الدرجة من الإثارة والمتعة في معلوماته وأحاديثه؟"

ضاقت عيناها وهي تسمع تعليقه. لم تكن تريد أن يلاحظ والداها أنها مختلفة معه. كانت في غاية الغيظ والغضب من إثارته تلك الموضوعات. قالت بعد أن جلسوا إلى المائدة:

"لم أكن أعرف أنك تريد الخوض في مثل هذه الأحاديث الدينية. أنت عجيب يا أخي. لم أعرف ذلك عنك."

أراد طارق أن يخفّف من توترها فقال:

"الحديث في الشؤون الدينية أفضل من الحديث في السياسة."

لم تسترح لتبريره لكن أباها قبله بسرور.

ما إن جلسوا جميعاً من حول المائدة حتى قال القس نور لابنته:

"داليا. هل لديك مانع أن تصلي وتطلبي بركة الرب على الطعام؟"

"آسفة. كنت أتمنى ذلك لكنني يا أبي مرهقة وغير مستعدة. تفضّل أنت."

"وهو كذلك يا ابنتي." قال ذلك بلطف وإن كانت لهجته تعكس نغمة حزن. لاحظ طارق ذلك.

ضمّ القس نور وزوجته وداليا أياديهم وأحنوا رؤوسهم وأغلقوا عيونهم. نظر إليهم طارق وفعل مثلهم. بدأ القس نور صلاته:

"شكراً لك يا رب من أجل محبتك لنا ورحمتك بنا. من كل القلب نشكرك لأنك أرسلت ابنك يسوع المسيح إلى أرضنا ليبذل نفسه ويموت على الصليب لأجلنا حتى ننال الحياة الأبدية بالإيمان به. نشكرك أبانا لأنك تسمع وتستجيب لصلواتنا. ونحن نشكرك من أعماق قلوبنا لأنك أخيراً أعدت لنا داليا سالمة إلى بيتها. نسأل منك لها كل بركة وكذلك لصديقها طارق. نطلب لهما بركة خاصة من عندك ونسألك أن تجعلهما يشعران بمحبتنا لهما وترحيبنا بهما، واجعل هذا البيت يكون ملجأ لهما وسط أعاصير الحياة ومتاعبها. نشكرك من أجل هذا الطعام ومن أجل هذا الوقت الذي نقضيه معاً. باسم يسوع أصلي. آمين."

ختم الجميع الصلاة قائلين "آمين" مع القس نديم، وشاركهم طارق أيضاً. لم يسبق له أبداً أن اشترك في صلاة مسيحية، إلا أن هذه الصلاة أثارت اهتمامه وأعجبته. بدت له صادقة وأمينة، وغير رسمية أو تقليدية، بل شخصية. لم تكن مثل الصلوات التي اعتاد أن يسمعها من الكبار وهو صبي، كما لو كان هذا القس يتكلم فعلاً مع الله وأن الله معهم في الغرفة. شعر براحة وسلام حقيقي وهو يشارك في تلك الصلاة.

بعد أن انتهى طارق من إظهار إعجابه بالطعام ولحم الضأن المشوي مع الخضار، سأله القس نديم نور:

"هل وجدت فرصة يا طارق لأن تقرأ العهد الجديد في الكتاب المقدس وحدك؟"

هزّ طارق رأسه نفياً وهو يقول:

"لا يا سيدي. لم أقرأه."

"يجب أن تقرأه. أنا متأكد أنه سيعجبك. قبل أن تأوي إلى فراشك الليلة سوف أعطيك نسخة."

"شكراً لك. هذا كرم منك. لكنني لا أظن أن في مقدوري أن أقبل هدية كهذه."

"هذا يسعدني جداً. لا تنس يا طارق أنني قسيس وهذا عملي."

ضحك طارق، فهو يعرف أن عليه كقس أن يقدم الكتاب المقدس إلى الناس. ثم قال في ابتهاج:

"حسناً. شكراً لك. أنا أحب فعلاً أن أقرأ العهد الجديد."

"عظيم. سأعطيك نسخة. سوف تُعجب جداً به. وتجد في أماكن كثيرة منه أن يسوع قال عن نفسه أنه هو الله بعكس ما ظننت أن هذا من أقوال التلاميذ فقط. يسوع المسيح قال وأعلن أنه هو والله واحد. في إنجيل يوحنا الأصحاح العاشر والعدد الثلاثين، قال يسوع: «**أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ**.» وفي يوحنا ٨:١٩ قال: «**لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً**.» وفي يوحنا ١٢:٤٥ يعلن: «**وَالَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي**.» أيضاً في يوحنا ١١:٢٥-٢٧ قال يسوع لمرثا: «**أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا. وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيّاً وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهَذَا؟**» **قَالَتْ لَهُ**: «**نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ** »."

سأله طارق وهو في غاية الدهشة:

"يسوع قال ذلك كله؟"

"نعم. قال ذلك كله. كلام واضح وصريح ومباشر لا يحتمل تفسيراً أو تأويلاً. وفي إنجيل يوحنا ١٠: ٣١-٣٣ نقرأ أن قادة اليهود غضبوا منه ومن كلامه وتناولوا حجارة ليرجموه، لكن يسوع أجابهم قائلاً: «**أَعْمَالاً كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي - بِسَبَبِ أَيِّ عَمَلٍ مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي؟**» **أَجَابَهُ الْيَهُودُ**: «**لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلَهاً**.» وحين أمسكه اليهود بعد ذلك وتم الحكم عليه بالموت بواسطة رؤساء الكهنة في أورشليم، كانت التهمة التي وجّهوها ضده أنه كان يجدّف. التجديف، هذه كانت تهمته أي قوله أنه هو الله بينما هم ينكرون ذلك عليه."

قال ذلك ثم انتظر ليرى تأثير كلامه في طارق. ثمّ أضاف:

"لماذا تظن أن أخباره كانت تُذاع وتنتشر في الشرق الأوسط كله في ذلك الحين؟ البشير متى يقول في الأصحاح الرابع من بشارته ابتداء من عدد ٢٣ إلى ٢٥ «**وَكَانَ يَسُوعُ يَطُوفُ كُلَّ الْجَلِيلِ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِهِمْ وَيَكْرِزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ وَيَشْفِي كُلَّ مَرَضٍ وَكُلَّ ضَعْفٍ فِي الشَّعْبِ. فَذَاعَ خَبَرُهُ فِي جَمِيعِ سُورِيَّةَ. فَأَحْضَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ السُّقَمَاءِ الْمُصَابِينَ بِأَمْرَاضٍ وَأَوْجَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ وَالْمَجَانِينَ وَالْمَصْرُوعِينَ وَالْمَفْلُوجِينَ فَشَفَاهُمْ. فَتَبِعَتْهُ جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجَلِيلِ وَالْعَشْرِ الْمُدُنِ وَأُورُشَلِيمَ وَالْيَهُودِيَّةِ وَمِنْ عَبْرِ الأُرْدُنِّ**.» وفي إنجيل متى أصحاح ١٥ نرى أن يسوع ذهب إلى لبنان ليبشر الناس هناك بالأخبار السارة وأن الله يحبهم ويعدّ لهم خطة رائعة لحياتهم."

توقّف طارق عن الطعام. وضع الشوكة التي في يده وسأل في دهشة:

"حقاً؟ ذهب إلى لبنان؟"

"نعم. ذهب إلى صور وصيداء."

حاول طارق ألاّ يبدو مصعوقاً مما يسمع، لكنه بدا كذلك وقال في إصرار:

"هل يمكن أن تريني ذلك؟ أريد أن أرى ذلك بعينَيَّ. فلم أسمع ذلك أبداً من قبل."

مسح القس نور فمه وقام من كرسيّه وذهب وأحضر كتابه المقدس وفتحه على إنجيل متى الأصحاح الخامس عشر والآية ٢١ وقال:

"ها هي يا طارق. أصحاح ١٥ والعدد ٢١."

أمسك طارق بالكتاب المقدس وأخذ يقرأ الآية بصوت مسموع:

"ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ مِنْ هُنَاكَ وَانْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي صُورَ وَصَيْدَاءَ."

وبينما هو يقرأ الكلمات كان يتمعّن في ما هو مكتوب في الكتاب المقدس ويتعجّب قائلاً في نفسه: ها يسوع قد ذهب إلى صيداء. بلده! المدينة التي نشأ وعاش فيها. أعاد النظر إلى الآية مرة أخرى وتأمل فيها بتعجّب وتساءل كيف لم يعرف ذلك من قبل؟ كيف لم يخبره أحد من قبل أن يسوع المسيح نفسه ذهب إلى مدينة صيداء؟

الفصل الرابع والأربعون

دقّ تليفون جودار. نظر إلى الشاشة وعرف أن لوميبه – الشبح – هو المتحدّث. ما إن وضع السماعة على أذنه حتى سمع السؤال:

"هل حققت أي تقدّم؟"

أجاب جودار باقتضاب:

"القليل. بعض التقدّم."

سأله لوميبه:

"هل انهار شقيق مروان عقاد؟"

"لا."

"ألم يخبرك أين أخوه؟"

"لا."

"ماذا قال لك؟"

"لم يقل الكثير فألقيت به في السجن."

صرخ لوميبه في عدم ارتياح:

"ماذا فعلت؟"

أجابه جودار بصوت عال:

"ماذا كنت تنتظر مني أن أفعل غير ذلك؟"

رد عليه لوميبه بصوت مماثل:

"تضغط عليه حتى يسلمنا مروان."

"لهذا أدخلته السجن. رجل مثل رامي عقاد لا يحب أن يقضي وقتاً في سجنٍ في بيروت. صدّقني."

غيّر لوميه من لهجته وسأل:

"لا أفهم. حسبتك تقول أنك حققت بعض التقدّم."

"نعم."

"ماذا؟"

"وضعنا تليفون رامي تحت الرقابة."

"ثم؟"

"عرفنا أن هناك اثنا عشر رجلاً مسلحاً في الجبال المتاخمة لساو پاولو. خمّن من يحاصرونه هناك؟"

فجأة انقطع الردّ وصمت التليفون بينما جودار ينادي قائلاً:

"سيدي المفتّش. لوميه. هل سمعت ما قلت لك الآن؟"

لم يقل لوميه شيئاً وبدا كما لو أن الصدمة أسكتته. على الرغم من ذلك أكمل جودار كلامه:

"هم هناك وراء كلوديت رمزي."

انتظر أن يسمع رد فعل لوميه، لكن لم يحدث شيء وبقي الخط صامتاً. استمر جودار يواصل كلامه مع أنه لم يسمع إجابة على الطرف الآخر، قال:

"أرسلت فريقاً من رجالي وراءهم ليهاجموهم ويعتقلوهم جميعاً ويحرروا مدام رفيق رمزي من أيديهم. هم يتعاونون مع المسؤولين البرازيليين. يحدث هذا الآن في هذه اللحظة التي نتكلم فيها معاً."

انتظر جودار أن يسمع كلمة من لوميه. لكنه لم يسمع شيئاً. بعد قليل

حاول مرة أخرى وسأل:

"هل أنت هناك أيها المفتّش؟... هل لا تزال هناك؟"

"أنا معك."

"فلماذا لم تقل شيئاً؟ هذه أخبار رائعة ونتائج عظيمة ومهمة. حسبتك ستكون سعيداً بها. في خلال أربع وعشرين ساعة ستعود مدام رفيق رمزي سالمة إلى مونت كارلو وعندئذ سأستطيع أن أتصل بها وأسالها عن كل شيء. هل تحب أن تكون معي وأنا أقوم بذلك؟"

ردّ لوميه في اقتضاب لم يتوقّعه جودار. كان يتصوّر أنه سيكون متحمّساً وسعيداً لتلك الأخبار. قال:

"سأتصل بك إذا أردت ذلك. سأتصل بك."

لم يفهم جودار رد فعل لوميه الغريب لما نقله إليه من أخبار. لماذا كان صوته يعكس شعوراً بالفشل والخيبة والحزن بدلاً من الفخر والانتصار والفرح؟!

الفصل الخامس والأربعون

"ما يريد أن يقوله نديم يا طارق..."

أخذت السيدة ريما نور تقول ذلك وهي تقدم القهوة وأطباق البقلاوة لهم بعد العشاء، وقد انتقلوا إلى قاعة الاستقبال وجلسوا يستريحون بعد وجبة العشاء الدسمة التي تناولوها.

"ما يريد أن يقوله هو أن يسوع كان صريحاً ومباشراً وهو يعلن أنه هو الله. لم يستخدم عبارات ملتوية ولا كلمات ذات معنيين. أعلن أنه هو الله بعبارات مباشرة وكلمات واضحة. كل من حوله من الأصدقاء وحتى الأعداء فهموا ما قاله. مع أن بعضهم لم يكونوا سعداء بما سمعوه. حتى الآن وبعد عشرين قرناً تجد كثيرين لا يعترفون بذلك ويشككون فيه. مع أن الأمر لا يحتمل الشك، وليس سراً خفياً، هو حقيقة جلية."

قال طارق وهو يستمع إليها:

"قد يكون ذلك مفهوماً لكم. لكن بالنسبة إليَّ وإلى كثيرين مثلي هو شيء جديد وغريب."

أجابته برقة واهتمام:

"أعرف ذلك جيداً يا طارق. ونديم أيضاً يعرف. نعرف ونفهم ونقدّر، ففي بداية حياتنا بعد زواجنا بأشهر قليلة، لم يكن يعرف أي منا ما قاله المسيح عن نفسه وإعلانه بأنه هو الله نفسه. لم أكن لا أنا ولا نديم قد نشأنا في بيت أهله يتبعون يسوع. ولم أكن لا أنا ولا نديم قد قرأنا الكتاب المقدس. إلا أنه في يوم ما جاء لزيارتنا زوجان أخبرانا ولأول مرة بهذه الحقيقة المهمة. كان الزوج يجلس على هذه الأريكة التي تجلس عليها أنت الآن وقال لنا: الذي يقرأ العهد

الجديد ولا يخرج منه بمعرفة ما قاله المسيح عن نفسه بأنه هو الله، وإعلانه للاهوته، يكون مثل رجل يقف خارجاً في يوم صحو ويقول أنه لا يرى الشمس. الحق أنني شعرت بإهانة وتضايقت جداً من كلامه وشعرت بحرج شديد أنني لم أقرأ الكتاب المقدس. وكذلك نديم لم يكن أفضل مني في ذلك. في تلك الليلة حصلنا على أول نسخة من العهد الجديد وبدأنا نقرأها معاً. وكلما تقدمنا في القراءة كلما أدركنا صحة ما قاله هذا الصديق."

كان طارق يتابع ما تقول بانتباه ثم سأل:

"وماذا حدث بعد ذلك؟"

فوجئ بنفسه وهو يسأل هذا السؤال بلهفة ويتساءل: هل هو فعلاً يريد أن يعرف أم ذلك مجرّد استطراد للحديث الذي بدأه قبل العشاء ليبتعد عن الحديث عن ماضيه.

أسرع القس نور بالرد قائلاً:

"في الحقيقة أن ذلك جرّ علينا مشكلة كبيرة."

"أية مشكلة؟"

اعتدل القس نور وأخذ يجيب طارق بينما اعتذرت داليا عن البقاء ودخلت المطبخ متعلّلة أنها ستقوم بغسل الأطباق، وإن كان واضحاً أنها كانت تريد الهروب.

"إسمع يا طارق. فكّر معي قليلاً. ما دام يسوع صرّح بوضوح وأمام عدد كبير من الناس الذين كانوا يتبعونه ويلتفّون من حوله أنه هو الله فلا يمكن أن نكتفي بالقول إنه نبي قادر على أن يصنع معجزات، أو إنه معلم صالح قدم تعاليم عجيبة جديدة، أو إنه رجل فاضل عاش حياة بر وتقوى فقط. لا نستطيع أن نقف موقفاً متوسطاً أو كما يقولون نمسك العصا من وسطها. لم يترك المسيح الأمر معلقاً. أكّد أكثر من مرة وبأساليب مختلفة أنه هو الله. كان يعرف نفسه تماماً ويعلن حقيقته للأجيال. إما أن نقبل أو نرفض، نصدق أو نكذّب، نؤمن أو ننكر، لا بديل عن قرار حازم وحاسم. بعد أن تقرأ المكتوب في

العهد الجديد جيداً وتصدقه وتتتبع حياة المسيح وأعماله وأقواله فسوف تصدق وتتأكد مما قاله عن نفسه وأنه هو الله. لا اجتهاد هنا، إما تقبل كل ما قاله على أنه صدق بما فيه أنه هو الله أو لا تقبل ذلك وتعتبره، حاشا لله، كذباً. هل خدع التلاميذ والعالم ويخدعنا؟ كيف وقد كان ينادي بالحق والصدق والأمانة وكل الفضائل. ثم لو لم يكن ما قاله هو الحق والصدق، كيف يستمر في ذلك حتى يصل إلى الصليب ويموت بسبب ما قال؟! هل يموت أحد لسبب غير حقيقي؟ مواجهة الموت ليست شيئاً سهلاً. أمام الموت يتضح كل شيء. طارق، يا بنيّ، المسيح هو الله. قال ذلك عن نفسه وبكلماته المباشرة الصريحة وكل ما قاله وما دُوِّن في الكتاب المقدس صادق وصحيح، لهذا فأنا والملايين من المؤمنين يصدقون ذلك ويقبلونه."

وتدخّلت السيدة ريما نور في الحديث وقالت بكل ثقة وتأكيد:

"هذا هو الحق يا طارق. حين تقرأ كلمة الله التي هي الكتاب المقدس ستجد ما يؤكد لك بأنه الله."

نظر إليها طارق بملء عينيه في دهشة وقال:

"هكذا؟!.. مباشرة؟!"

"نعم. في أول إنجيل يوحنا يقول: [في البدء كان الكلمة]. كان يا طارق، لا كانت. بلغة المذكر. كان. الكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله... والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا. حلّ بيننا في المسيح."

بعد صمت تدخّل القس نور في الحديث:

"هذا موقع واحد بجوار عشر مواقع أخرى. في العهد الجديد ذُكر بصريح العبارة أن المسيح هو الله ١١ مرة. وذُكر أنه ابن الله خمسين مرة."

قال طارق في حيرة:

"وابن هذه أيضاً؟ إبن؟! بنوة المسيح موضوع محيّر جداً؟!"

ابتسم القس نور وقال:

"لأنك تنظر إليه نظرة بشرية. الابن هنا يا طارق ليس ابناً بالتناسل. الله روح وحاشا لله أن يلد ابناً. وليس أيضاً بالتتابع، أي الله أولاً الآب ثم المسيح بعده الابن. لا. هذا ليس صحيحاً. بنوّة الابن لها مدلولات روحية. المسيح ابن الله بالمحبة. والبنوّة تعني التعادل. معادلاً لله. وتعني التماثل، يعني هو صورة الله. هذا باختصار شديد معنى "ابن الله". طبعاً لو احتجت إلى مزيد من الشرح يمكننا ذلك إن أردت."

وقالت له السيدة نور:

"حين تقرأ العهد الجديد ستكتشف بنفسك أكثر من ذلك. سترى أنه معلّم صالح كما يقول الأصدقاء والأعداء. كيف يكون معلماً صالحاً، نقبل أقواله كلها وننكر قوله أنه ابن الله؟ هل المعلم الصالح يخدع أحداً؟ هل يضلل؟ هل لا يقول الحق في أهم ما يتصل به وهو معرفته وإعلان ذاته؟"

"هذا صحيح ومنطقي جداً."

كانت داليا تنظف المائدة وهي تسمع الحديث متضايقة. أضاف القس نديم نور بعض الأفكار لما كانوا يتبادلونه من نقاش، قال:

"من الأشياء التي أدهشتني يا طارق وأنا أدرس وأبحث في حياة المسيح، أنني وجدت بعض من عرفتهم من الناس أو من قرأت عنهم والذين قرروا اتباع يسوع المسيح، وجدت أن حياتهم قد تغيّرت تماماً. أصبحوا مثل يسوع. زادت محبتهم للآخرين. زادت مساعدتهم واهتمامهم بالآخرين. أصبحوا لطفاء شفوقين متسامحين، أمناء صادقين مهتمين بالفقراء والمحتاجين. وعندما رجعت إلى التاريخ اكتشفت أنه حين آمن الناس بالمسيح وتبعوه تغيّرت حال الناس والدول إلى الأفضل. كيف يتم ذلك إلا إذا كان المسيح له القدرة على تغيير القلوب والنفوس. لا يستطيع أحد أن يغيّر الناس هكذا إلا الله نفسه."

قال طارق بعد تفكير:

"هذا صحيح."

الفصل السادس والأربعون

دخل طارق غرفة شقيق داليا وأغلق الباب خلفه وصعد إلى السرير القديم وبدأ في قراءة العهد الجديد من الكتاب المقدس لأول مرة في حياته.

فتح الكتاب على أول سفر فيه، الإنجيل حسب البشير متى، ثم استمر في القراءة لمدة ساعات. ثم قرأ الإنجيل حسب مرقس ثم لوقا ثم يوحنا. في تلك الساعات عرف عن يسوع المسيح أكثر مما عرفه طول حياته. قرأ عن معجزة ميلاده من العذراء القديسة مريم وعن قيام هذا النجار البسيط الذي من الناصرة بفتح أعين العمي، وإعادة السمع لمن كانوا لا يسمعون، وجعل العرج يمشون، والمفلوجين يتحرّكون ويقفزون، كما استطاع أن يطرد الشياطين ويخرجهم من الكثيرين، وفوق ذلك أقام الموتى حتى الذي بقي في القبر أربعة أيام. كما أسرّه وأمتعه ما قرأه من أقواله وأمثاله وتعليمه الذي لم يسمع مثله من قبل. وقف طويلاً أمام الموعظة على الجبل المدوّنة في الأصحاحات الأولى من السفر الأول في العهد الجديد وهو يقول:

«قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بَاطِلاً يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ وَمَنْ قَالَ لأَخِيهِ: رَقَا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ.» (متى ٥: ٢١ و٢٢)

لم يسبق له أبداً أن فكر في علاقة الإنسان بأخيه بهذا المنطق العجيب الفريد.

وقرأ أيضاً:

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ

وَيَطْرُدُونَكُمْ لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ. لأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ فَأَيُّ أَجْرٍ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضاً يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟» (متى ٥:٤٣-٤٦)

سبب منطقي، لكن هل يمكن لأحد أن يصل إلى هذا المستوى؟

«فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ.» (متى ٥:٤٨)

كل ما قرأه أذهله. هذه كلمات لم ينطق بها إنسان من قبل. المسيح هذا عجيب جداً!

أحس طارق بالعار والخجل. دفعته الكلمات أن يفكر فيما يفعله ولا يرى في ذلك غضاضة. الغضب؟ كم غضب على الناس حتى على أخيه رامي الذي يحبه؟! غضبٌ بلا داعٍ يراه الآن مستوجباً للحكم. ومحبة العدوّ؟ كيف يستطيع ذلك وهو كثيراً ما يصعب عليه محبة الصديق؟ هل يحب لوميه وجودار وكلوديت رمزي؟ ومن قراءته للأحداث التي واجهت يسوع، وجده قد عاش ما نادى به. لم يهرب من أعدائه كما يهرب هو. لم يكذب ويخادع ويغش ليقاوم الإمساك به والقبض عليه. حين هاجمه أعداؤه وأحاطوا به في البستان لم يقاوم، وحين حاول بطرس الدفاع عنه وقطع أذن عبد رئيس الكهنة انتهره وأمره أن يرد سيفه إلى غمده لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون.

مرت ساعات الليل كله وهو يقرأ ولا يستطيع التوقّف. امتلأ قلبه برغبة عارمة لأن يعرف كل شيء عن المسيح وفي أسرع وقت. كيف عاش كل هذه السنين من دون أن يعرف ذلك؟

ووصل في قراءته إلى إنجيل يوحنا الأصحاح التاسع عشر، وصدمته الكلمات:

«فَحِينَئِذٍ أَخَذَ بِيلاَطُسُ يَسُوعَ وَجَلَدَهُ. وَضَفَرَ الْعَسْكَرُ إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَى رَأْسِهِ وَأَلْبَسُوهُ ثَوْبَ أُرْجُوانٍ وَكَانُوا يَقُولُونَ: «السّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ». وَكَانُوا يَلْطِمُونَهُ.»

استمر في القراءة فعرف لأول مرة في حياته تفاصيل موت المسيح على الصليب:

فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ. فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «مَوْضِعُ الْجُمْجُمَةِ» وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ «جُلْجُثَةُ» حَيْثُ صَلَبُوهُ وَصَلَبُوا اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا وَيَسُوعُ فِي الْوَسْطِ.

بعد ذلك قرأ ما هزّ مشاعر طارق جداً. قرأ:

وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ أُمُّهُ وَأُخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كِلُوبَا وَمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفاً قَالَ لأُمِّهِ: «يَا امْرَأَةُ هُوَذَا ابْنُكِ». ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ: «هُوَذَا أُمُّكَ». وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ. بَعْدَ هَذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ». وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعاً مَمْلُوّاً خَلاًّ فَمَلأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ. فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ الْخَلَّ قَالَ: «قَدْ أُكْمِلَ». وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ.

انفطر قلب طارق ألماً وهو يتابع أحداث صلب يسوع وما ناله من ضرب وجلد ولطم وتعذيب، لكن الذي زاد جداً من ألمه ما تصوّره من عذاب نفسي وحزن قاتل وألم مزّق قلب السيدة العذراء أمه وهي تحت الصليب تنظر إلى ابنها يموت أمام عينيها وهو بريء مدان ظلماً محكوم عليه بالموت بلا ذنب. على الرغم من ذلك وهو في لحظاته الأخيرة على الصليب ويرى أنها تتعذّب يتحرّك قلبه وتهتزّ عواطفه ويتألّم لعذاب أمه أكثر من ألم الصلب، وفي قمة معاناته يفكر في أن يعهد بأمه إلى تلميذه الذي يحبه ويثق فيه. كيف يحدث ذلك؟ هذا أقصى وأقسى ما يمكن أن يحدث.

وَكَانَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صُلِبَ فِيهِ بُسْتَانٌ وَفِي الْبُسْتَانِ قَبْرٌ جَدِيدٌ لَمْ يُوضَعْ فِيهِ أَحَدٌ قَطُّ. فَهُنَاكَ وَضَعَا يَسُوعَ لِسَبَبِ اسْتِعْدَادِ الْيَهُودِ لأَنَّ الْقَبْرَ كَانَ قَرِيباً.

وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِراً وَالظّلاَمُ بَاقٍ. فَنَظَرَتِ

الْحَجَرَ مَرْفُوعاً عَنِ الْقَبْرِ. فَرَكَضَتْ وَجَاءَتْ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى التِّلْمِيذِ الآخَرِ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ وَقَالَتْ لَهُمَا: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ».

واستمرّ يقرأ طوال الليل. انبثق داخله شوق كبير ورغبة في المعرفة والوصول إلى الحقيقة، وإجابة عن الأسئلة التي تملأ عقله وقلبه. وكان كلما قرأ كلما وجد نفسه يقترب من الفهم ومن الردود عن أسئلته، ويزداد شوقه ورغبته في قراءة المزيد من ذلك الكتاب العجيب. وهكذا استمر يقرأ:

فَخَرَجَ بُطْرُسُ وَالتِّلْمِيذُ الآخَرُ وَأَتَيَا إِلَى الْقَبْرِ. وَكَانَ الاِثْنَانِ يَرْكُضَانِ مَعاً. فَسَبَقَ التِّلْمِيذُ الآخَرُ بُطْرُسَ وَجَاءَ أَوَّلاً إِلَى الْقَبْرِ وَانْحَنَى فَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ. ثُمَّ جَاءَ سِمْعَانُ بُطْرُسُ يَتْبَعُهُ وَدَخَلَ الْقَبْرَ وَنَظَرَ الأَكْفَانَ مَوْضُوعَةً وَالْمِنْدِيلَ الَّذِي كَانَ عَلَى رَأْسِهِ لَيْسَ مَوْضُوعاً مَعَ الأَكْفَانِ بَلْ مَلْفُوفاً فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ.

وَلَمَّا كَانَتْ عَشِيَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ أَوَّلُ الأُسْبُوعِ وَكَانَتِ الأَبْوَابُ مُغَلَّقَةً حَيْثُ كَانَ التَّلاَمِيذُ مُجْتَمِعِينَ لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ جَاءَ يَسُوعُ وَوَقَفَ فِي الْوَسَطِ وَقَالَ لَهُمْ: «سلاَمٌ لَكُمْ». وَلَمَّا قَالَ هَذَا أَرَاهُمْ يَدَيْهِ وَجَنْبَهُ فَفَرِحَ التَّلاَمِيذُ إِذْ رَأَوُا الرَّبَّ.

وَآيَاتٍ أُخَرَ كَثِيرَةً صَنَعَ يَسُوعُ قُدَّامَ تلاَمِيذِهِ لَمْ تُكْتَبْ فِي هَذَا الْكِتَابِ. وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ.

ومن دون أن يشعر بمرور الوقت بزغت الشمس وأشرقت خارجة من خلف الجبال التي تحيط بالبتراء. انتهى في ليلة واحدة من قراءة العهد الجديد كله. لم تكن قراءة سريعة فقط بل عميقة أيضاً. تأمل وفحص وفهم كل كلمة قرأها تلك الليلة. كان مأخوذاً مبهوراً مذهولاً مما وجد بالكتاب. في بعض الأماكن كان يجد نفسه مصعوقاً مما يكتشفه. سلب إنجيل يوحنا لبه وخلب عقله وأمتع نفسه. يوحنا أقرب التلاميذ من يسوع، وكما أطلق عليه بقية التلاميذ وأطلق على نفسه التلميذ الذي كان يسوع يحبه. كتب إنجيله شهادة قوية صادقة ومدققة عن حياة يسوع وأقواله ومعجزاته وموته وقيامته. هزّته كلمات يوحنا جداً وقد كتب ما كتب بثقة في المسيح، وإيمان قوي به، وإعجاب وحب وفهم لشخصية يسوع وكلماته. فقد كان دائماً قريباً منه، أقرب الناس إليه.

في ذلك الصباح ظلت كلمات بطرس الرسول التلميذ المتقدم بين تلاميذ يسوع، والذي تبعه من أول يوم حتى صعوده، ظلت كلماته ترنّ في أذنيه وتتكرر في ذهنه وهو يقول في رسالته الثانية الأصحاح الأول والعدد السادس عشر:

لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ.

كلمات مهمة من تلميذ عاين عظمة يسوع المسيح ونقل ذلك إلى العالم كله وإلينا في رسالتيه. كان طارق مذهولاً بالتغيير الذي حدث في حياة ذلك الرجل. صياد بسيط منزو في قاربه محني إلى شباكه يصلح ما فيها من خروق، أو واقف على طرف قاربه يلقي بها ويجذبها باحثاً عن صيد. دعاه يسوع ليصبح صياداً للناس. على الرغم من تحذيرات الرب له أنكره ثلاث مرات في ليلة واحدة ثم هرب واختبأ وابتعد في وقت كان يجب أن يقف بجواره يسانده وهو يُحاكم ويُجلد ويُهان ويُصلب. ثم يحدث شيء يُخرج من هذا الإنسان المتردد المذعور رجلاً جسوراً شجاعاً يقف أمام جمهور كبير في أورشليم ويعلن بقوة ويقين وبلا خوف أن الله جعل يسوع هذا الذي صلبوه رباً ومسيحاً. واستمر ينادي بالمسيح في كل مكان من دون أن يهاب المقاومة والاضطهاد والموت، فقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه واختبر بنفسه ما حدث. كان شاهد عيان يقدم شهادته إلى العالم.

وما شاهده وعاينه حق، والحق يجب أن يُنادى به بشجاعة ومن دون إبطاء أو إخفاء. كيف يستطيع أن يخفي حقيقة المسيح وموته وقيامته من بين الأموات؟

لم يكن بطرس الوحيد الذي تغيّرت حياته هكذا بشكل جذري. توما مثلاً، كما قرأ عنه في إنجيل يوحنا بعد أن شك في قول زملائه التلاميذ عن قيامة المسيح، وأعلن أنه لن يصدق إن لم يضع إصبعه في أثر المسامير في يدي يسوع، ما إن ظهر المسيح له وأراه يديه وجنبه حتى صاح بقلب كله إيمان وقال: ربي وإلهي. مواجهة المسيح له جعلته يتحوّل من الشك إلى اليقين،

ومن التخاذل إلى الإقدام والمبادرة بإعلان أن يسوع المسيح هو الله، وأنه هو الطريق الوحيد لخلاص الإنسان وخلاص العالم. وأن كل من يتبع يسوع يحصل على الحياة الأبدية في السماء. وكان القس نديم قد أوضح لطارق أن توما هو الذي حمل بشارة الإنجيل إلى العراق ثم إلى الهند ومات شهيداً في سبيل إيمانه بالمسيح وشهادته له.

أخذ طارق يسترجع ذلك كله وهو يفكر في بطرس وتوما وغيره من التلاميذ والرسل الذين استشهدوا وقدموا حياتهم بسبب إيمانهم. هل يُعقل أنهم فعلوا ذلك مقابل شيء غير حقيقي؟! أخذ طارق يفكر في الأمر وهو يميل إلى تصديق كل ما قرأه وأن كل هؤلاء كانوا على حق.

الفصل السابع والأربعون

على الرغم من أنه قضى الليل كله يقرأ لم يستطع النوم، فقرر أن يخرج لممارسة رياضته اليومية في الجري. ارتدى ملابسه وتسلل بهدوء من الشقة متمنياً أن لا يجد أحداً قد استيقظ بعد، إلا أنه وجد داليا عائدة من الخارج بعد أن قضت وقتاً في الجري. ابتسم لها وقال:

"صباح الخير."

ردّت عليه بلا حماس قائلة:

"هاي."

اقترب منها ليقبّلها إلا أنها ابتعدت عنه فسألها:

"ماذا؟ ماذا هناك؟"

"ليس هنا."

همست محذّرة حتى لا تلفت نظر حارس البناية الذي كان جالساً على مقعده ورأسه ساقط على صدره وهو يغطّ في النوم. أشارت إليه أن يتبعها خارجاً. وأخذت تجري بسرعة في الشارع. جرى خلفها طارق ولحق بها ثم سألها مندهشاً:

"ماذا هناك؟ هل أنت غاضبة مني؟"

نظرت إليه باستهجان وأجابت:

"أتسأل جاداً أم مستنكراً؟"

"واو... أنتِ فعلاً غاضبة. هل أغضبك أنني تناقشت مع والدك عن يسوع المسيح؟"

"كأنك لا تفهم. هل أنت صحيح لا تفهم؟"

"لا. الحقيقة أنني لا أفهمك فعلاً يا داليا. هل هناك مشكلة؟"

"قلت لك إنك لا يمكن أن تجري نقاشاً بسيطاً مع أبي عن يسوع المسيح. أي حديث معه عن يسوع لن يكون حديثاً عابراً بلا هدف. لن يتركك قبل أن يطلب منك أن تصبح مؤمناً، وإن لم تفعل ذلك سيطردك ولن يراك ثانية. وهذا بالطبع يبعد فكرة الزواج مني تماماً. لا يبعدها فقط. يلغيها تماماً. هل هذا ما تريده؟ هل تريد أن تهدم كل شيء؟"

وبعد صمت قصير نظرت إليه وهي في قمة التأثر وأضافت:

"كنت أظن أنك تحبني."

قال طارق بحماس وقوة وتأكيد:

"أنا فعلاً أحبك. أنا أحبك يا داليا جداً."

"إذا كان هذا صحيحاً فتوقّف عن الحديث عن يسوع المسيح. هذا لن يقودك إلى شيء. بالعكس. سيقودك إلى مشاكل كثيرة."

"أنا أرى الحديث عنه مثيراً وجيداً."

نظرت إليه في شك وهي تقول:

"هيه؟ لا تسخر مني. أنت تمزح طبعاً."

بنظرات جادة وثابتة توقف وقال:

"أبداً. أنا لا أمزح أبداً. أنا جاد جداً فيما أقول. أنا سعيد جداً ومتلهّف للحديث عن الكتاب المقدس وعن يسوع المسيح."

"لا تتصوّر أنك بذلك ستكسب تأييد أبي وموافقته على زواجنا. لا. لن يحدث ذلك. لن يجدي شيئاً معه إلا إذا أصبحت مؤمناً."

سألها مستخدماً عبارة القس نديم نور:

"تقصدين تابعاً ليسوع المسيح؟"

بدت مهمومة ولم يؤثر فيها استخدامه لنفس كلمات والدها وأجابت:

"مهما تكن الكلمات. المعنى نفسه."

أمسك بيدها وقال:

"اسمعي. أنا في البداية كنت أحاول أن أكون مهذباً معه وأن أكسب صداقته وقبوله لي بأن أقف بجانب رأيه وأصادق على أفكاره. كنت أريد أن أجعله يُعجب بي وإلا فسوف يستمر في خطته لزواجك من يوسف هذا الذي يساعده في الكنيسة. ألا يخطط لذلك؟"

تحرّكت عيناها في مقلتيها في تعبير صريح وقالت:

"أرجو منك أن تتوقف. هذا لن يحدث أبداً."

استمرا يجريان بجوار بعضهما في شوارع البتراء وهو يقول:

"الحقيقة أنني كلما زاد استماعي لحديث والدك وما يقوله كلما زادت رغبتي في المعرفة والفهم. كلامه يثير فضولي ويفتح شهيتي لاستيعاب الكلام والوصول إلى الحقيقة."

لم تصدقه داليا ولم تقتنع بما يقوله، فعلّقت في استنكار وسخرية:

"حقاً؟"

قال مؤكداً في كلمات صادقة:

"هذا حقيقي. صدقيني. لقد قضيت الليل كله وأنا أقرأ العهد الجديد. الكتاب الذي أعطاني إياه والدك. طوال الليل وأنا أقرأ حتى أتممته."

سألته في تعجّب ودهشة:

"قرأته كله؟! كل الكتاب؟!"

"كله. من أول صفحة فيه حتى آخر صفحة."

"لماذا؟"

"لأنـه عجيـب ورائـع ومـدهش. هـل تعـرفين أن يسـوع المسـيح سـيأتي ثانيـة؟ سيأتي مرة ثانية قريباً كما هو مكتوب."

قالت وفي لهجتها سخرية لاذعة واضحة:

"ربما."

"ألا تصدقين أن يسوع سيأتي مرة ثانية؟"

انطلقت منحرفة إلى طريق جانبي بسرعة مما اضطر طارق أن يزيد من سرعته ليلحق بها وهي تقول:

"لا أعرف."

ما إن اقترب منها حتى سألها:

"ماذا تقصدين بذلك؟ كيف لا تعرفين؟"

"أقصد أنني لا أعرف ماذا أصدّق. ثم أنا لا أريد أن أتحدّث في هذا الموضوع."

ثم انطلقت مرة أخرى بسرعة مبتعدة عنه فصاح طارق وهو يجري خلفها:

"داليا. ما الذي يخيفك؟ لماذا تهربين؟"

الفصل الثامن والأربعون

استيقظ جودار مبكراً وتناول فطوره بسرعة في غرفته في الفندق. بعد ذلك غادر واتجه إلى مكاتب إدارة الشرطة في وسط بيروت. كان مرهقاً جداً فلم ينم إلا قليلاً خلال الليلة الماضية إذ لم يتوقف عقله عن التفكير ومحاولة إجابة الأسئلة الكثيرة التي كانت تتزاحم داخله ولا يجد إجابة لها بشأن القضية المعقدة التي لا يبدو أنه سيصل إلى حلها.

أخذت الخواطر تتصارع في ذهنه:

ماذا لو أن مروان عقاد ليس متورطاً في محاولة ابتزاز أموال رفيق رمزي؟ ماذا إذا كان لا يد له في اختطاف كلوديت رمزي بل يحاول هو وأخوه رامي العثور عليها كما يدّعيان؟ ماذا لو أن كلوديت رمزي لم تُختطف أصلاً؟ وأنها هي التي قامت بتدبير المؤامرة كلها من بدايتها؟ وأنها تختفي الآن في البرازيل؟ وماذا لو كان مروان قد كشف اللعبة ولديه الدليل على قيامها بتخطيط الجريمة ضد زوجها الذي يكبرها بسنوات كثيرة والذي يمتلك الملايين التي أرادت أن تستولي عليها؟ وماذا لو أن مروان عقاد قد تدخل ليساعد رفيق رمزي؟ وماذا لو كانت كلوديت وشركاؤها قد اكتشفوا أن مروان قد وصل إلى معرفة ما يخططون له وقرروا أن يتخلصوا منه ويوجهون ضربتهم إليه قبل أن يتحرك لكشفهم؟

هذا التصوّر يفسر سبب اغتيال رفيق رمزي. ويعلل أسباب انفجار السيارة وجرائم القتل في فندق الميريديان. لكنه لا يفسر سبب هروب مروان عقاد ومحاولة الاختفاء بدلاً من اللجوء إلى المسؤولين ورجال الشرطة. كما أنه لا يكشف سبب قتل رانيا فواز وزميلتها في السكن.

وصل جودار إلى مكتب إدارة الشرطة في بيروت وأظهر شارته وتحقيق شخصيته عند الباب ليُسمح له بالدخول لمقابلة السجين رامي عقاد.

في تلك الأثناء وصل إلى استنتاجين: إما أن مروان مذنب هارب من الشرطة كما يؤكد لوميه، أو أنه بريء ولديه معلومات مهمة عن القضية كشاهد، لكنه لا يثق في قوات الأمن والشرطة حتى يستسلم لهم. لكن ماذا؟ ما الذي يحدث لو... ؟!

قاطع تفكيره رنين التليفون فأجاب:

"هالو؟"

جاءه صوت لوميه الشبح يقول:

وجدت خيطاً سيقودنا إلى مروان عقاد. شرطة المغرب عثرت على شريط فيديو له يغادر مطار الدار البيضاء في طائرة أقلعت إلى القاهرة."

سأله جودار:

"أخيراً؟ ما الذي أخّرهم هكذا؟"

أجابه لوميه:

"هذا ما سوف أصل إليه. المهم أنهم اكتشفوا أنه سافر باسم طارق جميل. اسم مستعار آخر. وقد أكد رجال الشرطة المصريون وصول طارق جميل هذا إلى القاهرة. وبعد نشر صوره في كل مكان اتصل بهم مدير مبنى للتأجير في مصر الجديدة وأخبرهم أنه كان يقيم في شقة هناك لكنه غادرها في صحبة فتاة اسمها داليا نور. حتى الآن لا نعلم إلى أين ذهبا لكننا نتابع سيرهما ولا بد من أن نصل إليهما."

سأله جودار:

"وما هو المطلوب مني؟"

اذهب حالاً إلى رامي واستجوبه مرة أخرى واحصل منه على كل ما يعرفه."

وأضاف بلهجة متعالية فيها تهديد قائلاً:

"اسمع يا جودار. لا تفسد الأمر. خذ حذرك وتصرف بسرعة. أنا أريد رأس مروان عقاد على طبق قبل نهاية هذا اليوم. هل تفهمني؟"

رد عليه جودار باقتضاب أنه يفهمه وما إن أنهى المكالمة حتى وصلته رسالة إلكترونية من دوقال. لم يصدق ما يقرأ في تلك الرسالة. قرأ الرسالة مرة أخرى ليتأكد أن ما يراه صحيحاً. وفجأة أفقدته الفكرة توازنه كما لو أن أحداً لكمه بضربة قاضية. أجزاء اللغز تقاربت وتطابقت بشكل مفاجئ. كيف فاتته تلك الفكرة ولم يصل إليها من قبل؟ كيف لم ير الحقيقة كما هي الآن طوال الوقت؟ وبينما هو يلوم نفسه أفزعه أن الوقت المتاح له للتصرف قليل جداً. قبل أن يسمحوا له بالدخول إلى حجرة سجن رامي عقاد كان عليه أن يسلم للحرس سلاحه وتليفونه المحمول ويتركهما على مكتب الضابط المسؤول على الباب. أبرز كارت إثبات شخصيته ووقّع على دفتر السجن ودخل. اندفع داخلاً إلى حجرة رامي وفاجأه بوابل من الأسئلة المتتابعة الواحد بعد الآخر بسرعة. لم يكن يريد أن يفقد مزيداً من الوقت:

"هل استخدم أخوك اسم طارق جميل ليدخل إلى مصر؟"

الصدمة والذهول اللذان ظهرا على وجه رامي أكدا له أنه فعل ذلك.

"وهل كان يقيم في شقة في مصر الجديدة إلى جوار المطار؟ أليس هذا صحيحاً؟"

تردد رامي قليلاً لكنه أومأ برأسه بالإيجاب.

"يظن أخوك أن هناك شخصية كبيرة في السلطة لها نفوذ في التحقيق تلفق له التهم وتضيّق الحبل حول عنقه؟ أليس كذلك؟"

مرة أخرى أومأ رامي برأسه في حذر بالإيجاب.

"وأنتم أرسلتم رجالكم إلى البرازيل للعثور على كلوديت رمزي لأنك وأخوك تشكان في أنها هي التي قامت بتدبير المؤامرة من بدايتها. اختفت وأرسلت

خطابات الابتزاز، وطلب الفدية، واستلمت الأموال بنفسها؟ أهكذا تظنون؟"

بعد صمت وحيرة قال رامي:

"نعم. هذا صحيح."

"وخطة مروان أن يستمر هارباً حتى يُعثر على كلوديت رمزي ويعرف من يسعى إلى قتله. أليس هذا ما يخططه أخوك؟"

"هذا ما يخططه فعلاً."

لكنكما بعد أن عرفتما مكان كلوديت، وعثرتما عليها في مكان اختبائها، لم تعرفا لمن تسلمانها ومن تطمئنان له في ذلك. هل هذا ما يحدث الآن؟"

"تماماً."

وأضاف جودار بسرعة ولهفة:

"لكنكما الآن في مأزق. فأنت محتجز في السجن هنا ولوميه يطارد مروان أخاك ليلقي به في السجن أو يقتله. أليس كذلك؟"

نظر إليه رامي مستفسراً وقال:

"ماذا هناك يا سيدي المفتش. هل تسعى إلى أن نبرم اتفاقاً معك؟"

غيّر جودار من لهجته وقال:

"رامي. اسمعني. أنا الآن مقتنع تماماً ببراءة شقيقك مروان."

"قلت لك ذلك من البداية."

"الآن أنا أصدقك. وأظن أنني أعرف الشخصية ذات النفوذ التي تخشونها."

فتح رامي عينيه على اتساعهما وهو ينظر إلى جودار وسأله:

"من؟"

"مارسيل لوميه. الشبح."

"رئيس التحقيق في القضية؟ هل أنت متأكد؟"

"الآن تأكدت. نعم أنا متأكد."

أخذ جودار يشرح لرامي أنه كان قد حصل على أمر من المحكمة بوضع مكالمات مروان التليفونية تحت المراقبة، لكنه أيضاً استصدر أمراً آخراً من المحكمة بفحص كل الاتصالات والرسائل الإلكترونية الخاصة به أيضاً، واكتشفت كوليت دوڤال مساعدته إحدى تلك الرسائل مرسلة من شخصية كبيرة في المباحث الفرنسية إليه.

أوضح رامي له الأمر قائلاً:

"هذا بيير. صديق أعرفه منذ سنوات. رجل أمين جداً لا غبار عليه. طلبت منه أن يبحث لي عمن يقوم بالتحقيق في القضية."

هزّ جودار رأسه مؤكداً وقال:

"أعرف ذلك. لكن ذلك تم مؤخراً منذ أيام قليلة حين كنت في العراق. أليس كذلك يا رامي؟"

"تقصد تلك الرسالة التي قال لي بيير فيها أن لوميه اتصل بالمباحث الفرنسية يطلب كل ما لديهم من معلومات عن مروان؟"

أجاب جودار:

نعم. تلك الرسالة بعينها."

"وماذا في ذلك؟ يعتبر لوميه منذ البداية أن مروان المتهم الأول في القضية منذ اغتيال رفيق رمزي. من الطبيعي أن يحاول الحصول على أية معلومات عنه ليجمع الأدلة ضده."

أخذ جودار يشرح الأمر لرامي ببطء حتى يفهم الفكرة:

"هذا طبيعي ولا شك فيه. لكن دوڤال لما عثرت على الرسالة لجأت إلى إدارة المباحث الفرنسية تسألهم عن تاريخ طلب لوميه لتلك المعلومات عن أخيك مروان. واكتشفت منهم أن لوميه طلب تلك المعلومات قبل أن يقابل

مروان رفيق رمزي بثلاثة أيام. إفهم! قبل أن يلتقي مروان برفيق رمزي بثلاثة أيام! قبل أن يحدث شيء، يطلب لوميه معلومات عن أخيك!"

اتسعت حدقتا رامي بدهشة وقال في شك واضح:

"ثلاثة أيام قبل إطلاق الرصاص على رفيق رمزي وقتله؟!"

"نعم. هناك سبب واحد يدفع لوميه لأن يحاول الحصول على معلومات عن أخيك مروان عقاد. هذا السبب هو أنه عرف أن مروان يعمل لمصلحة ولحساب رفيق رمزي، وكان يعرف أن كلوديت هي التي تقوم بابتزاز زوجها وتجعله يحوّل أموال الفدية إلى بنك في بالبرازيل. هذه الأيام الثلاثة كافية لأن يضرب ضربته ضد رفيق رمزي وضد مروان عقاد معاً، ويخرج كلوديت رمزي من ساو پاولو ويخفيها في الجبال هناك. أكثر من ذلك... هل تعرف من يملك البيت الذي يحيط به رجالكم الآن ويحاصرون فيه كلوديت رمزي؟"

حرّك رامي رأسه بالنفي. وأجابه جودار:

"أخ لوميه. شقيق مارسيل لوميه هو صاحب البيت الذي تختبئ فيه كلوديت رمزي."

نظر إليه رامي وهو في غاية التعجب وسأل:

"هل هذا صحيح؟"

" دوڤال أرسلت لي ذلك حالاً في رسالة إلكترونية. ما إن وصلتني رسالتها حتى جئت مباشرة إليك."

سأله رامي وهو مذهول لا يصدق:

"هل تعني أن رئيس التحقيق في قضية اغتيال رفيق رمزي شريك في العصابة التي قامت بقتله؟! أهذا ما تقصده؟ هل هذا صحيح؟!"

"للأسف نعم!"

"على هذا فإن لوميه يطارد مروان لا ليقبض عليه ويسلمه إلى الشرطة بل ليقتله."

"وللأسف يبدو أن هذا صحيح أيضاً."

رفع رامي وجهه نحو جودار وقد امتلأ بالفزع والقلق والتوتر وسأل:

"وأين لوميه الآن؟ هل اقترب من مروان؟ هل وصل إلى مكان قريب منه؟"

"قريب جداً يا رامي. لهذا جئت بسرعة إليك. أنا أريد مساعدتك. قل لي أين مروان؟ أخبرني بسرعة. أريد أن أعرف حتى أنقذه، وأخرجه، وأوفر له وسائل الأمان، وأحميه من لوميه الذي سأبدأ من الآن في محاولة القبض عليه وتوجيه تهمة المؤامرة كلها إليه. هو رجل له مكانته في الأوساط الأمنية في أوروبا كلها. لكنني أستطيع أن ألقبض عليه وأقيمه إلى المحاكمة لو ساعدتني يا رامي."

قال رامي بانفعال شديد:

"سأساعدك طبعاً. لكنني لا أعرف أين مروان الآن. الطريقة الوحيدة للوصول إليه هو عن طريق التليفون الهوائي. هو لا يجيب أي اتصال إلا عن طريق التليفون الهوائي فقط. لكنني لا أعرف أين تليفوني. لا أعلم أين هو. أخذتموه مني عندما قبضتم عليّ وألقيتم بي في السجن."

لمس جودار جبهته وقال:

"في الفندق الذي أقيم فيه. في غرفتي. احتفظت به معي شخصياً على أمل أن يتصل بك مروان فأعرف أين هو. هيا بنا."

وقّع جودار كل الأوراق اللازمة للإفراج عن رامي، واستلم سلاحه وتليفونه وخرج الاثنان من مركز الشرطة واستقلاّ سيارة أجرة وانطلقا إلى الفندق بأقصى سرعة.

الفصل التاسع والأربعون

أتمّ طارق ارتداء ملابسه ولحق بداليا وعائلتها ليتناول طعام الفطور معهم. نظرت داليا إليهم وسألت في مرح:

"ماذا سنفعل اليوم؟ ماذا لو ذهبنا في رحلة سياحية؟"

ابتسم لها طارق وهو يعرف هدفها من هذا الاقتراح. هي تريد أن تتفادى الكلام عن يسوع.

قالت السيدة ريما نور بحماس وبساطة وهي تصب مزيداً من القهوة لكل منهم:

"نديم. لماذا لا تأخذ اليوم إجازة من عملك ونذهب مع داليا وطارق إلى كهوف النبطيين وكنوز الفراعنة؟"

صاحت داليا في فرحة:

"هذه فكرة رائعة يا ماما. أنا متأكدة أن طارق سيسر بذلك جداً."

نظر القس نديم نور إلى طارق وسأله:

"هل سبق أن ذهبت إلى تلك الأماكن يا طارق؟"

"لا يا سيدي. وإن كنت قد سمعت أشياء كثيرة رائعة عنها."

"كل ما سمعته صحيح يا بني. مدينة البتراء القديمة تخلب القلب والبصر. كلها محفورة في صخور الجبل الحمراء مختفية في حضن الوادي. كانت عاصمة مملكة النبطيين والمركز التجاري الكبير لها ومكان كل كنوزها وثرواتها. داليا على حق. ستعجبك جداً."

"وهل يسكنها أحد الآن؟"

"لا. المدينة مهجورة تماماً. يرتادها السيّاح فقط. وبائعو التحف الصغيرة والهدايا والمشروبات المثلجة للزوار. لكن كثير من المسيحيين وأنا واحد منهم يعتقدون أن الله أعد هذا المكان ليكون البرية التي ستكون موضع الملجأ الذي سوف تهرب إليه المرأة المتسربلة بالشمس لتختبئ به كما كتب يوحنا الرائي في سفر الرؤيا الأصحاح الثاني عشر عدد ٦ و١٤..."

هزت داليا رأسها في ضيق وهي تقول:

"أبي. ألا يمكننا أن نتناول طعامنا من دون الحديث عن الكتاب المقدس؟"

"نحن نعيش في الشرق الأوسط يا حبيبتي. في الأردن حيث تحقق كل ما هو مكتوب في الكتاب المقدس... اختار الله هذه المنطقة ليعلن ذاته في يسوع المسيح. كل مكان تطأه أقدامنا هو أرض الكتاب المقدس. كل ضربة معول في الأرض نجد دليلاً على صحة الكتاب المقدس."

قبل أن ترد داليا على والدها أسرع طارق يقول له:

"وأنا أفكر في ما كنت تقوله الليلة الماضية، راودتني أفكار أزعجتني وثارت في داخلي أسئلة حيّرتني. هل لديك دقائق لتجيبني عليها؟"

" طبعاً يا طارق. تفضل. إسأل."

حرّكت داليا عينيها معترضة وهي ترتشف قهوتها وقالت متضايقة:

"ها نحن نعود إلى الموضوع مرة أخرى."

ابتسم طارق معتذراً وهو يقول:

"آسف يا داليا. هناك شيء أريد أن أستوضحه من والدك. لن يأخذ ذلك منا وقتاً طويلاً."

لكنه أخذ منهم وقتاً ليس بقليل.

كان طارق والقس نور يتحدثان عن الكتاب المقدس طوال الوقت وهما يتناولا طعام الفطور. واستمر الحديث بينهما وهما يتجهان إلى المدينة النبطية بالسيارة. كانا يتحدثان بحماس وهما يعبران الطرقات الضيقة المنحدرة نحو

قلب مدينة البتراء القديمة. حاولت داليا أن تتفادى الاشتراك في الحديث وأرادت الابتعاد عن الاستماع لما يقولان. سارت إلى جوار والدتها تستعيد معها الأحداث والذكريات القديمة. إلا أن الأم لم تجارِها في ذلك. واقتربت من الرجلين لتستمع إلى ما يتبادلان من موضوعات تهمها. قال طارق باهتمام:

"العهد الجديد كتب بعد سنوات طويلة من أيام المسيح. هذا يجعلنا نتحفّظ ونحن نقرأه. مرور فترة بين حصول الأحداث وتسجيلها يشكك في صحتها."

أجابه القس نديم بثقة ويقين:

"الحقيقة عكس ما تقول يا طارق. كل كتب العهد الجديد كُتبت خلال مئة سنة بعد المسيح. ومن واقع البحوث والاكتشافات الدقيقة المسجلة نجد أن البشائر الأربعة كُتبت ما بين ٥٠ و٨٠ سنة بعد الميلاد، ورسائل بولس الرسول ما بين ٥٠ و٦٦ سنة أيضاً."

قال طارق في دهشة:

"يعني كُتبت في عهد بعض معاصري الأحداث."

"طبعاً. وهذا يضمن دقة ما هو مكتوب، وإلا اعترض على ما ليس صحيحاً به من عايشوا أحداثه. يقول بطرس للجماهير التي كانت تسمع له وهو يتكلم عن يسوع الناصري أنه قد تبرهن لهم من قِبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطهم. اسمع يا طارق ما يقول: كما أنتم أيضاً تعلمون. هو يستشهد بهم أنهم يعلمون. هل يستطيع أن يغيّر شيئاً مما رأوه وعرفوه؟"

"لا طبعاً. هم شهود على ما حدث."

وسأله القس نور:

"هل سمعت عن وليم ألبرايت؟"

"لا. لم أسمع عنه."

"هو أحد أبرز علماء الآثار المتخصصين في الكتاب المقدس في العالم."

ومدّ القس نديم نور يده إلى الحقيبة الصغيرة التي يحملها على ظهره وأخرج

كتاباً بعنوان "أعظم من نجّار" وأعطاه إلى طارق وهو يقول:

"افتح صفحة ٣٢. إقرأ المكتوب في منتصف الصفحة."

أدهش ذلك طارق جداً. في رحلة عائلية يحمل معه كتباً عن يسوع المسيح! نظر إلى الرجل المهيب باحترام شديد وضحك قائلاً:

"ماذا تحمل أيضاً في هذه الحقيبة؟ مخطوطات البحر الأحمر؟"

جاراه القس نديم في الضحك وقال:

"لا شيء غير كتابي المقدس وزجاجة ماء وبعض الفاكهة. هل تريد بعضاً منها؟"

"شكراً يا سيدي. لا أحتاج إلى شيء إلا هذا الكتاب."

نظر طارق إلى داليا ورآها تهزّ رأسها في ضيق، ثم قلَّب في صفحات الكتاب حتى وصل إلى الصفحة ٣٢ وبدأ يقرأ وهو يسير بجوارهم:

"يمكننا أن نقول بكل تأكيد وثقة أنه لم يعد هناك أساس لإرجاع كتابة أي سفر من أسفار العهد الجديد إلى ما بعد عام ٨٠ ميلادية. وهذا التاريخ يتقدم بجيلين كاملين عن التاريخ الذي يحدده نقاد العهد الجديد المتطرفين اليوم أي ما بين عامي ١٣٠ و ١٥٠ ميلادية."

توقف طارق ونظر إلى القس نور إن كان يرغب في الاستمرار فقال:

"هناك نص آخر للسير وليام رامزي – أعظم علماء الآثار – بالمعنى نفسه. ولو شئت لأعطيتك بدل الكتاب عشرة تؤكد أن أسفار العهد الجديد كُتبت وما تزال الأحداث ساخنة ما يؤكد صحتها تماماً. ثم من هم الذين كتبوا تلك الكتب؟"

فكر طارق قليلاً وأجاب:

"تلاميذ المسيح وتابعوه. أليس كذلك؟"

"نعم. هم تلاميذه وتابعوه. شهود عيان يا طارق! شهود على ما حدث

تماماً. فما يجعل الكتاب المقدس مصدر ثقة هو أن الذين شاركوا في كتابته هم شهود عيان. عاشوا مع المسيح، سمعوه، ورأوه وساروا بالقرب منه. يقول يوحنا الرسول – كاتب الإنجيل الذي يحمل اسمه ثم رسائله الثلاثة، ثم سفر رؤيا يوحنا – عن المسيح: **الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ. فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا. الَّذِي رَأَيْنَاهُ وَسَمِعْنَاهُ نُخْبِرُكُمْ بِهِ، لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ أَيْضاً شَرِكَةٌ مَعَنَا.** فإن أردت أن تصف يوحنا من خلال هذه الكلمات، ماذا تقول عنه؟"

"أقول إنه شاهد. شاهد عيان."

تحرك نحوه وقال:

"وبوحي من الله يقول بولس الرسول: **كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحىً بِهِ مِنَ اللهِ. والرسول بطرس يؤكد أنه لَمْ تَأْتِ نُبُوَّةٌ قَطُّ بِمَشِيئَةِ إِنْسَانٍ، بَلْ تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللَّهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ.**"

"هذا شيء مذهل."

"مذهل فقط؟"

توقّف طارق لا يعرف كيف يجيب القس نور فقال متلعثماً:

"طبعاً. هو شيء مذهل!"

"لكنك لست مقتنعاً به على الرغم من كل ذلك أنت لم تقتنع تماماً؟ أليس كذلك؟"

لم يجب طارق. أراد أن يبقى بعيداً. جاعلاً مسافة بينه وبين القس نور. هو لا يريده أن يعرف المعاناة التي يشعر بها في داخله ولا أن يحس بمأساته التي يعيشها ولا المخاوف التي تملأ قلبه وعقله. ليس بعد. ليس الآن. حتى الآن هو لا يفهم ما الذي جرّه إلى ذلك ...

الفصل الخمسون

"مشكلة. هناك مشكلة. لدينا مشكلة يا سيدي المفتش."

كان رامي يقف أمام النافذة في غرفة جودار في الفندق يتطلع إلى الخارج إلى وسط بيروت المزدحمة بالحوانيت والمحلات وعدد كبير من السياح والمتسكعين. قال ذلك لجودار في حيرة.

فزع جودار مما سمع وسأله:

"مشكلة؟"

"مروان لا يردّ."

"جرّب مرة أخرى."

قال جودار ذلك بسرعة وبلهجة أمر وهو يتحرّك في الغرفة قلقاً.

"جرّبت أربع مرات."

"ما معنى هذا؟"

نظر إليه رامي في حيرة وأجاب:

"إما أن الهاتف مغلق أو أن مروان لا يحمله، أو ..."

خيّم على الغرفة صمت. لم يكمّل رامي جملته ولم يكن جودار يحتاج إلى أن يكمّلها فقد أدرك مخاوف رامي: أو أن مروان عقاد قد وقع في أيديهم وتم القبض عليه أو قتل. قال مواسياً ومشجعاً رامي:

"لا تشغل بالك. سوف نعثر عليه. لا بد من أن نعثر عليه وسيكون كل شيء على ما يُرام."

قال ذلك وهو يتمنى أن يكون ما قاله صحيحاً. فجأة انطلق صوت رنين تليفونه

وعرف بعد أن ألقى نظرة سريعة على الشاشة أن المتكلمة هي دوڤال فسألها:

"ماذا وجدتِ؟"

"أين أنت؟ أحاول الاتصال بك ولا ردّ."

"كنت في مركز الشرطة ولم يسمحوا لي باستعمال التليفون هناك." لماذا؟ ماذا حدث؟"

سألته دوڤال في تعجّب:

"ألم تتلقّ رسالتي؟"

"لا. ماذا؟"

"لوميه طلبك مرتين ولمّا لم ترد عليه هاج وماج وطلب مني أن أعثر عليك بأي طريقة."

"وماذا يريد؟ ماذا يريد مني لوميه؟"

تحرك رامي تجاه جودار ليعرف ماذا يحدث بينما دوڤال تقول لجودار:

"قال إن رجال المباحث المصريين اقتفوا أثر مروان عقاد والفتاة التي معه وعرفوا أنهما في فندق في مدينة شرم الشيخ في البحر الأحمر."

"عظيم. احجزي لي تذكرة طيران إلى شرم الشيخ حالاً."

"لا. لا. انتظر. هناك المزيد من الأخبار. غادر مروان والفتاة شرم الشيخ واستقلا سيارة إلى نويبع، ثم عبّارة سريعة إلى العقبة."

سألها جودار بصوت عال متحيّراً:

"العقبة في الأردن؟ ولماذا الأردن بالذات؟"

"الفتاة التي معه من الأردن."

"وما اسم الفتاة؟"

"داليا نور."

"لحظة يا كوليت. انتظري لحظة؟"

أبعد التليفون وتحوّل إلى رامي يسأله إن كان يعرف شيئاً عن فتاة اسمها داليا نور. أجابه رامي وهو يفكر:

"لا. لكنني حين اتصلت به منذ أيام كان يبحث عن وسيلة ليغادر القاهرة. لعله استخدم تلك الفتاة ليترك القاهرة أو يترك مصر كلها."

قرّب جودار التليفون من وجهه وسأل دوڤال:

"من أي منطقة في الأردن؟ الفتاة التي معه، من أي مدينة؟"

أجابته دوڤال بسرعة وقالت:

"البتراء. وعندي عنوانها هناك. لوميه أيضاً لديه عنوان الفتاة. وقد ذهب هو ومعه بعض الرجال إلى هناك."

بدأت أمعاء جودار تتقلّص غضباً وخوفاً وصاح في التليفون:

"هل أخطر السلطات الأردنية أنه قادم إلى الأردن؟"

"لا يا سيدي. لم يخطر أحداً."

صمت جودار قليلاً وهو يفكر في الموقف ثم قال:

"كوليت. أنت تعرفين طبعاً ما أظنه في لوميه؟ أليس كذلك؟"

"نعم. تعتقد أنه يعمل مع كلوديت رمزي."

"ألا تؤيدين ظني في ذلك؟"

"بناء على المعلومات التي لدينا خلال الساعات الماضية الأخيرة طبعاً أؤيدك."

وهل نستطيع أن نثبت ظنوننا هذه ونظريتنا؟"

"ليس بعد يا سيدي." قالت ذلك ثم أضافت:

"نحتاج إلى بعض الوقت لذلك؟"

"ليس لدينا وقت يا كوليت. ليس لدينا وقت. لو عثر لوميه على مروان سيقتله."

"هل أتصل بسلطات الشرطة في الأردن وأطلب منهم القبض على لوميه؟"

أسرع جودار يقول لها:

"لا. لن يقبلوا ذلك. لن يلقوا القبض عليه ما لم تتوفر لديهم أدلة أكثر مما لدينا الآن."

"فماذا سنفعل يا سيدي؟"

قال بحماس وعزم وتصميم:

"الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله الآن يا كوليت هو أن تسرعي بتدبير طائرة هليكوبتر تنقلني إلى البتراء. سأذهب إلى المطار حالاً لأجد تلك الطائرة المروحية في الانتظار. أتسمعينني؟"

"أسمعك يا سيدي وسأنفّذ طلبك حالاً."

والتفت جودار إلى رامي وقال:

"ستأتي معي يا رامي. هيا بنا."

الفصل الحادي والخمسون

وصل كلٌّ من القس نور وزوجته وابنته وطارق إلى العاصمة القديمة لمملكة النبطيين. طافوا من حولها ساعات عديدة وهم مأخوذون بطريقة بناء الواجهة المحفورة في صخور الجبل من الجانبين. أخرجت السيدة ريما نور كتيباً إرشادياً وأخذت تقرأ منه فقرات بصوت عال:

"البتراء من أعظم وأعرق الآثار القديمة الرائعة في التاريخ. احتفظت بقدرة وإعجاز بالمعابد والهياكل والمقابر المنحوتة في الصخر والتي تظهر روعة النقوش التي كانت تتميز بها تلك المدينة التي ازدهرت واشتهرت في القديم. كانت موطناً لتجمعات بشرية قديمة قبل مجيء النبطيين إليها. في البداية كانت بئراً في الصحراء ثم تغيّرت تماماً ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي. تم بناء مدينة فخمة عظيمة لتصبح مركزاً للتجارة في كل الإمبراطورية. في عام ١٠٦ ميلادياً استولت عليها الإمبراطورية الرومانية، ثم وصل إليها المسيحيون في القرن الرابع الميلادي، والمسلمون في القرن السابع، والصليبيون بشكل محدود في القرن الثاني عشر. بعد ذلك طواها النسيان حتى تم اكتشافها عام ١٨١٢ بواسطة المكتشف السويسري بورخاردت."

أول مبنى وصلوا إليه كان محفوراً في الجبل، وكان أكثر المباني روعة وإثارة. كان مركز المال والخزانة بأعمدته المنحوتة بدقة وجمال مذهل. ثم هناك الدير باتساع سبعة وأربعين متراً وبارتفاع قدره أربعون متراً وحسب ما هو مدوّن في كتاب الإرشاد كان قد استُخدم كمعبد للأوثان. من هناك ساروا حتى وصلوا إلى المقابر الملكية وبوابة التيمينوس، المدخل المقدس لقاعة قصر البنت في أهم معابد البتراء. بعد ذلك وصلوا إلى أول ما عُرف بأنه كنيسة البتراء – وهي من أقدم أماكن العبادة للمسيحيين في الأردن – مبنية بالفسيفساء الدقيقة

التي تزيّن ممرات القاعة البيزنطية الواسعة.

قالت السيدة ريما نور وهي تقرأ إنه تم العثور على مخبأ يحتوي على ١٥٢ مخطوطة كشفت عن دقائق الحياة اليومية للبتراء البيزنطية.

بعد ذلك جالوا في بيوت المسيحيين الأوائل. لم يستطع طارق أن يقاوم. عليه أن يحوّل الحديث إلى موضوع الكتاب المقدس وهل يمكن الاعتماد عليه والثقة به في معرفة ما فعله يسوع وتلاميذه وما قالوه. أخذ يسأل القس نور السؤال تلو الآخر بلا توقّف وكان يجيبه. ثم قال له القس نور:

"هل تعرف يا طارق أن لدينا عدداً من المخطوطات القديمة للعهد الجديد أكثر من أي عمل مكتوب آخر في العالم على مدى التاريخ؟"

سأله طارق:

"ماذا تقصد بذلك؟"

أجابه نديم نور:

"لقد عثر رجال الآثار على عشرين ألف مخطوطة قديمة للعهد الجديد بعضها كتب عام ١٣٠ ميلادياً وكلها متطابقة ومتشابهة تماماً."

"وماذا يعني هذا؟" ماذا يدل عليه ذلك؟"

"يعني أنه صحيح ومعصوم من أي خطأ. هذا العدد المهول من المخطوطات للعهد الجديد إذا ما قورن بالمخطوطات التي اكتُشفت لكتاب الإلياذة لهوميروس مثلاً، والتي لا تتعدى ٦٤٣ مخطوطة، يؤكد لنا صحته ويجعلنا نثق في أصالته. تصوّر عشرين ألف مخطوطة للعهد الجديد ويقابلها في المرتبة الثانية ٦٤٣ مخطوطة للإلياذة فقط! أي مقارنة يمكن أن تقوم بينهما؟ بعد ذلك كل الكتب القديمة التي نتباهى بها ونعتبرها صحيحة، ليس لدينا مخطوطات مثل هذه لها... أغلبها ضاع واندثر واختفى. كتب أرسطو أشعاره عام ٣٤٣ قبل الميلاد، وأول نسخة سُجلت لها عام ١١٠٠ بعد الميلاد، أي بعد ١٤٠٠ عامٍ تقريباً. ولا توجد إلا خمس مخطوطات باقية منها. ما أريد

أن أقوله يا طارق هو أن ما لدينا من أقوال المسيح وأعماله في العهد الجديد، مما كتبه تلاميذه وتابعوه، هو أدقّ وأصحّ من أي كتابة أخرى في التاريخ كله."

قال طارق وهو يحاول أن يجد ثغرة فيما قضى الليل كله يقرأه:

"ومن يضمن أن ما كتبه تلاميذه صحيح تماماً؟ أقصد أنهم قد يكونون تخيّلوا أشياء كتبوها وادّعوها، أشياء مثل قولهم أنه هو الله؟"

سأله القس نور مبتسماً:

"وما الذي يدفعهم إلى ذلك؟ لماذا يدّعون شيئاً لم يحدث؟"

كانوا قد تعبوا من السير فدخلوا المسرح القديم في مدينة البتراء والذي يسع ٧٠٠٠ شخص، وجلسوا على مقاعده الحجرية والمحفورة في جانب الجبل. تدخّلت داليا في الحديث لأول مرة بانفعال وهجوم وسخرية:

"ما الذي يدفعهم إلى ذلك؟ ألف سبب وسبب. بحثاً عن الشهرة مثلاً والوصول إلى السلطة والرغبة في الحصول على المال. لقد أصبحوا أكثر الناس ثراء ونفوذاً وسلطة بإعلانهم أن المسيح هو الله، وأنهم هم المتحدثون باسمه على الأرض. ألم يفعلوا ذلك؟"

نظر إليها والدها بدهشة كبيرة، لكنه أجاب برقّة ولطف وصبر أدهش طارق، وقد صدمه هجوم داليا:

"أنت تمزحين ولا شك. أليس كذلك يا حبيبتي؟"

"أبداً. أنا لا أمزح."

انكمش طارق في خجل وإحراج وتساءل عمّا دفعها إلى هذا التصرف غير اللائق. آخر ما كان يحتاج إليه هو هذا الاختلاف بين داليا ووالدها. قال الرجل:

"يظهر يا داليا يا حبيبتي أن بعض المعلومات التاريخية التي عندك مشوّهة."

عاودت داليا هجومها بلا تراجع قائلة:

"هل نسيت أن الإمبراطور قسطنطين الروماني عندما اعتنق المسيحية وهب

الكنيسة ثروة كبيرة لا حصر لها، ووفر لها قوة ونفوذاً بلا حدود؟"

"لا لم أنسَ، هو فعل ذلك فعلاً، لكن ذلك حدث بعد حوالي ثلاثمائة سنة من زمن المسيح. كل تلاميذ المسيح وتابعوه كانوا فقراء. كانوا إما صيادين أو محصّلي ضرائب للحكومة الرومانية في إقليم فلسطين. لم تكن لديهم أية فكرة أو نية أن يحصلوا على ثروة من إعلانهم للعالم عن موت وقيامة يسوع المسيح. بعكس ذلك، كان المسيحيون الأوائل أقلية دينية صغيرة، وسط أقلية دينية يهودية، وسط محيط واسع من الرومان الوثنيين. قوبلوا باضطهاد عنيف ومقاومة شديدة من السلطات الرومانية. الأحد عشر تلاميذاً الذين اختارهم يسوع ليقدّموا رسالته إلى العالم، ماتوا شهداء في سبيل إصرارهم على الإعلان بأنهم شهود لقيامة المسيح، واعترافهم أن يسوع المسيح هو الله الذي ظهر في الجسد. لقد نالوا أقسى أنواع التعذيب من ضرب، وجلد، وسجن، ثم قُتلوا بأكثر الوسائل الوحشية التي كانت معروفة في ذلك الوقت واشتهر بها الرومان. تمّ صلبُ ستة منهم وبطرس صُلب في وضع مقلوب، رأسه إلى أسفل! يعقوب رُجم حتى الموت! توما قُتل بحربة في صدره ويوحنا مات في منفاه بجزيرة بطمس بسبب إيمانه بالمسيح وتبشيره به! لم يحصل أي واحد من أتباع يسوع المسيح على مال أو سلطة أو موقع سياسي أو شيء من ذلك. وعلى الرغم من كل ما واجهوه من صنوف التعذيب والاضطهاد لم ينكروا إيمانهم بالمسيح وأنه الله الذي ظهر في الجسد ومخلص البشرية."

تراجعت داليا أمام دفاع والدها ومعلوماته التاريخية ومنطقه القوي، لكنها عادت وقالت في محاولة أخرى لإثبات نظريتها:

"قد يكون ذلك صحيحاً وأنهم ماتوا شهداء لما يؤمنون به ويعتنقونه فيه. لكن كثيراً من الناس ماتوا عبر التاريخ في سبيل كذبة أو خدعة. أليس كذلك يا أبي؟"

تدخّلت السيدة ريما نور في الحديث وأجابت ابنتها قائلة:

"هذا محتمل طبعاً. من المحتمل أن يموت أحد في سبيل كذبة تصوّرها حقيقة فاعتنقها وتبعها. تريدين أن تقولي إن الرسل ادّعوا أن المسيح هو الله،

ليحصلوا على المال والنفوذ والشهرة، أليس هذا ما تقولينه؟ لكن ذلك لا ينطبق على الحقائق التي بين أيدينا. المسيح أعلن أنه هو الله، وقال ذلك علانية أمام شهود كثيرين، ثم مات على الصليب وقام من الموت في اليوم الثالث، وهذه حقيقة حدثت أمام أعينهم، كيف يستطيعون أن ينكروا ما قيل أمام آلاف الجموع الملتفّة حوله، فقد سمعه الناس كما سمعوه هم؟! وكيف يستطيعون أن يخفوا موت المسيح على الصليب في الجلجثة أمام المئات أو الألوف ممن شاهدوا ذلك كما شاهدوه هم؟ ثم قيامته من الموت وظهوراته المتعددة للمئات وهم منهم؟ كيف يكون ذلك كله كذبة يدّعونها؟ ثم إذا كانوا كما تقولين هم الذين اختلقوا هذا ونشروه ثم ماتوا جميعاً في سبيل ذلك من دون أن يحققوا أية فائدة أو مصلحة مادية أو مالية، هل هذا معقول يا داليا؟ وهل هذا شيء يقبله عقل؟"

الفصل الثاني والخمسون

فكّرت داليا في دفاع والدتها وهي منكّسة الرأس ثم قالت مستسلمة رغماً منها بصوت منخفض فيه الشعور بالهزيمة:

"لا يا ماما. لا. فعلا هذا لا يقبله عقل. حتى عقلي أنا يرفضه. آسفة."

بهدوء ولاستكمال الحديث أضاف القس نور قائلاً:

"ولإثبات كذب الرسل عن قيامة المسيح من الموت، كان على مقاوميهم من اليهود الذين يريدون طعن المسيحية في أقوى دعائمها أن يُظهروا جسد المسيح الميت. جثته! لو أظهروا جثته لاستطاعوا أن يقولوا لهم: تقولون إنه قام من الموت. ها هي جثته وقد شبعت موتاً. لكنهم لم يستطيعوا ذلك."

سأل طارق:

"لماذا؟ لِمَ لم يستطيعوا ذلك؟"

"لأنهم لم يعثروا على جثته. لا أحد عثر على الجثة. بعضهم قال إن تلاميذه سرقوا جسده ليلاً والجنود نيام."

"لِمَ لا يكون ذلك ما حدث فعلاً؟"

"إذا نظرنا إلى التلاميذ بعد موت المسيح وقبل قيامته نجد أن هذا الفرض مستحيل. ولا واحد منهم كانت لديه ذرة من الشجاعة أو الجنون ليسرق جسد المسيح. القبر كان محروساً بمجموعة من الحراس الرومانيين وكان الحجر الذي على باب القبر مختوماً. من يملك الجرأة ليواجه الجنود الرومان الأقوياء الذين يعرفون أن عقاب اختفاء أسيرهم الذي يحرسونه حياً أو ميتاً هو الموت؟ والختم الروماني، من يجرؤ أن يكسره؟ على الرغم من كل ذلك اختفى الجسد! كل من كان في أورشليم في ذلك الوقت خصوصاً أعداؤه عرفوا أن الجسد قد اختفى."

سأل طارق في اهتمام:

"إذا كان التلاميذ على هذه الدرجة من الضعف والجبن، ألم يكن هناك غيرهم يستطيعون سرقة الجسد؟"

أجابه القس نور وهو يحاججه بصبر:

"كان عليهم أيضاً أن يهاجموا الجنود الرومان الذين يحرسون القبر وهذا ليس بالأمر الهيّن أو الممكن. لكن حتى لو كان ذلك في استطاعة أحد، من هؤلاء الذين يتجرّأون ويُقدمون على ذلك؟ قادة اليهود مثلاً؟ لماذا؟ هم آخر من يريد أن يجعل الناس تصدق أن عدوّهم قام من الموت. هم الذين طلبوا من الوالي حراسة القبر بحجة أن المسيح قال أمام الجميع أنه سيقوم في اليوم الثالث من الموت. فكيف بعد ذلك يسرقون الجسد؟"

نظر طارق إلى القس نديم نور بإعجاب وقال:

"يبدو أنك فكرت في ذلك جيداً يا سيدي."

"هذا صحيح يا طارق. فحصت ودرست وفكّرت في كل جوانب موضوع قيامة المسيح من الموت. بحثت في كل الاحتمالات والأدلة العلمية والتاريخية وحتى الطبيعية لمئات الساعات. صدقني مئات الساعات، وبعد ذلك كله قررت أن أؤمن بالمسيح وأتبعه. عندما تبحث عن دليل وبرهان وتجدهما، فلا بد من أن تتخذ قراراً إزاء وصولك إلى ذلك البرهان. كل برهان يحتاج إلى قرار. فبعد البحث والحصول على البرهان اتخذت قراري بتصديق كل ما جاء عن المسيح في العهد الجديد ثم قررت اتبّاعه. يسوع المسيح كان أعظم جداً من معلم صالح، أعظم جداً من نجار وأعظم جداً من نبي أو رسول. المسيح هو ما قاله عن نفسه:

أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي."

في انبهار بما يسمع سأله طارق:

"وأنت قد اقتنعت أن يسوع المسيح هو الطريق؟ أهذا ما اقتنعت به؟"

"نعم. الطريق الوحيد لغفران جميع خطاياي. والطريق الوحيد للحياة الأبدية في السماء."

كان الرجل يتكلم بيقين وتأكيد وثقة جعلت طارق يفكر بعمق وجدية فيما قاله. تلفّت إلى أطلال وآثار مدينة البتراء الممتدة أمامه. كان عقله يدور بسرعة وعنف وهو يناضل ويصارع ما يزمع أن يفعل بعد أن اتّضحت أمامه أمور كثيرة كانت غامضة، وبعد أن بزغ داخله نور كشف الخطايا الكثيرة التي اقترفها في حياته والتي تتزايد وتتضخم ساعة بعد أخرى، وكان الكذب هو أول تلك الخطايا وأفظعها، كان الكذب في حياته شيئاً عادياً يمارسه بشكل تلقائي بلا تردد وأحياناً بلا سبب. كذب لمجرد الكذب. عادت به ذاكرته إلى اللوحة التي رآها في معهد البردي في القاهرة بالقرب من أهرامات الجيزة، صورة المحاكمة الأخيرة. تُرى هل قلبه وما به أخفّ من الريشة التي في كفة الميزان؟ مستحيل! فلو مات اليوم، ووقف أمام قاضي اليوم الأخير، فلن يذهب أبداً إلى السماء. سيذهب مباشرة إلى جهنم. أفزعه جداً هذا الخاطر الأسود. هل يسوع هو الحل؟ هل لديه الجواب؟ هل هو فعلاً الطريق والحق والحياة؟ هل لا طريق إلى السماء إلا به؟ هذا ما قاله المسيح وكرره، والمكتوب في العهد الجديد، وما أكده القس نديم نور. يسوع حقيقي وكلامه حق تماماً. كل ما قاله حق والتلاميذ أيضاً قالوا عنه كل الحق، وهو قادر على تغيير الحياة وتغيير الإنسان. لكن ماذا لو...

وخرجت الكلمات الأخيرة التي كان يفكّر فيها من فمه بصوت مسموع لكل من حوله. التفت إليه القس نديم نور وسأله في تعجّب:

"ماذا لو...؟ ماذا يا طارق؟"

"ماذا لو كان الكتاب المقدس والعهد الجديد بالذات قد حُرّف؟"

صرخت السيدة ريما نور تكرر سؤاله وهي تخفي فمها بيدها:

"حُرّف؟ الكتاب حُرّف؟!"

قال طارق معتذراً:

"بعضهم يقول ذلك. أليس كذلك؟"

أسرع القس نور يجيب:

"حتى لو قالوه ألف مرة، فهل هذا يجعل قولهم صحيحاً؟ الذين يقولون ذلك هم أعداء المسيح والمسيحية... يسعون لمحاربتها دائماً. أجبني يا طارق عن سؤالين: متى؟ ومن؟"

"متى؟"

"نعم. متى تمّ التحريف؟"

"في أي وقت طبعاً."

"ليس طبعاً. الكتاب المقدس موجود بمخطوطاته من زمن طويل متاح لمن يرغب في أن يجده ويقرأه. دعنا نركّز على العهد الجديد. موجود من القرن الأول."

"هذا صحيح."

"مستحيل تحريفه في ذلك الوقت، فقد كان معاصرو المسيح موجودين لا يقبلون تغيير أي حدث أو قول سمعوه وشهدوه."

"بعد ذلك."

"بعد ذلك كانت نسخ المخطوطات منتشرة وأي تحريف يصعب إتمامه إلا بجمع كل المخطوطات أينما كانت وتغييرها أو تحريفها. وهذا مستحيل عملياً. ثم هل كان اليهود الذين عاصروا الأحداث يسكتون؟ لا أيضاً. مستحيل أن يسكتوا!"

"هذا صحيح. صعب ومستحيل!"

تمهل القس نور قليلاً ثم انتقل إلى السؤال الثاني قائلاً:

"من؟ من الذي يحرّفه، اليهود أم المسيحيون؟ اليهود لم يقبلوا المسيح بل

رفضوه ورفضوا كل شيء منه وعنه؟ فكرة التحريف هي أن يجمّلوا المسيح والمسيحية ويزيدوا من فضائلها وتميّزها. اليهود لم ولن يفعلوا ذلك طبعاً. وبالتالي لم يحرّفه اليهود."

فكّر طارق قليلاً وحوّل نظره إلى داليا وأمها فوجدهما مثله تفكران. قال:

"المسيحيون. المسيحيون طبعاً هم الذين يريدون تغييره وتحريفه لمصلحتهم."

"لو قاموا بذلك أو حاولوه لما تركهم اليهود يفعلون ذلك أبداً. كانوا حاربوهم ومنعوهم من ذلك. ما رأيك؟"

في استسلام به بعض الراحة، قال طارق:

"رأيي مثل رأيك يا سيدي. التحريف مستحيل. مستحيل!"

اعتدل القس نور وابتسم في راحة وهو يقول:

"الحمد لله. ثم يا طارق يا بنيّ. هذا كلام الله. كلمة الله. والله القادر يحفظ كتابه من أي تدخّل بشري للعبث به. يقول الله كما هو وارد في آخر سفر الرؤيا: **وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ يَحْذِفُ اللهُ نَصِيبَهُ مِنْ سِفْرِ الْحَيَاةِ، وَمِنَ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمِنَ الْمَكْتُوبِ فِي هَذَا الْكِتَابِ.** من يجرؤ على أن يحرّفه وهذا التهديد مسلّط على رأسه؟! ثم اسمع ما قال يسوع المسيح بنفسه كما ورد في متى ٢٤:٣٥ **اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلَكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ.**"

كان القس نور يقول ذلك وهو يجلس ملتصقاً بطارق على المقعد الحجري وقد أحاط كتفه بذراعه. اقترب بوجهه منه وقال:

"طارق. أنت تفكر في ذلك بجدية واهتمام؟"

"نعم. أنا فعلاً كذلك."

خرجت الكلمات منه بصدق وإخلاص أحسّ به الجميع وحلّ عليهم صمت قطعه القس نور بقوله وكلماته تشعّ رقة ومحبة:

"هل تريد أن تصبح تابعاً للمسيح يا طارق؟ هل تحب أن ترى خطاياك كلها

غُفرت؟ وأنك ستقضي أبديتك في السماء؟ في حضرة الله ذاته؟"

أخذ قلب طارق يخفق بشدة. لو فعل ذلك، ماذا سيقول عنه أخوه رامي؟ أو ماذا ستظن داليا؟ لكنه طرد هذه الأفكار من عقله فقد كان متأكداً في تلك اللحظة، من دون أي شك، أن يسوع المسيح يدعوه إلى الانضمام إلى عائلته. قال:

"نعم يا سيدي. نعم. أريد ذلك جداً. لكن كيف؟ كيف أصبح كذلك؟"

"في سفر الرؤيا ٣:٢٠ يقول المسيح: **هَئَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي.**"

قال طارق وصوته يعكس فرحة كبيرة:

"أهذا صحيح؟!"

"طبعاً! هو صحيح تماماً! تستطيع أن تجعل يسوع المسيح مخلصاً شخصياً لك، ورباً وسيداً على حياتك الآن وحالاً إذا دعوته ليدخل حياتك."

"وكيف أدعوه إلى حياتي؟"

"بالصلاة بإيمان. الصلاة يا طارق هي حديث مع الله. الله يعرف قلبك ويعرف ما به جيداً. لا تهمه الكلمات التي تخرج من فمك، كل ما يهمه هو موقف قلبك منه. حين أردت أن أدعوه ليدخل حياتي صليت وقلت له بكل بساطة وإيمان وصدق: **ربي يسوع. أنا أحتاج إليك. أشكرك من كل قلبي لموتك على الصليب لأجلي. ها أنا أفتح باب قلبي وحياتي لك وأقبلك مخلصاً ورباً وسيداً لي. أشكرك يا رب من أجل غفرانك خطاياي وإعطائي حياة أبدية فيك. تسلَّم يا رب حياتي واجعل مني الشخص الذي تريدني أن أكونه.** هل تعبّر هذه الصلاة عن رغبة قلبك؟"

في تسليم وفرحة، وهو يتفادى أن يقع نظره على وجه داليا، قال:

"نعم يا سيدي. تعبّر عن رغبتي تماماً!"

في حماسه لم يفكّر في داليا. كان مندمجاً ومنسجماً كلية مع والدها في الاستماع إليه والحديث معه. حين فكّر فيها الآن كان متوقعاً أن ما سيقوم به سوف يؤدي إلى قطع علاقتها به. وكان متأكداً أن عليه بعد أن اتخذ قرار اتّباع يسوع، أن عليه أن يخبرها ويخبر عائلتها بكل الحقيقة عن نفسه وعن هروبه وأسبابه. بعد ذلك، هل ستظل داليا تفكر به وتحبه ومستعدة للزواج منه كما كانا يخططان؟ هل قراره باتّباع يسوع وقول الحقيقة سوف يكلفه أن يفقد أول حب حقيقي في حياته؟ قد يكون كذلك، لكن هل يستحق ذلك؟ وهل هو مستعد لدفع ذلك الثمن لاتّباع يسوع؟ يسوع دفع ثمناً أغلى، مات على الصليب ليتيح له فرصة الخلاص. هو الله خالق السماء والأرض. ترك مكانه ومكانته وحلّ على أرضنا البائسة لينقذها، وينقذه، وينقذ كل من يؤمن به من الحكم الأبدي بالموت الذي يستحقه بسبب خطاياه. ها هو يسوع يقف في هذه اللحظة على باب قلبه وحياته ويقرع. هذا هو الموقف وهذه هي الفرصة التي عليه أن يقبلها بشكر. يسوع يدعوه ويريده أن يصبح تابعاً له. مهما كانت النتائج سيقبل. نعم سيقبل.

بادره القس نديم نور قائلاً في صراحة وموضحاً:

"أنت تدرك يا طارق حجم هذا القرار. أليس كذلك؟ لا تأخذه باستخفاف. سيغفر الله جميع خطاياك. سيخلصك تماماً ويخلق فيك قلباً جديداً، طاهراً ونقياً، ويوفر لك حياة جديدة تماماً. لا بد من أن تعني ما تنوي أن تفعل. لا بد من أن تكون مستعداً وجاداً في أن تترك كل مواقفك ومعتقداتك ونظرتك المشوشة إلى الله وتصبح تابعاً أميناً ليسوع المسيح وحده."

"أعرف ذلك يا سيدي."

"وتعرف جيداً أن يسوع المسيح قد مات على الصليب؟"

"أعرف."

"وتؤمن أنه قام من الموت في اليوم الثالث كما هو مكتوب في الكتاب المقدس؟"

"أؤمن."

"وأن تعترف بقلبك ولسانك أن يسوع المسيح هو الرب وهو الملك على حياتك؟ وأنك ستحبه وتخدمه بكل قلبك، وبكل عقلك، وبكل روحك، وبكل قوتك من اليوم وإلى نهاية حياتك؟"

قال طارق مندفعاً بكل قوته:

"سأفعل يا سيدي. صدقني سأفعل. أنا في أمسّ الحاجة لمساعدة الله لي. أريد أن أحيا الحياة التي يريدني يسوع أن أحياها. لو قبلني يسوع سوف أتبعه بلا تردّد."

كان طارق يدرك أن كل ما يقوله يخرج من قلبه، ويعنيه، ويريد أن ينفّذه بكل إرادته. كان قراره هذا أهم وأخطر قرار اتخذه في كل حياته.

بعد ذلك ومن دون توقّع، لدهشته سمع داليا تقول:

"وأنا أيضاً يا أبي. أنا أيضاً أريد أن أتبع يسوع. أريد أن أتبعه بصدق هذه المرة."

الفصل الثالث والخمسون

بدأت داليا تبكي! كانت تبكي بحرقة وعنف! دموعها تتسكب بغزارة حتى غطت وجنتيها وكل وجهها ولم تسعفها المناديل الورقية في تجفيف ما سال من دموع، فكانت تمسحهما بكلتي يديها! أخرجت من داخلها كل ما كانت تشعر به خلال السنوات الماضية من شعور بالذنب، ومن ندم، ومن خجل، وعار، واحتقار لما فعلته بقصد وبغير قصد، معاندة لوالدها، ورافضة لنصائحه وتعاليمه، ورافضة لصوت يسوع وهو يناديها ويمدّ يده إليها! كانت تبكي كل خطاياها وكل ما فيها وكل حياتها. وسط بكائها كان يعلو صوتها متحشرجاً يطلب عفو والديها وغفران الله عن سنوات الضياع التي مرت بها وهي تريد أن تسيِّر حياتها كما تشاء من دون أن تسلم إرادتها ليسوع لتتبعه وتخدمه بقلب منكسر ومحب. لحظةُ تنبُّهٍ وصحوةٍ، وخطوةُ رجوع لعائلتها ولربها وسيدها يسوع المسيح. لحظة حاسمة حازمة مصيرية في حياتها!

سالت دموع القس نديم نور وزوجته السيدة ريما نور أيضاً، وأحسّ طارق بعواطفه تتصارع داخله وكاد أن يشاركهم البكاء أيضاً. لم تعرف عيناه البكاء منذ موت والديه أمام عينيه. لكنه الآن أدرك أنه إن لم يبدأوا بالصلاة فسوف تنساب دموعه وتختلط بدموعهم ويعلو نشيجه ويمتزج بنشيجهم.

انحنى الأربعة راكعين معاً على الأرض الصخرية وقادهم القس نور في صلاة مثل تلك التي رفعها يوم قرر اتّباع يسوع وقبوله في حياته وقلبه. بعد أن انتهوا من الصلاة قام واحتضن كل من طارق وداليا واستمرّ يحتضنهما فترة وكأنه لا يريدها أن تنتهي.

بعد أن جففوا دموعهم، أخذ القس نديم نور يوضّح ويؤكد لهما أنهما أصبحا الآن جزءاً من عائلة الله إلى الأبد. وشرح لهما وأكد أن الكتاب المقدس يعد

بأنهما لن يفقدا خلاصهما أبداً. قرأ لهما نصوصاً من الكتاب المقدس تظهر وتعلن أن اسميهما قد كتبا في سفر الحياة وأنه في يوم انطلاقهما من هذا العالم فسوف يذهبان رأساً إلى السماء ليكونا مع الله إلى أبد الآبدين. قال لهما:

"قال يسوع: لن أترككم ولن أهملكم، هو يعني ذلك تماماً. أنتما تحتاجان الآن لأن تعرفا الكثير عن طريقة اتّباع يسوع. لا تحاولا أن تعرفا كل شيء الآن. تعلّما شيئاً فشيئاً وكل شيء في وقته. أول شيء هو أن تواظبا على قراءة الكتاب المقدس. وأن تتحدثا مع الله كل يوم بالصلاة. وأن تقضيا وقتاً مع مؤمنين سبقوكما في الإيمان، لديهم معرفة وعلم وحكمة يساعدانكما على النمو في إيمانكما. وفي حياتكما اليومية عندما تواجهان موقفاً ما إسألا نفسيكما قبل كل شيء، لو كان يسوع مكانكما في مواجهة ذلك الموقف، ثم تصرّفا حسب ما يرشدكما الروح القدس."

كانا يستمعان إليه بكل انتباه، ثم اعتدل طارق وسأل:

"الآن، كل خطاياي غُفرت ونُسيت؟ أليس كذلك؟"

"تماماً. يؤكد لنا الكتاب المقدس أن الله سيبعد عنا معاصينا كبعد المشرق من المغرب. ولن يتذكرها بعد ذلك."

"فأنا الآن طاهر؟"

"هذا صحيح. حسب وعد الله في كتابه المقدس قد غسّلك الله وأصبحت أبيض من الثلج وقلبك أصبح أخفّ من الريشة."

"وقد غفر كل خطاياي. لا بعضها. بل كلها؟!"

"طبعاً يا طارق. يؤكد ذلك لنا يوحنا الرسول في رسالته الأولى ١:٩ ويقول:

إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ، حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ."

تنهّد طارق براحة وقال وقد استعدّ جيداً لما سيقوله بعد ذلك وقال:

"عظيم. هذا عظيم جداً ورائع. هناك شيء أريد أن أقوله لكم."

أخذ طارق يفكّر: بعد أن اعترف بخطاياه إلى الله أصبح عليه الآن أن يعترف لهؤلاء الذين أظهروا له كل حب وفهم. لكن كيف؟ كيف يشرح لهم أن اسمه الحقيقي ليس طارق جميل. وأنه ليس خبير كمبيوتر، وأنه مطلوب القبض عليه من قوات الشرطة في أكثر من دولة. في الوقت نفسه كيف بعد كشف كل ذلك الخداع والكذب يستطيع أن يقنعهم أنه يحب داليا حقاً، وأنه يريد أن يتزوجها فعلاً ويقضي حياته يسعى ليسعدها؟ سوف يغضبهم ذلك جداً. كيف يأتي الآن بعد أن كذب عليهم طوال الوقت ليقنعهم بأن ما يقوله الآن صدق لا كذب. كيف يصدقون الآن أنه ليس كاذباً بالفطرة وأن كل كذبة كان ليحتفظ بحياته وحياة داليا؟ كيف؟

ما يريد أن يفعله الآن صعب، ومحاولته لن تجدي، لكن لا بد من أن يحاول مهما كانت نتيجة ذلك. المسيح نفسه عانى وتحمّل الكثير عن جرائم لم يقترفها، وعليه أن يواجه الحقيقة ويعلنها. ظهر على وجهه ما يدور بذهنه وسألته داليا:

"ماذا يا طارق. ماذا تريد أن تقول؟"

أجاب في حيرة:

"لا أعرف كيف أبدأ."

"قل. لا تتردّد. كلنا أصدقاؤك."

"أعرف ذلك وهذا يُصعب الأمر عليّ."

"ماذا؟"

"أرجو منكم أن تسمعوني بسعة صدر. حاولوا أن تفهموني ولا تكرهوني."

"طبعاً. لن نكرهك."

"عملت أشياء كثيرة مخجلة ومشينة."

قال القس نور مشجعاً:

"كلنا فعلنا ونفعل ما يشين. لكن كما قلت لك. ذلك كله انتهى. أُلقي في النسيان بعيداً."

"اسمي ليس طارق جميل. اسمي مروان عقاد. أيضاً هناك مشاكل أواجهها لا أعرف كيف ستنتهي..."

وقبل أن يقول شيئاً آخر انطلقت رصاصة مسدس تجاههم وهي تصدر صفيراً عالياً تردد صداه في جنبات الوادي وسقط طارق على الأرض يتلوّى من الألم.

صرخت داليا وقفز القس نور ينظر في كل الاتجاهات محاولاً أن يكتشف المكان الذي جاءت منه الطلقة، ثم احتضن زوجته وابنته ليحميهما من الخطر القادم من حيث لا يدري. دوت طلقة أخرى وأصابت هذه المرة مدرجات المسرح الحجرية فارتدّت منه تاركة زوبعة من الغبار، وشظايا الصخر تناثرت في الجو من حولهم.

صرخ طارق أو مروان منبّها:

"انحنوا إلى أسفل. اختبئوا خلف الأعمدة."

أمسك داليا بكل ما لديه من قوة وجذبها إلى أسفل على الدرجات التي كان يستخدمها الموسيقيون في المسرح القديم. كان القس نور وزوجته خلفهما لم يصابا بشيء. تتابعت الطلقات نحوهم تصيب وتصدم جنبات المسرح ومقاعده الحجرية. أدرك مروان أن ما كان يخشاه ويتوقّعه يحدث أمامه. وجدوه أخيراً بعد طول مطاردة، إلا أنهم لم يحاصروه وحده بل وفي صحبته عائلة بريئة بلا ذنب معرضة للقتل بتلك الرصاصات الغادرة.

اختبأ الأربعة خلف بعض الصخور الكبيرة. كانت السيدة ريما نور تبكي وزوجها يمسكها بين ذراعيه بحرص وخوف. توقفت داليا عن الصراخ لكنها كانت ترتجف بشدة من الرعب. كان همّ مروان الأول أن يهدّئ من روعها، لكنه في الوقت نفس يريد أن يعرف أين مكان هؤلاء القناصة ومن أين تأتي طلقاتهم القاتلة. ابتعد قليلاً عنهم وزحف ببطء شديد ليرى المعتدين من مكان أفضل، لكن داليا أمسكت بذراعه وقالت في فزع:

"إلى أين أنت ذاهب؟ لا تتركنا؟"

"لن أترككم. أنا فقط أريد أن أعرف كم عددهم."

"وهل هناك أكثر من واحد؟"

"هذا ما أتصوّره."

"من؟ من هم؟"

وجد حفرة وسط الصخور نظر من خلالها وهو يقول:

"القصة طويلة تحتاج إلى وقت، لكنكم لستم هدفهم. هم جاءوا إلى هنا ورائي."

"لماذا يا طارق؟ لماذا هم وراؤك؟ ماذا فعلت؟"

"اسمي مروان يا داليا. مروان عقاد. لكن صدقيني أنا لم أقترف جرماً. هم يلفّقون لي التهم وأنا بريء. والذين يقومون بذلك هم..."

انطلقت رصاصة أخرى قريبة جداً منهم فصرخت داليا وأحاطها مروان بكل جسده ليحميها.

لا يستطيع أن يبقى معهم أكثر من ذلك. يجب أن ينفصل عن القس نور وعائلته ويبتعد عنهم. يجب أن يستدرج لوميه وجودار ورجالهما خلفه بعيداً عن هذه العائلة التي يحبها بكل قلبه. لكنه بالكاد يستطيع أن يسير. ساقه اليسرى كانت تؤلمه ولا تقوى على حمله. ألقى نظرة عليها فوجد سرواله غارقاً في الدم. تابعت داليا نظرته ورأت الجرح الكبير يظهر من التمزّق الذي أحدثته الرصاصة في نسيج السروال وقد احترق والدم يلوّث كل ساقه. صرخت من هول المنظر وانخرطت في البكاء. أخذها بحنان بين ذراعيه وقال:

"لا شيء. سأكون على ما يرام. لا تخافي. لكن اسمعيني يا داليا. هل يمكن أن تسمعيني؟"

كان وجهها أبيض كالشمع، وراحت في إغماءة من صدمة عصبية.

الفصل الرابع والخمسون

"داليا. هل تسمعينني؟ هل تستطيعين أن تسمعيني؟"

كان يهمس إليها وهو نادم على ما جرّه عليها من ألم. قلبه كان يدمى داخله أكثر من ساقه. أخرج منديلاً من جيبه وربط ساقه محاولاً إيقاف النزيف. رفع وجهه إليها ونظر إلى عينيها المرتعبتين وهزّها مرات عديدة حتى تمالكت نفسها قليلاً وأبعدت بصرها عن الجرح الكبير الذي في ساقه. هزت رأسها علامة الإيجاب وأنها تسمعه. قال لها بسرعة:

"حسناً. اسمعيني جيداً. هؤلاء السفاحون جاءوا لأجلي. هم يريدونني أنا لا أنت ولا والديك. صدقيني هذه هي الحقيقة. لو حاولت عمل أي شيء لمساعدتي وحمايتي فسوف يتحولون إليك ويقتلونك من دون تردد أو رحمة. هم قتلة سفاحون يا داليا. قتلوا أطفالاً ونساء، وسفكوا دماء كثيرة سالت من مونت كارلو إلى الدار البيضاء. أنا كشفت مؤامرتهم، وعرفت جرائمهم، وحاولت أن أوقفهم، لذلك جاءوا ورائي ليقضوا عليّ ويسكتونني ويتخلصون مني ومن الأدلة التي تدينهم. هل تسمعينني؟"

هزت رأسها مرة أخرى وهي لا تستطيع أن تنطق بكلمة، فقد ألجمها الفزع. قال محاولاً أن يخفف عنها ويشرح لها الموقف على قدر استطاعته:

"سوف أخبرك بكل شيء. ليس الآن. الآن لا بد من أن أهرب وأبتعد من هنا. يجب أن أستدرجهم خلفي فيتبعونني ويتركونكم. هل تفهمين ما أقول؟"

قاطعته وهي ترتجف وتمسك بذراعه بقوة:

"لا... أنا ووالديّ..."

انطلقت رصاصات متتابعة من بندقية آلية أوقفتها عن الاستمرار.

لا مجال للتردد. لا وقت لذلك. إما الآن... أو لا أمل في النجاة. جذبها نحوه وقبلها ثم اندفع مبتعداً إلى مدخل نفق على يسار المسرح والطلقات تتابعه وصرخات داليا ووالدتها تلاحقه.

رفع صلاة سريعة، طالباً من الله الذي يؤمن به الآن ويعتمد عليه أن يحافظ على القس نور وزوجته وابنته، وجرى صاعداً الدرجات في خطوات سريعة متعرّجة ليتفادى الطلقات المنهمرة خلفه حتى وصل إلى مدخل أحد المقابر الصغيرة المنحوتة في الصخر. من كثافة الطلقات قدّر مروان عدد مطارديه بأربعة أو خمسة أو أكثر يتربصون له أسفل المسرح. هو يعلم جيداً أنهم جاءوا للنيل منه والقضاء عليه مهما كلفهم الأمر، كما أنه يتوقع أن عددهم سوف يتزايد بوصول تعزيزات من شركائهم في أي وقت.

حين وصل إلى موقعه الجديد استطاع بسبب الظلام السائد في المقبرة وارتفاعها أن يكشف الموقف بأكثر وضوح. من هناك رأى عائلة القس نور يزحفون من يمين المسرح نحو نفق آخر وهذا بعث بعض الطمأنينة إلى قلبه وإن كان يخشى أن القتلة لن يتركوهم ينجون بسهولة. قتل لومييه وجودار رانيا وزميلتها حتى يضمنا سكوتهما. هل يأتي الدور إلى هذه العائلة المسكينة أيضاً؟

فجأة لمح عدداً من الرجال يحملون بنادق آلية يطلقونها وهم يجرون عبر الساحة في اتجاه المسرح. الطلقات المتتابعة التي وجهوها ناحيته جعلته ينحني إلى أسفل في مخبئه بينما هم يقتربون بسرعة.

بحث مروان عن مخرج. لا شيء إلى يساره. إلا أنه وجد جهة اليمين نوراً ضئيلاً يظهر ما يدل على وجود حفرة هناك. كان الألم في ساقه يزداد لحظة بعد لحظة، لكنه تحرك ناحية اليمين ليجد فتحة تقود إلى ممر ضيق يؤدي إلى بعض الكهوف والمقابر المتناثرة.

سمع خطوات تقترب منه بسرعة فاحتضن الصخرة التي بجواره والتصق بها وسار بخطى سريعة بحرص على قدر استطاعته تفادياً للسقوط من أعلى إلى

الوادي الصخري السحيق تحته والذي بعمق ستين أو سبعين قدماً. أي انزلاقة قدمٍ فيها نهايته. زاد من الخطورة انزلاق الممر وعدم استوائه، وقد جعلت الزوابع الصحراوية، على مدى ألفي سنة، سطحه منساباً منزلقاً كسطح من رخام. على الرغم من كل ذلك استطاع مروان أن يعبر إلى الكهف المجاور حيث قبع داخله لحظة ليسترد أنفاسه ويستجمع قوته وأعصابه. كان الظلام يخفيه داخل الكهف وفي الوقت نفسه كان يتيح له أن يرى أي شخص يقترب من مخبئه. بنظرة إلى أسفل استطاع أن يحصي ثلاثة رجال يجرون في الوادي ليأخذوا مواقع جديدة في الكهوف المنتشرة في أعلى الجبل والتي تواجه الكهف الذي يختبئ فيه. من موقعهم ذلك يستطيعون أن يصطادوه بسهولة. الجرح الغائر في ساقه كان يؤلمه ويشل حركته ويجعله عاجزاً عن البحث عن أي مكان آخر يختبئ فيه. إصابته قيّدته وجمّدته في مكانه.

علا صوت تردد صداه في أرجاء المدينة القديمة:

"مروان عقاد. أنت محاصر من كل جانب. مطلوب القبض عليك بسبب جرائم القتل التي ارتكبتها. أخرج بهدوء من مخبئك رافعاً ذراعيك إلى أعلى رأسك. لن تصاب بضرر لو فعلت ذلك."

تعرّف مروان على صاحب الصوت. هذا صوت لوميه الذي سمعه في مقابلات أجراها التليفزيون الفرنسي معه مرات عديدة منذ حادث إطلاق الرصاص في مونت كارلو. صوت حاد له رنين كالطرق على سطح من الصفيح. منذ سمعه وهو عالق في ذاكرته. صوت كله غرور وعجرفة وتعالٍ وكبرياء. على الرغم من أنه كره هذا الصوت لكنه لم يستطع أن ينساه. لن يستسلم أبداً. لن يصيبه ضرر! كذب! لوميه يستدرجه. التسليم معناه الموت! يغدرون به ويقتلونه بمجرد رؤيته!

مدّ مروان يده يبحث في جيوبه عن تليفونه الهوائي على أمل أن يتصل برامي. قد لا يستطيع أخوه الصغير أن يفعل له شيئاً وهو في هذه المحنة، لكن على الأقل يخبره بما هو فيه. لم يجد التليفون في أي من جيوبه. تذكر أنه قد

تركه في الحقيبة في منزل القس نور. كيف يفعل ذلك؟ كيف ينسى وسيلة الاتصال الوحيدة بينه وبين شقيقه وهو يجري هارباً مطارَداً من أعداء لا يرحمون؟ أخذ يوبّخ نفسه بصوت عال على غبائه وإهماله.

لمست أصابعه داخل إحدى جيوبه بعض السجائر الملفوفة التي تحتوي على مخدر الماريجوانا وعلبة ثقاب. هزّ رأسه متحسراً على أيام قضاها في ضلال وضياع. أدهشه أسلوب تفكيره الجديد وتعجب للسرعة التي غيّرته هكذا. هل هكذا يغيّر المسيح مفاهيم من يتبعونه؟ وبهذا الشكل الذي لم يتوقعه وبهذه السرعة؟ شيء عجيب لا يفهمه وقد لا يستطيع أن يفهم إلا حين يلتقي بيسوع وجهاً لوجه ويسأله. أحسّ أنه يقترب من ذلك الوقت. فرك مروان السجائر ورمى بها بعيداً في تقزّز، وتحسس طريقه بحذر داخل الكهف. ما إن وصل إلى آخره حتى أشعل عود ثقاب ورأى في ضوئه الخافت زجاجة كوكا فارغة وبعض علب الحلوى ملفوفة ومبعثرة على الأرض ما يدل على أن بعض الأطفال كانوا يستخدمون الكهف للاختباء واللعب. انطفأ عود الثقاب بعد أن حرق أصابعه.

"مروان عقاد. هذا آخر إنذار لك."

جاءه صوت لوميه وقد ازداد اقترابا منه. بدا له أن المفتش الفرنسي صعد إلى أعلى مقترباً من ساحة المسرح الحجري. لا بد من أنه في إحدى المقابر المنتشرة من حوله. تردد الصوت مرة أخرى:

"أخرج حالاً وإلا سنطلق عليك الرصاص أينما كنت. لن تستطيع الهرب. لا طريق للخروج من هنا. مروان عقاد أمامك عشر ثوان."

لن يهزه تهديد لوميه. لن يستسلم له أبداً. جاء الصوت بالعدّ التنازلي:

"عشرة... تسعة... ثمانية."

أشعل مروان عود ثقاب آخر واستمر متجهاً إلى الخلف.

واستمر العدّ:

"سبعة... ستة."

يبدو أن لوميِيه على حق. لا طريق للخروج ولا وقت أمامه.

"استمر العدّ:

"خمسة... أربعة."

أشعل عود ثقاب آخر ثم رجع في اتجاه مدخل الكهف بعد أن اكتشف أن لا مخرج خلفي له.

وصل إلى صخرة كبيرة بقرب المدخل وهو يعرج. ربض مختبئاً خلفها وهو يضغط على أسنانه من الألم. كان يدرك تماماً الموقف الصعب الذي هو فيه.

يعرف أنه محاصر من كل جانب، لكنه يعرف أيضاً أنه لن يستسلم من دون قتال.

الفصل الخامس والخمسون

استمرّ العدّ التنازلي:

"ثلاثة... اثنان... واحد... وهو كذلك يا مروان عقاد... لقد أضعت الفرصة التي كانت أمامك."

واندفع اثنان من رجال لوميه إلى الكهف من جانبي مدخله وهم يطلقون أعيرة نارية متتالية من بندقيتين آليتين. امتلأ الكهف بالنار والدخان والرصاص يندفع ويضرب الجدار الخلفي. انبطح مروان إلى الأرض وقد تكوّر إلى أسفل خلف الصخرة ليحمي نفسه من الطلقات النارية المتجهة ناحيته. قبع ساكناً منتظراً النهاية.

لكن النهاية لم تأتِ. ليس بعد..

صرخ أحد الرجلين يسأل زميله وهو يعيد شحن البندقية:

"أين هو؟"

أجابه وهو يحشو بندقيته بالرصاص:

"لا أعرف."

رأى مروان الفرصة سانحة أمامه. لم يتردد وبتلقائية وسرعة قفز على أحد الرجلين الذي كان قد اقترب من مخبئه خلف الصخرة وأمسك برجليه بقوة وجذبه بعنف. صرخ الرجل وقد فقد توازنه وسقط على الأرض.

قبض مروان على البندقية قبل أن يفيق الرجل من الصدمة وضربه بها بشدة في وجهه حتى غاب عن الوعي والدم يسيل من أنفه، ثم التفت نحو الرجل الآخر وأرسل دورتين من الطلقات نحوه أسقطته قبل أن ينتهي من حشو بندقيته. أخيراً في يده سلاح وقد تخلص من اثنين من مطارديه وأصبحت

المبادرة في يده. تم ذلك كله في ثوان معدودة.

اقترب من الرجل الملقى بجواره وفحص نبضه. استطاع مروان على الرغم من الظلمة داخل الكهف أن يرى رأسه ووجهه غارقين في الدماء وأنفه قد تحطّم من عنف الضربة، لكنه لا يزال يتنفّس وبعروقه نبض وسوف يعيش.

زحف نحو الرجل الآخر الملقى على الأرض وهو يتلوّى ويصرخ من الألم. لو حدث هذا في الأمس لأطلق رصاصتين على رأسه وأنهى حياته بلا أدنى تردد أو تفكير أو رحمة. أما اليوم والآن فقد طرد ذلك الخاطر وأبعده عنه باشمئزاز. لو استطاع لعالج جراحه بدلاً من الإنهاء عليه وقتله. اقترب منه وهدّأ من روعه وأنذره وأمره أن يبقى في مكانه صامتاً لا يتحرّك وإلا... ونجح في أن يخيف الرجل ويخرسه من دون أن يقتله.

أخذ مروان يفكر. وماذا بعد؟ هناك ثلاثة أو أربعة من مطارديه في الخارج مع لوميه.

علا صوت لوميه يسأل رجاله:

"هل قضيتم عليه؟ هل مات؟ قتلتموه؟"

أجابه مروان من داخل الكهف:

"لا. ليس بعد."

ومن دون تردّد لفّ حزام البندقية الآلية من حول رقبته، واندفع خارجاً من الكهف، واحتضن جدار الجبل الصخري، واتخذ طريقه بسرعة وحذر ملتصقاً بالصخور حتى وصل إلى درجات صخرية صاعدة إلى قمة الجبل. انطلقت النيران من كل جانب لكنه لم يتوقّف عن التقدم إلى أعلى وهو يسير في خطوات متعثّرة وخطوط متعرّجة ليتفادى الطلقات. قلبه كان يخفق بشدة ورأسه يكاد ينفجر وساقه ملتهبة من ألم الرصاصة التي استقرت بجوار ركبته، لكنه كان يعرف جيداً ما يجب عليه أن يفعل. كان لا بد من أن يُبعد لوميه وسفاحيه عن داليا وعائلتها. ليس أمامه إلا أن ينجح في استدراجهم بعيداً مهما كلفه ذلك.

تقدم مروان واقترب من قمة الجبل وهو يتسلّق السلم المنحوت في الصخر منطلقاً بسرعة نحو هدفه كالسهم وسط وابل من الطلقات النارية. وما إن وصل إلى القمة حتى صدم سمعه صفير رصاصة منطلقة نحوه تصيب كتفه الأيمن. دفعته قوة الطلقة بشدة وجعلته يطير في الهواء ويسقط على وجهه يصرخ ويصيح من الألم. حاول بكل جهد أن يستعيد انتظام تنفسه ويستدير والألم يعتصره ويلمس الجرح الذي أحدثته الطلقة. غطى الدم يده. زحف يبحث عن مكان يختبئ فيه. رأى في جانب الجبل بروزاً صخرياً ليس بعيداً عنه يصلح للاحتماء. لكنه سمع أصوات رجال يتسلقون الدرجات خلفه.

في أقل من لحظة استدار ووجّه البندقية الآلية نحوهم وأطلق وابلاً من رصاصها على ثلاث دفعات أسقطت اثنان من الرجال الذين جاءوا خلفه لقتله. أحدهم سقط للخلف واستطاع مروان أن يسمع صوت ارتطامه بالصخور. أما الآخر فارتمى على الأرض تحت قدمي مروان بلا حركة أو صوت. شعر بالغثيان فلم يرد أن يقتل أحداً. ولم يكن يسعى لإيذاء إنسان. إلا أنه لم يجد مفراً من أن يدافع عن نفسه. كان لا بد من أن يحمي نفسه ممن يسعون لقتله.

وقف يلتقط أنفاسه وقد صدّ الهجوم وأوقف مطاردتهم له، لكنه كان يعرف أن هناك آخرين قادمين. جاهد بكل ما بقي لديه من قوة في أن يزحف نحو الصخور ليحتمي خلفها. وانتظر. كان ينتظر وأعصابه كلها متوترة، وعضلاته مشدودة، وأنفاسه لاهثة، والنبض في عروقه لا يهدأ، والنار المشتعلة في جروحه لا تخمد.

كانت الأصوات أسفل الجبل تصل إلى مسمعه. اضطراب وضجة وصراخ عند السفح وصفارات سيارات شرطة من بعيد. لكن تلك الأصوات التي كان يسمعها كانت تبعد وتخفت وتتلاشى. شعر بالثقل في جفونه وسحابة من ضباب تغشي عينيه وأحسّ بأنه ينزلق إلى صدمة عصبية. غمره ضعف وتخاذل لم يستطع أن يقاومه.

لفّه ظلام وسواد وغاب عن الوعي. فجأة رجع إليه إحساسه، وفتح عينيه، وعاد إلى وعيه، إلا أن قلبه كاد أن يتوقف وهو يرى على بعد عشرة أقدام منه مارسيل لوميه يقف أمامه وبيده مسدس عليه جهاز كاتم للصوت مصوّب نحو رأسه.

شدّ قبضته بلا تردد على زناد البندقية الآلية التي يحملها لكنها لم تنطلق. حاول مرة أخرى بلا جدوى. إما تجمّدت أو فرغ رصاصها. مهما كان سبب عدم انطلاقها فقد جاءت النهاية. الدم كان ينهمر بغزارة من كتفه ومن ساقه. كان يتنفس بصعوبة ويحاول جاهداً أن يبقى متيقظاً واعياً. ليس أمامه أي سبيل للدفاع عن نفسه وهذا الرجل جاء ليقضي عليه.

قال لوميه ساخراً:

"أهذا مروان عقاد؟ الرجل الخطير؟"

لم يتكلم مروان واستمر لوميه يقول:

"ها. عظيم. الآن نستطيع أن نتكلم معاً."

نظر إليه مروان بعيون مرهقة متعبة وقال:

"نتكلم؟ أتريد أن نتكلم فعلاً؟ كلمني وقل لي: لماذا فعلت ذلك كله يا سيادة المفتش؟ يا رجل الشرطة الهمام! كيف تحالفت مع كلوديت رمزي لتقتل زوجها رفيق رمزي؟ ولكي تقتل ابنته الوحيدة بريجيت؟ تقتل كل من يقف في طريقك؟ ألم تُقسم أن تقبض على المجرمين؟ تقبض عليهم لا أن تتحالف وتتعاون وتتآمر معهم؟ كيف يحدث ذلك يا سيدي يا من تعهدت أن تحافظ على أمن الناس وحياتهم، لا أن ترهبهم وتطاردهم وتقتلهم؟ ألديك إجابة؟ أجبني؟"

ضحك لوميه عالياً وقال:

"أجيبك؟! أنا لا أجيب حثالة البشر أمثالك. لا حديث لي مع وغد سافل."

لم يُعرْ مروان الشتائم التي وجهها إليه واستمر يكمل حديثه:

"بعد كل ما فعلت بي أريد أن أعرف. من واجبك ومن حقي أن أعرف الحقيقة قبل أن تقتلني وتنهي حياتي."

نظر إليه لوميه في ازدراء واحتقار وغطرسة وقال:

"ما فعلته بك؟ أنا لم افعل بك شيئاً بعد. أنت غبي يا مروان عقاد. وقوفك في طريقي دليل على غبائك. خطتي كاملة وتدبيري دقيق، والمؤامرة معدة بشكل عبقري. من يجرؤ أن يشك في مفتّش المباحث الذي يتناول التحقيق في الجريمة؟ من يستطيع أن يوجه إليَّ إصبع الاتهام؟ حتى ظهرت أنت. جئت من الظلام. قفزت مثل شيطان العلبة."

قال مروان في إصرار وثقة:

"ستنتهي يا لوميه وسيُقبض عليك."

"سنرى من الذي سينتهي."

ما إن قال لوميه ذلك حتى ظهر رجلان من رجاله، يبدو أنهما آخر رجلين معه. وقفا بجواره بعد أن صعدا إلى قمة الجبل ولحقا به. انتصبا في مواجهة مروان وقد شرعا مسدسيهما في وجهه.

الفصل السادس والخمسون

"أخي يعرف كل ما أعرف. رجاله في البرازيل يحيطون بكلوديت رمزي الآن. حين يوقعون بها ويمسكونها يضعونك في مأزق لا تُحسد عليه. ستنتهي يا لومييه." قال مروان ذلك وهو يصرّ على أسنانه من الغيظ والألم.

ضحك لومييه ساخراً وهو يراه ملقى أمامه مجروحاً ضعيفاً بلا حول ولا قوة وقال متشفّياً:

"أخوك في السجن وكلوديت رمزي لا تزال هاربة مختفية لم يعثر عليها أحد. الواقع أنك أنت الذي انتهيت وفي مأزق لا تُحسد عليه يا مروان عقاد."

"أنا لا أصدق..."

قاطعه بخشونة وقسوة:

"أسكت. إخرس. يكفي ما سببته لي من متاعب. استدر واستلقي على بطنك وضع يديك خلف ظهرك."

"لا أبداً."

"حالاً. افعل ذلك حالاً."

"لتطلق الرصاص على رأسي؟ تقتلني كمحكوم عليه بالإعدام؟ أبداً. لن يحدث ذلك. إنسَ ذلك تماماً."

قلب لومييه شفتيه باشمئزاز وأشار إلى أحد الرجلين فأخذ يضرب مروان بقدمه بعنف في جنبه ورأسه بضربات قوية متكررة، ثم أداره على بطنه. كان مروان يزأر من الألم ويتنفس بصعوبة. حاول أن يصلي بعد أن أدرك تماماً أن هذه نهايته وأن عليه أن يلجأ إلى الله مسلماً حياته ومصيره. لم يستطع. لم يجد كلمات يرفعها إلى الله مصلياً.

تحرّك لوميه ووقف خلف مروان وصوّب مسدسه الصامت نحو رأسه وقال بكل ما بقلبه من حقد وتشفّ وانتصار:

"الوداع يا مروان عقاد. إلى الجحيم."

حرّك مروان رأسه ونظر إلى لوميه وهو يحرّك إصبعه على زناد مسدسه. فجأة ارتفع صوت هدير عنيف وعال، وهبت ريح شديدة هزّت الكهف، واندفعت موجات عاتية من التراب قادمة من أعلى الجبل. تحوّل الجميع ينظرون إلى المدخل يحاولون اكتشاف ما يحدث. رأوا طائرة مروحية هليكوبتر تظهر خلف حافة الصخور وشاهدوا عليها جان كلود جودار ورامي عقاد، وارتفع من مكبر الصوت بها كلمات المفتش جودار آمراً:

"أيها المفتش لوميه. إلقِ بسلاحك. ألقوا جميعاً بأسلحتكم حالاً. أنا أعرف كل شيء أيها المفتش. المؤامرة انكشفت. ألقى رجالي القبض على كلوديت رمزي في ساو پاولو واستُجويت واعترفت بكل شيء. نعرف دورك في جرائم الاختطاف المزعوم والابتزاز والقتل. ونعرف أنك كنت تريد أن تنسب ذلك إلى مروان عقاد. ولدينا أدلة قوية قاطعة تؤكد أنك قاتل رانيا فواز وزميلتها في السكن في الدار البيضاء. انتهى الأمر يا لوميه. انتهت المؤامرة وانكشفت. إلقِ بسلاحك. ضعه على الأرض ولن نصيب أحداً بأذى."

خفض رجلا لوميه سلاحيهما وألقيا بهما على الأرض ثم رفعا ذراعيهما في الهواء فوق رأسيهما. أما لوميه فرفض أن يستسلم. غطى عينيه بيده ليحميها من التراب المندفع إلى الداخل. لم يرتدع لتهديد جودار وإصراره والتفّ ناحية مدخل الكهف وأخذ يطلق رصاص مسدسه على الطائرة ومن بها مرة وراء الأخرى بلا توقّف.

انحرف الطيار إلى اليسار وإلى اليمين ثم دار من حول قمة الجبل ليبتعد عن مرمى طلقات لوميه. زاد من كثافة النيران التي يوجهها إلى الطائرة. أصابت بعض طلقاته مقدمة الطائرة وحطّمت زجاجها فتناثر في كل الاتجاهات وأصاب وجه الطيار ما أدى إلى هبوط الطائرة للحظات، لكنه سرعان ما

استعاد وعيه وتمكن من السيطرة على الطائرة وابتعد عن صخور الجبل التي كاد أن يصطدم به، ثم عاد للارتفاع إلى أعلى لبضعة مئات من الأقدام بينما لوميه يحشو مسدسه من جديد.

سنحت فرصة غالية مرة أخرى لمروان نسي فيها كل ما يشعر به من ضعف وألم، وبزغت أمامه صورة داليا وعائلتها والخطر يحوم من حولهم، ورامي الذي جاء لينقذه، وفي أقل من ثانية اعتدل ووثب وانقضّ على لوميه. سقط المسدس من يده وتدحرج ساقطاً على الصخور واستقرّ في حفرة بجانب الكهف. ركله مروان بكل ما لديه من قوة في معدته ووجهه مرات متتالية أسقطته لكنه سرعان ما تحامل على نفسه واستعاد موقفه ودفع قدمه بقوة وضرب مروان في ركبته المصابة فانهار وسقط وهو يصرخ من شدة الألم. وفجأة وجد لوميه يربض فوقه ويداه من حول رقبته وهو يضغط بقوة عليها ليكتم أنفاسه وينهي حياته.

حاول أحد الرجلين أن يصل إلى المسدس الملقى على الأرض إلا أن ثلاث طلقات متتابعة أتت من الخارج. فاجأت الطلقات لوميه وجعلته يتلفّت نحو الطائرة ليرى من الذي أطلقها، كذلك تطلّع مروان ليجد جودار وهو يصوّب بندقيته الآلية نحو رأس لوميه الذي حملق بعينين مفتوحتين على اتساعهما نحوه. في لمح البصر دفع مروان ركبته بكل قوته إلى فخذ المفتش الفرنسي، وحرر رقبته من قبضته، وقفز على ظهره، وألقى به إلى الأرض، وألصق وجهه بالصخر، وداس ظهره بشدة، وظل يضغط عليه بعنف بوضع تدرّب عليه حين كان يخدم في الجيش اللبناني.

تجمّد لوميه وشلّت حركته، ولم يستطع التحوّل يميناً أو يساراً. تمكّن منه مروان تماماً وتغيّر الموقف وهو يطرحه أرضاً وبكل ما به من غيظ وحقد نحوه لفّ يديه بإحكام من حول رقبته.

أخذ يضغط بشدة على رقبته ويزيد من ذلك وهو يزمجر غاضباً. ارتجف لوميه تحت قبضته وتحشرج صوته وهو يصارع ويحاول أن يستنشق نسمة

هواء. تلوّن وجهه بلون أحمر داكن ثم تغيّر إلى اللون الأزرق ولم تتراخَ أصابع مروان عن رقبته.

"مروان. لا. لا يا مروان. أرجو منك ألاّ تفعل ذلك."

وصل إليه الصوت الذي يناديه واضحاً. كان صوت داليا. أدهشه أن يسمع صوتها قريباً منه هكذا.

فتح عينيه واتجه بنظره ناحية الصوت ليرى داليا تسير نحوه في خطوات مترددة بطيئة مفتوحة العينين. كانت عيناها حمراوين غارقتين بالدموع.

ارتفع صوتها مرة أخرى:

"مروان. لا تفعل هذا. هذا خطأ. لا يا مروان."

رأى الطائرة وقد هبطت على قمة الجبل خارج الكهف ورامي يقفز منها ليقف إلى جوار داليا. لحظات ولحق بهما القس نور وزوجته السيدة ريما. أما جودار فكان يضع القيد الحديدي في يد الرجل الثاني الذي وقف في ذهول وخوف مستسلماً بلا مقاومة لرجال جودار الذين جروه إلى الطائرة.

اقترب جودار نحو مروان وقال:

"أؤكد لك يا مروان أن هذا الرجل سيقضي بقية حياته في السجن. لا بسبب ما فعله بك فقط بل عقاباً على كل ما اقترفه من جرائم. هذا أؤكده لك وأضمنه، وسأجعله شغلي الشاغل من الآن. أعدك بذلك."

كان جسد مروان ينتفض، وقلبه ينبض بشدة، ولا تزال يداه ممسكتين برقبة لوميه وركبته تضغط على ظهره وهو قابع فوقه. أما لوميه فكان مسجى على الأرض بلا حراك، والألوان تتتابع على وجهه وعيناه مفتوحتان على اتساعهما وهو يغيب عن الوعي. نظر مروان إلى شقيقه رامي وإلى القس نور وزوجته ثم إلى عيني داليا. رآها وقد توقّفت عن الكلام، لكن عيناها كانتا تترجيانه أن لا يقترف خطأ جديداً. عليه الآن أن يفعل الصواب.

وهذا ما فعله.

أرخى قبضته، ووقف على قدميه، وترك لوميه لجودار. ما إن فعل ذلك حتى اندفعت داليا نحوه وارتمت بين ذراعيه.

* * * * *

أمامه الكثير ليتذكره والكثير لينساه. الكثير ليقوله لداليا ووالديها والكثير ليقولونه له. الشيء الذي اقتنع به وصدّقه هو الحق الذي أدركه والنور الذي أضاء أمامه... هو ما قاله له القس نديم نور وأكده أنه الآن أصبح إنساناً جديداً له حياة جديدة، وأن عليه أن يتمتّع بهذه الحياة يوماً بعد يوم. لقد كان شاهداً لجرائم فظيعة، وهو الآن شاهد لمحبة عظيمة. محبة ربه وسيده ومخلصه يسوع المسيح. لم يكن يدري تماماً ما الذي سوف يحدث له في الأيام المقبلة. ما الذي يخفيه له المستقبل. لم يكن يعرف كيف يستطيع أن يعبر عن حبه لداليا بالقدر الذي تستحقه. شيء واحد كان يدركه جيداً ويعرفه تماماً؛ هو أنه مستعد أن يبدأ حياته الجديدة حالاً، من الآن وإلى النهاية.

النهاية